قادة الفتح الإسلامي

قادة فتح المغرب العربي

الجزء الأول

تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العراقي

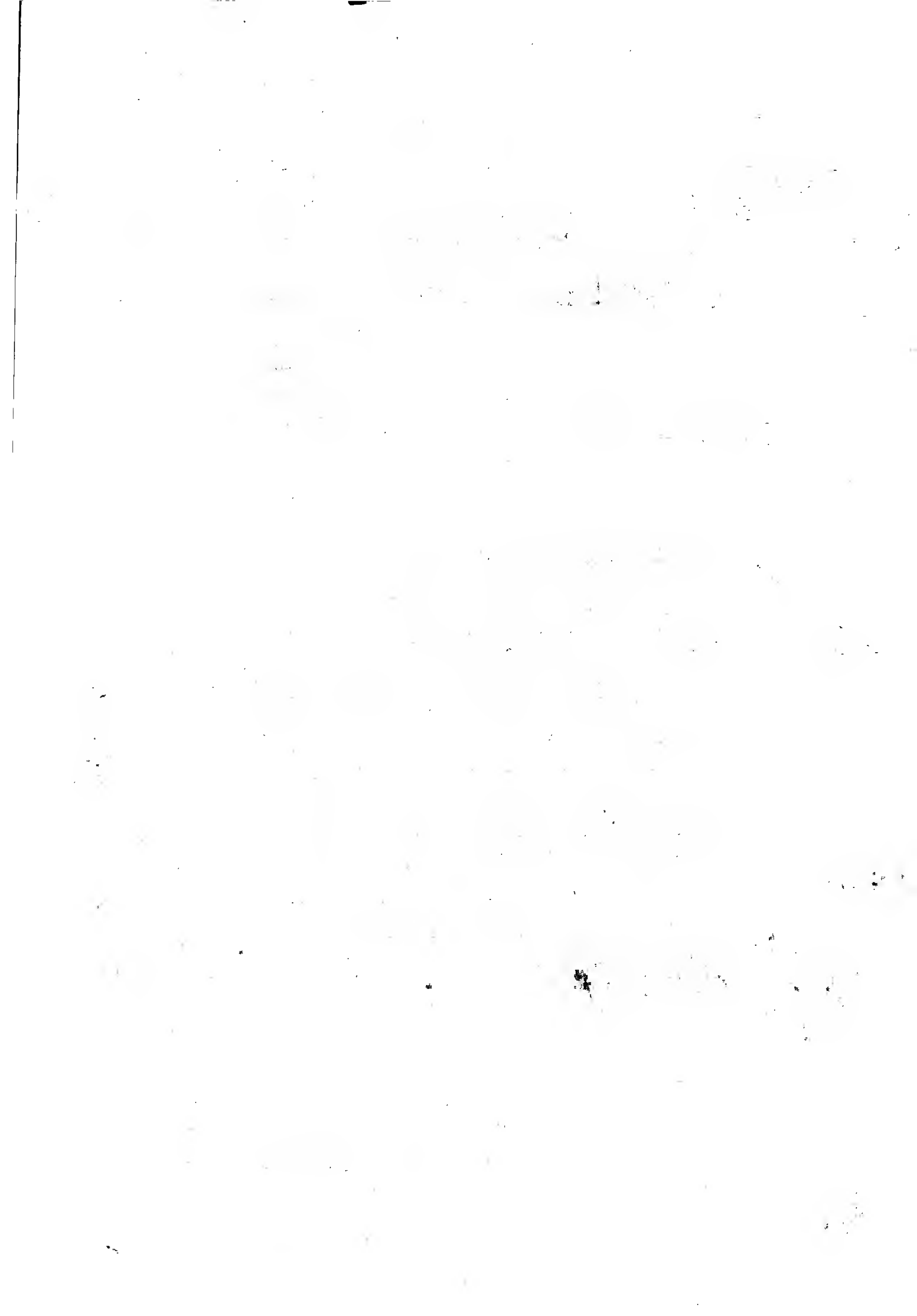
دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

" وَعَدَ ٱللهُ ٱلذين آمَنوا مِنكم وَعَمِلوُا ٱلصَّالِحَات ، ليَسْتَخلِفَنهَّمْ في ٱلأرضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، وَليُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهم ٱلذِي ٱرتَضَى لَهُم ، وَليُبدِلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوفِهِم أَمْنًا ، يَعَبدُونَني لَا يشْرِكُونَ بي شَيئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأولئِكَ هُم الفَاسِقُونَ "

(القرآن الكريم)



الإهداء

إلى ذي النورين عثمان بن عفان

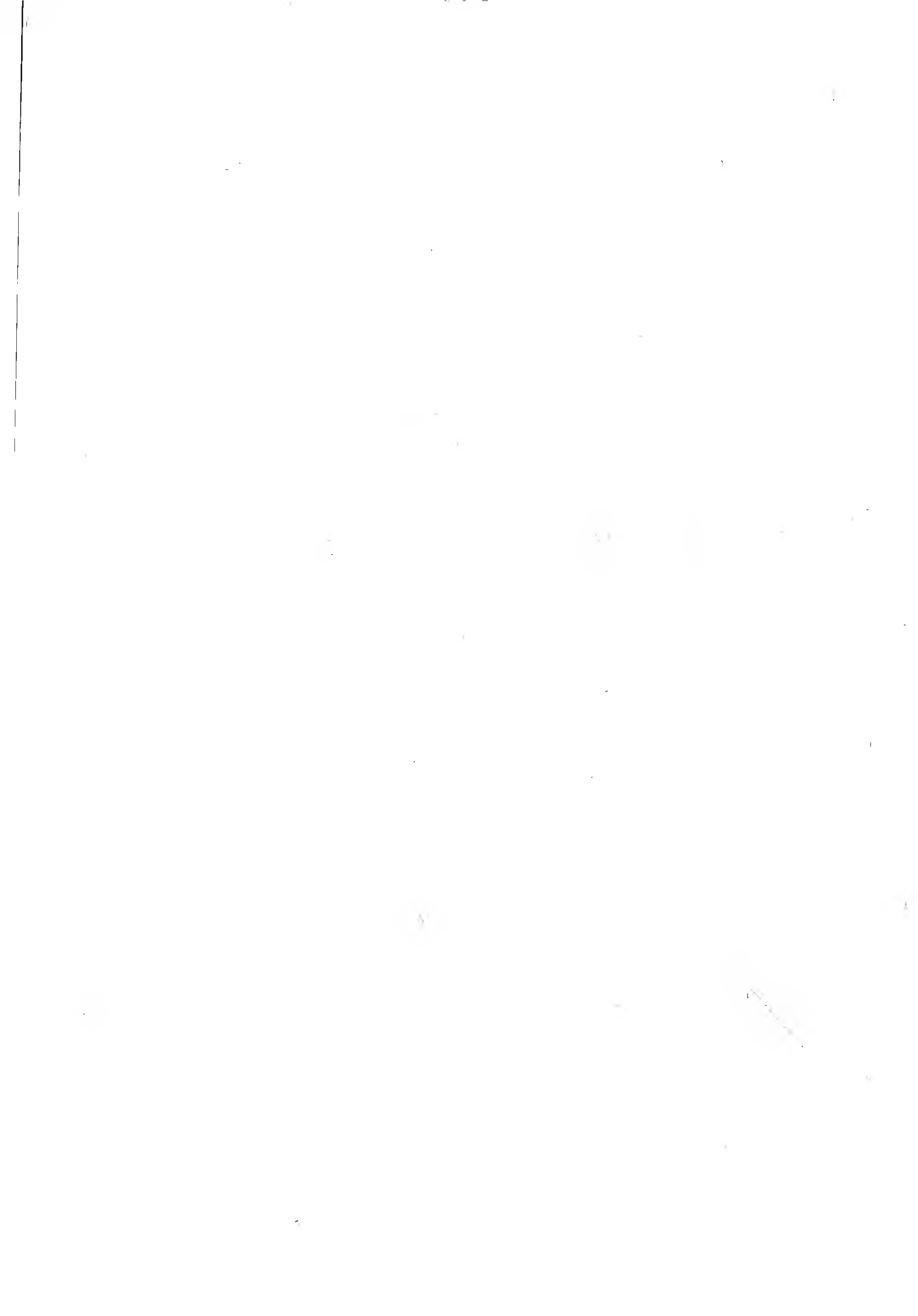
كنت من السابقين الأولين ، فصليت إلى القبلتين ، وهاجرت الهجرتين .

وجهزت جيش العسرة بمالك ، وجمعت القرآن الكريم في أيامك .

وكنت أول من بعث الجيوش لفتح إفريقية ، فأصبحت تلك البلاد عربية إسلامية منذ فتحها المسلمون ، وستبقى عربية إسلامية إلى الأبد بإذن الله .

وهذا الكتاب تذكير بجهادك وذكرى لأمجادك ، فهو منك وإليك . رضي الله عنك وأرضاك ، وجعل الجنة مستقرك ومثواك .

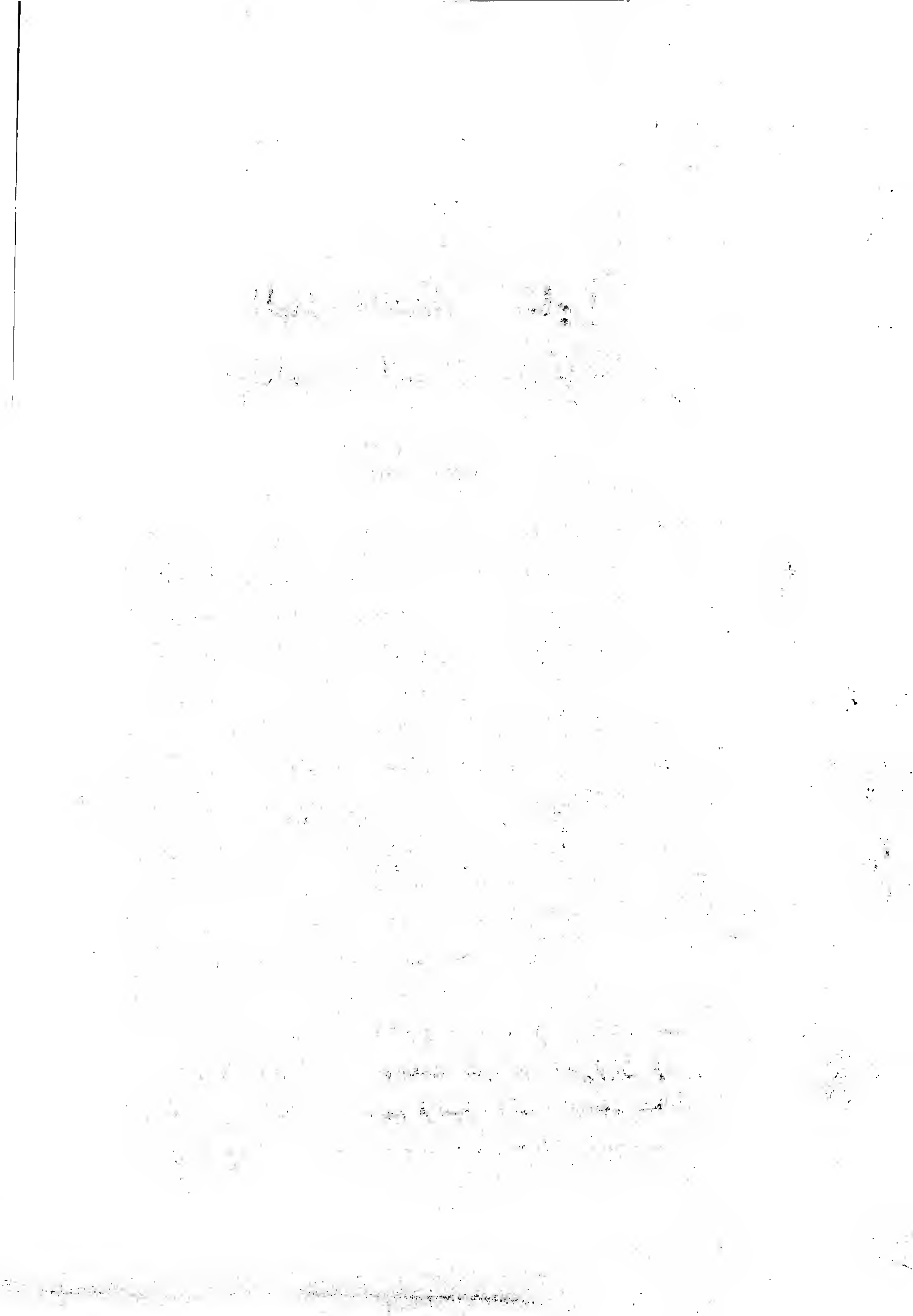
محمود شيت خطاب



المقدمة

" قُلْ لِلَّهِ المَشرِقُ وَالمَغرِب ، يهْدِي مَن يَشَاء إلى صِرَاطٍ مُستَقيم "

(القرآن الكريم)



البلاد والسكّان والتاريخ
قبل الفتح الإسلامي وفي أيّامه

مُستهَل

في المغرب العربي حركة مباركة تدعى : حركة التعريب ، هدفها إعادة لغة القرآن الى مكانتها السامية في ربوعه، لغة يتخاطب بها الناس في دورهم وفي أسواقهم وفي دواوينهم الرسمية وغير الرسمية وفي مدارسهم وجامعاتهم .

لقد حاول المستعمرون أن يفرضوا لغتهم على بلاد المغرب العربي : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وبذلوا من أجل تحقيق مآربهم هذه جهوداً جبارة ، ورافق استعمارهم العسكري والسياسي والإقتصادي استعمار من نوع آخر ، هو : الاستعمار الفكري ؛ فنجحوا في استعمارهم الفكري في بعض أجزاء المغرب العربي ونسي بعض سكانه لغتهم الأصلية ، واستعاضوا عن لغتهم الأم بلغة المستعمر ، ولولا المدارس الدينية وبعض الكتاتيب التي بذلت جهودها المشكورة لتعليم القرآن الكريم ، لتضاعف أثر الإستعمار الفكري في المغرب العربي ، ولازداد عدد الذين انقطعت صلتهم بالعربية من أهله ، ولأصبح عدد الذين يرطنون باللغات الأجنبية : الايطالية والفرنسية والإسبانية أضعاف ما هم عليه اليوم .

لقد كنت في فرنسا سنة ١٩٥٥ م في طريق عودتي من إنكلترا بعد اجتيازي دورة الضباط الأقْدَمِيْن ، فوجدت كثيراً من الجزائريين في باريس : أسماؤهم عربية إسلامية ، ولغتهم فرنسية ، وكنت اسمعهم يتخاطبون بهذه اللغة في جامع باريس ، ولا يعرفون حرفاً واحداً من اللغة العربية .

وزار العراق وفد عسكري من إحدى دول المغرب في سنة ١٩٥٦ م ، فكان في منهجه زيارة قطعات الموصل العسكرية . وحين زار هؤلاء وحدات الموصل العسكرية ، لم نستطع التفاهم مع أعضاء الوفد إلاّ بلغة أجنبية !!! .

وزارت العراق وفود كثيرة من قادة المغرب العربي بعد سنة ١٩٦٣ م ، فوجدتُ أكثرهم لا يحسن التفاهم بلغة القرآن ، وكنا نكلمهم بلغة أجنبية أيضاً !! .

ولكننا وجدنا في العامل البسيط الذي رأيناه في باريس ، وفي الضابط الكبير الذي زار القطعات العسكرية المرابطة في مدينة الموصل ، وفي الزعيم السياسي الذي زار العراق رسمياً – وجدنا في كل هؤلاء حرصاً لامزيد عليه لتعلّم اللغة العربية والتخلّص نهائياً من بقايا الاستعمار الفكري .

من هنا بدأت حركة التعريب المباركة بعد حصول أقطار المغرب العربي على استقلالها ، فأقبل على تعلّم العربية بشوق لا مزيد عليه سكّان المغرب العربي ، ونظّم المسؤولون في تلك البلاد المناهج الدراسية لتحقيق هذا التعريب بأقصر وقت ممكن .

وهذا الكتاب هو جهد المقل معاونة للتعريب ، وكل عربي وكل مسلم مسؤول عن دعم هذه الحركة الميمونة بما يستطيع من جهد أو مال .

إن هذا الكتاب يذكّر أهل المغرب العربي في أقطاره كافة ، كيف دخلت العربية الى بلادهم ، وكيف انتشر الإسلام في ربوعها ، وكيف ضحّى آباؤهم وأجدادهم بأنفسهم وأموالهم مجاهدين من أجل تحقيق هذه الغاية السامية .

وإذا كان سكّان المغرب العربي في هذا القرن ، قد ضحّوا بما لا مزيد عليه من الشهداء لإعادة المغرب عربياً إسلامياً ، فقد ضحّى آباؤهم وأجدادهم من قبل بما لا مزيد عليه من الشهداء في القرن الأول الهجري ليكون المغرب عربياً إسلامياً .

ولا عجب في ذلك ، فهؤلاء الأشبال هم من أبناء أولئك الأسود ...

وفي هذه المقدمة ، سأتحدّث عن بلاد المغرب العربي من الناحيتين الجغرافية والتاريخية : من الناحية الجغرافية لمعرفة معاني أسماء بعض الأماكن التي تَرِدُ كثيراً في تاريخ القادة الفاتحين ، ومن الناحية التاريخية لمعرفة سكّان المغرب القدماء والدول التي كانت تحكمه قبل الإسلام وفي أيام الفتح الإسلامي .

البــــلاد

١ - إفريقيّة :

أطلق الفينيقيون لفظ أفري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (Utica) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة ؛ وعنهم أخذه اليونان ، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الى المحيط ، ومن ثمّ سميت هذه المنطقة : (أفريكا) ، أي بلاد الأفْرِي ، واستُعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة . وأخذ معنى هذا اللفظ يتّسع شيئاً فشيئاً كلّما اتّسع سلطان الرومان في إفريقية ، فأصبحت ولاية إفريقيــة القنصلية تضمّ ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية ، والمنطقة الداخلية منها التي تمتدّ حتّى (فزّان) ؛ أما بقية إفريقية الرومانية ، فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية : نوميديا ، ويلي ذلك موريتانيا[١] بقسميها القيصرية والطنجيّة . فإفريقية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة من برقة الى طنجة .

وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ : إفريقية ، فأرادوا به في أول الأمر كلّ ما يلي مصر غرباً حتّى ساحل المحيط الأطلسي[٢]، وهذا هو مفهوم إفريقية

---

(١) تعريب للفظ (Mauretania) ، وهكذا رسمها البكري في وصف افريقية (٢١٠) .

(٢) فتح العرب للمغرب (١ - ٢) . والمؤرخون والجغرافيون الأقدمون يذكرون أن إفريقية =

العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب . أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية ، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر الى (بجاية) في ولاية (قسطنطينة)[1] .
وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب .

٢ — المغرب :

بلاد المغرب مصطلح يقصد به كل الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل شمال القارة الإفريقية[2] ، وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث : (برقة وطرابلس وفزّان) ، وتونس ، والجزائر بصحرائها المترامية الى تخوم السودان ، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف الى عهد قريب باسم مراكش نسبة الى عاصمته الجنوبية ، ويمتد طبيعياً نحو الجنوب الى تخوم السنغال والنيجر[3] .

والمغرب عند الكتاب الأوائل يبدأ مما يلي إفريقية غرباً الى سواحل المحيط ، فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب[4] ، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية . والمغرب الأقصى ، هو بلاد مراكش (المغرب) ؛ والمغرب الأوسط ، هو بلاد الجزائر الحالية ؛ وخط التقسيم بين المغربين : الأقصى والأوسط ، هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و (تازا)[5] . أما المغرب الأدنى ، فهو

= سميت باسم شخص معين . انظر معجم البلدان (١/٣٠٠) ومنهم من يذكر أنها مشتقة من لفظة فرّق . انظر ابن خلدون (٩٨/٦) .
(١) تاريخ المغرب العربي (١١) .
(٢) في المسالك والممالك (٣٣) ومعجم البلدان (١٠٣/٨) أن الأندلس من المغرب أيضاً .
(٣) تاريخ المغرب العربي (٣) .
(٤) البلاذري (٢٣٣) .
(٥) تازا : معناها في اللغة البربرية : الصخرة العظيمة ، وهي مدينة في المغرب ، وتعتبر مضيقاً =

بلاد القيروان[١] أو ما يسمى اليوم : بتونس .

السكان

١ ـ البربر :

أ ـ البربر سكان المغرب الأصليون ، ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسي ، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي .

ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (Barbari) مع تغيير معناه ، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين[٢] .

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة : (بربر) ، فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها الى قسمين : أولهما ، تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً ، لأن لغة القوم فيها رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التي لا تفهم ، فقيل لهم : « ما أكثر بربرتكم » ! كما يقال : بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة[٣] . أما ثانيهما ، فتفسير كلمة : (البربر) ، حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب ، إذ قيل : إن شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين ، وهو بَرّ بن قَيْس عَيْلان[٤] ! ولكن ابن حزم يقول عن ذلك : « ... وهذا

ـ جبلياً هاماً يربط بين المغرب الشرقي والمغرب الغربي. وهناك ثلاث مدن بهذا الاسم: في المغرب وهي المراد هنا ، وفي الاندلس قرب مدينة لوقا وفي العراق على الطريق بين كركوك وجلولاء وبعقوبة وبغداد وهذه المعلومات من الاستاذ عبد الهادي التازي .

(١) انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢) فتح العرب المغرب (٧) .

(٣) ابن خلدون (٦/٨٩) .

(٤) ابن خلدون (٦/٨٩) .

باطل لا شك فيه ، وما علم النسّابون لقيس عيلان ابناً اسمه : بَرُّ أصلاً ، ولا كان لِحميَرَ طريق الى بلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن[١] » .

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دُوِّنت بالعربية وأصبحت علماً مثل أنساب العرب[٢] ، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب الى قسمين كبيرين ينحدران من قحطان وعدنان ـ نموذجاً ، فقسموا قبائل البربر الى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس والبتر ، وقالوا : إن الجماعة الأولى أبناء بُرْنس ابن بر ، وأن الجماعة الثانية أبناء مادْغِيس بن بر الذي لقب بالأبتر[٣] .

ب ـ البرانس :

ومن قبائلهم المشهورة عشر : أزْداجَة، مَصْمُودة، أوْرَبَة، عجيسَة ، كُتَامَة ، صِنْهَاجَة ، أوريغة[٤] ، ويضاف اليهم حسب رأي البعض لمطه وهكسورة وجزولة (كزولة)[٥] .

وهذه الاصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة ، فقبيلة هَوَّارة تنحدر من أوريغة ، وقبيلة مَليْلة تنحدر من هوارة ، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .

جـ ـ البـتر

ومن قبائلهم المشهورة أربعة : أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لَوا الأكبر .

وهذه الأصو ل الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة ، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نَفزَاوة ولَواتَه ، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (ولهاصة) ، وينحدر من (ولهاصة) قبيلة (تيرغاش) ، ومن (تيرغاش) تنحدر

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .
(٢) أنظر مجمل أنساب البربر في جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٢) .
(٣) ابن خلدون (٦/٨٩) .
(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .
(٥) انظر تاريخ المغرب العربي (٣٠) .

قبيلة (ورفجومة) ... الخ

د ـ والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر الى برانس وبتر ، وانقسام هؤلاء الى قبائل مختلفة ، فإن القرابة قريبة بين الجماعتين ، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما ؛ فالنسابة يختلط عليها الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس[1] ، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختاً لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم)، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواوة التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية[2] .

هـ ـ وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر الى العرب[3] مثل ابن حزم[4] . والحق أن لنسابة العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية ، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي ، فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العرب والبربر[5] ؛ وهذا أمر وليد البيئة ، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب عليها الطابع الصحراوي ، وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع والعمران . لذلك ينقسم البربر الى طائفتين متباينتين ، وهما طائفة البربر الحضر (سكان المدر أي البيوت) ، وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام) ، وسكان الحضر منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحارى والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً[6] .

---

(١) ابن خلدون (٦ / ٩٠) .

(٢) جمهرة أنساب العرب (٤٩٦) .

(٣) ابن خلدون (٦/٩٣) .

(٤) جمهرة انساب العرب (٤٩٥) .

(٥) من أراد التفاصيل في نسب البربر عليه مراجعة : ابن خلدون (٦/٨٩ – ٩٦) وجمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) وانظر أيضاً : تاريخ المغرب العربي (٢١ – ٥١) وفتح العرب المغرب (٧ – ٩) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٥ – ١٢) ... الخ

(٦) انظر فتح العرب للمغرب (٦) وتاريخ المغرب العربي (٣٢) .

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية ، إذ أن البربــر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة بجبال (أوراس)، أي جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب المغرب وبعض أجزاء تونس الغربية ، وطبيعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين واللاّتين وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فتناولوا الزراعة والصناعة ، وظهر فيهم نفر أخذ بأسباب الحضارة اللاّتينية مثل (يوبا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما ، و (يوجرتا) عدو الرومان اللّدود، و (ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب ما بين روما وقرطاجنة.

أما البربر الظواعن ، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون الى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران.

كان هذا الإختلاف في الأحوال الاجتماعية ، سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرّة بين الفريقين ، فكان الرحّل لاينفكّون يغيرون على مزارع المستقرّين وقراهم ، فاضطر هؤلاء الى أخذ الحذر منهم والإحتماء من شرّهم ، والإستعانة عليهم باللاّتين أو البيزنطيين؛ مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح ، كان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي ؛ إذ حال دون إتحاد أهلها ، وسهّل غزوها ، ومكّن الفاتح الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق ، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاتف متناسق.

أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى ، فاستعانوا بفريق على فريق ، فأمكنهم ذلك من البلاد ، وثبّت قدمهم فيها . أما البيزنطيون ، فلم يوفقوا الى الفائدة من تلك الحال ، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً[1] .

---

(١) فتح العرب للمغرب (٦ – ٧).

و ــ ديانة البربر :

كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية ، وبعد ظهور المسيحية[1] ، وكانوا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ، وقد أخذ البربر دين المسيحية قبل الإسلام عن الروم ، لأنهم كانوا مغلوبين لهم[2] .

ولكن المسيحية انتشرت بين القبائل البربرية التي كانت تعيش قريباً من ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي المدن ، لأنهم كانوا بتماس شديد مع الروم المسيحيين ، أما القبائل البربرية البدوية التي كانت تعيش في الصحراء ، فقد كان انتشار المسيحية بينهم محدوداً .

وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، إذ وقف الأهلون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين وحضارة ، بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس حينما ضعف أمر الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي ، بل كادت المسيحية أن تكون خيالاً زائلاً إبان الفتح الاسلامي للبلاد[3] .

ويبدو أن البربر لم تكن لهم أديان ثابتة قبل الإسلام : كانوا وثنيين أو يهوداً ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية في القرون الأولى ثم نسوها حين استعادوا استقلالهم[4] .

٢ ــ الأفارقة :

مع أن هذه التسمية نسبة الى إفريقية ، إلا أنه يفهم أن الأفارقة يختلفون عن البربر وعن الروم . وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة هم أهل البلاد

---

(١) جاء الروم الى افريقية مرتين : مرة قبل الوندال ، ومرة بعدهم . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨).

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

(٤) فتح العرب للمغرب (٢٨١) .

الذين اختلطوا بالروم ، فأصبحوا من المولّدين، ودخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية . ورغم أن كثيرين من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام ، فإن الكثيرين منهم ظلّوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية أو لهجة محلية[1] .

٣ – يهود :

وجد العرب أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها الى البلاد عن طريق الفينيقيين ، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من يهود الى المغرب على أيام الرومان ، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر[2] .

٤ – السودان :

بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية ، ونلاحظ أن كُتّاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب . والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان ، فكان من الطبيعي ان تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود[3].

٥ – الروم والفرنج :

رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما ، إلا أن هؤلاء ظلّوا يكوّنون جماعة منفصلة عن البربر . حقيقة أنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين ، إلا أن الإمتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف أو الجوار في الخدمة العسكرية في بعض الأحيان .

---

(١) تاريخ المغرب العربي (٥٢) .
(٢) تاريخ المغرب العربي (٥٢ – ٥٣) .
(٣) تاريخ المغرب العربي (٥٤ – ٥٥) .

وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي . ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكّن من النجاة وأنهم لجأوا الى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل ، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر ، والأقرب الى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر ، بدلاً من القول : بأن النموذج للرجل البربري هو الرجل الاشقر[1] .

وكلمة : الفرنج ، يقصد منها الفرنسيس، قال ابن خلدون : « وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجة ، وتسميها العامة بالإفرنسيس ، نسبة الى بلد من أمّهات أعمالهم تسمى : فرانسة ... الخ[2] »

تاريخ المغرب قبل الإسلام[3]

١ ـ عصر ما قبل التاريخ :

ظلّ تاريخ المغرب مجهولاً الى عصر الفينيقيين ، أما قبل ذلك فلا نعرف عنه إلا قليلاً ، لأن المغاربة الأقدمين الذين كانوا يعيشون في تلك العصور ، لم يكتبوا تاريخهم . ولكن علماء الآثار ، استطاعوا أن يحصلوا على بعض المعلومات عن تلك العصور الغابرة نتيجة لما اكتشفوه من الآثار .

تدلّ تلك الآثار ، على أن المغرب كان مسكوناً بالإنسان منذ عهد بعيد ، أي قبل أكثر من عشرة آلاف سنة . وتدلّ تلك الآثار على أن سكان المغرب الأولين كانوا سوداً ، وأن شمال إفريقية وجنوب أوربا ، كانت تسكنهما أمة سوداء ثم انقرضت .

---

(١) تاريخ المغرب العربي (٥٦) .

(٢) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٩) .

(٣) انظر تاريخ المغرب (١/٢٧ – ٥٩) .

وتدلّ تلك الآثار، على أن الصحراء الكبرى كانت فيها بحيرات وأنهار، وكان هواؤها معتدلاً، وكانت تسكنها أمم؛ فلما غيّرت الطبيعة ما كان فيها من جمال وماء هاجر منها أهلها وقصدوا شمال إفريقية.

وتدلّ تلك الآثار أيضاً، على أن الحاميين منذ عهد قديم، استوطنوا بلاد المغرب، وأنهم أتوا اليها من بلاد العرب؛ ولا يزالون يسكنون المغرب حتى اليوم، وهم سكان المغرب الأقدمون.

هذه المعلومات القليلة، لا تعطي صورة واضحة عما كان يجري في المغرب في ذلك العصر، فلا نعرف كيف كان أولئك المغاربة الأقدمون يعيشون، وما كانوا يفعلون.

٢ – عصر الفينيقيين :

أ – الفينيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي، اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنهم: صيدا وصور وطرابلس الشام وبيروت، وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كثيرة لنقل بضائعهم الى الأسواق التي تروج فيها، وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شؤون حياتهم[١].

والفينيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت الى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان: فينيقيا.

وتقع فينيقيا في شواطىء أرض الشام، في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً، وهي تمتد من جزيرة (أرْوَاد)[٢] شمالاً

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٢ – ١٣).
(٢) أرواد: اسم جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٧/١).

الى مدينة (عكا) جنوباً . وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة : الفينيقيين ، نسبة الى الكلمة اليونانية : فينكس ، ومعناها عندهم : النخل واللون الأحمر ، لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر وكانوا يصورون النخل على نقودهم .

وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠) سنة ، وأحسنت الى الإنسانية ،وعنها تعلّمت الإنسانية القراءة والكتابة .

وينقسم تاريخ الفينيقيين الى عصرين : العصر الأول ــ عصر صيدا ، والعصر الثاني ــ عصر صور .

ب ــ عصر صيدا : من سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد الى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد .

في هذا العصر أسّس الفينيقيون عدّة مدن في فينيقيا ، وكانت أعظم مدنهم هي مدينة صيدا ، وكانت عاصمتهم ، ولهــذا سمي هذا العصر بعصر صيدا . وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠٠) سنة ، وقد أجمع المؤرخون على أن الفينيقيين كانوا أول من ركب البحر وأول من صنع السفن البحرية .

وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية ، فكانوا ينظمون قوافل تسير في البر الى الهند وبابل وآشور وبلاد فارس لتبيع مصنوعاتهم في تلك الأقطار ، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب الى شواطىء البحر ، تعرض المصنوعات الفينيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط ، وكانوا يشترون من هذه الأمم المواد الخام لمصنوعاتهم .

ولما عظم أمرهم وكثر عددهم ، صاروا يرسلون الى شواطىء الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فينيقية تجارية ، لتكون مركز الإتصال بينهم وبين تلك الأمم .

أسّسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة (بزسيوم) وأطلقوا على تلك

الجهة كلمة (بزاسين) ، ومعنى ذلك في لغتهم : الأرض الكثيرة المياه ، وهم الذين أنشأوا في تونس إقليم (زوجيتان) وسموا تلك الجهة بهذا الإسم [1].

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون فيه ما يشاءون ، ولا ينازعهم فيه أحد الى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، ففي هذا العصر ظهرت في البحر سفن أمم جديدة ، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفينيقيين ، وكان من أعظم هذه الأمم أمة الإغريق ، التي صارت تحارب سفن الفينيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لفينيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأسود ، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولّت وجهها شطر بلاد المغرب ، فمن هذا التاريخ اشتدّ اتصال الفينيقيين بالمغاربة ، وأحدثوا في شمال إفريقية مدناً كثيرة .

وفي سنة (١٢١٥) قبل الميلاد ، انتصر بنو إسرائيل على الكنعانيين الذين كانوا في فلسطين ، وأرغموهم على الهجرة منها ، فهاجر بعضهم إلى أرض إخوانهم الفينيقيين ، فنقلهم هؤلاء على سفنهم إلى شمال إفريقية ، ونزلوا على إخوانهم الكنعانيين الأقدمين .

وكان هؤلاء الكنعانيون الذين أتت بهم السفن الفينيقية الى المغرب ، على جانب عظيم من الحضارة والقوة ، كما تصفهم التوراة بذلك — وقد خلّفوا في فلسطين أكثر من ستين مدينة كانت من أرقى المدن في تلك العصور ، وكانوا على جانب عظيم من الغنى .

ويحدّثنا مؤرخو اليونان فيقولون : إنهم كتبوا في شمال إفريقية على الرخام الأبيض هذه الكلمات : « إننا لحقنا بهذه الديار هرباً من قاطع السبل يوشع بن نون » .

وفي سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد ، استوطن قوم من جزيرة (كريت)

---

(١) تونس الحالية كانت تسمى : زوجيتانيا . انظر فتح العرب للمغرب (٢) .

الشواطىء الشامية ما بين غزة وعسقلان ، وعرفوا عند المؤرخين بالفلسطينيين ؛ وهؤلاء هم الذين قضوا على مدينة صيدا وخرّبوها على حين غفلة من أهلها ، وبذلك انتهى العصر الأول للفينيقيين سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد .

لقد استفاد المغاربة من اتصالهم بالفينيقيين أهل صيدا كثيراً ، فهم الذين علّموهم الكتابة والقراءة والفلاحة والصناعة .

وهم الذين حملوا الى المغرب أمة عظيمة غنية من الكنعانيين ، حملت معها حضارتها وغناها ، وأسّست في المغرب مدناً كثيرة انقرضت كلّها ولم لم يبق لها أثر [1].

جـ ـ عصر صور : من سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد الى سنة (٣٣١) قبل الميلاد .

في هذا العصر تزعّم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفينيقية ، وصارت صور من أعظم مدن العالم ، وكانوا يسمونها: أمّ البحار ، لأنها كانت أعظم مدينة تجتمع فيها سفن العالم .

وقد استطاع الفينيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت ، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل إفريقية وكوّنوا في موريتانيا [2] ونوميديا وزوجيتان مدناً كثيرة .

وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطّة لسفنهم التي كانت تسير في البحر الأبيض المتوسط .

وظلّ الفينيقيون متمتعين بسيادة البحر الى سنة (٣٣١) قبل الميلاد ، ففي هذه السنة احتلّ الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرّب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم . وبهذا الحادث انتهى مجد الفينيقيين وعظمتهم ، وورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيّون؛ وقد عاش أهل صور متمتعين بالعز (٨٧٨)

---

(١) انظر تاريخ المغرب (١/٣١ - ٣٣) .
(٢) تعريب Mauretania . وقد رسمها البكري : مرطانية في وصف إفريقية (٢١٠) .

سنة ، وعاشت الأمة الفينيقية أكثر من (٣١٧٠) سنة .

وقد خلّف أهل صور آثاراً كثيرة في المغرب ضاع أكثرها ، ومن أشهر آثارهم الباقية : أصنام هرقل ، وهو هيكل عظيم كانوا يتقرّبون اليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين ، وكانت أصنام هرقل في الجبال المحيطة بمضيق جبل طارق ، ومن أجل ذلك سميت هذه الجبال : بأصنام هرقل .

وكان تأثير الفينيقيين في الحضارة الإنسانية عظيماً ، فهم الذين اخترعوا الحروف الهجائية ، وعنهم أخذتها جميع أمم الأرض ، وهم الذين اخترعوا الزجاج ، وهم أول من ركب البحر ، وهم الذين اخترعوا السفن البحرية ، وهم أول من أتقن فنّ الملاحة ، وهم أول من عرف بحار العالم وأحاط علماً بما في هذه الأرض من أراضٍ ، وهم الذين علّموا اليونان العلوم والفلسفة[1] .

٣ ـ عصر قرطاجنة :

أسّس الفينيقيون مدينة قرطاجنّة في القطر الذي يسمى اليوم : تونس ، سنة (٨٤٠) قبل الميلاد[2] تقريباً .

ومعنى كلمة قرطاجنة ، المدينة الجديدة ، أو القرية الحديثة ، وقد أسّستها أميرة فينيقية كانت تسمى (أليسا) أو (ديدون) ؛ والسبب في بناء هذه المدينة ، أن هذه الأميرة كانت متزوجة بأحد رجال الدين الفينيقيين ، وكان من أكبر أغنياء العالم حينذاك . وقد قتله ملك الفينيقيين ليأخذ أمواله ، وكان هذا الملك أخاً للأميرة : أليسا ، ففرّت منه بعد أن قتل زوجها ، وأخذت معها كثيراً من أموال زوجها وكثيراً من أعيان صور ونبلائها ، واستقرّت

---

(١) انظر تاريخ المغرب (١/٣٥ ـ ٣٨) وانظر وصف الكتب القديمة للحضارة الفينيقية في تاريخ المغرب (١/٣٨ ـ ٤٠) .

(٢) وقيل إنها بنيت سنة (٨٨٠) ق . م . وذكر بعض المؤرخين أنها بنيت في عهد يعاز ملك يهوذا سنة (٨٤٦) ق . م . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٣) .

هي وجماعتها في هذه المدينة الجديدة ، التي صارت بعد زمن أعظم مدن العالم ، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة [1] ، واستطاع أهلها أن يكوّنوا إمبراطورية عظيمة ، كانت من أعظم إمبراطوريات العالم في العصور القديمة ، فكانت تتكوّن من شواطىء شمال إفريقية وتملك أغلب أرض إسبانيا ، وكثيراً من جزائر البحر الأبيض المتوسط .

وكان أسطولها أعظم أساطيل الدنيا ، وبلغ أهلها من الحضارة والرقي الى درجة كبيرة ، وعاشت متمتعة بالعظمة والرفاهية أكثر من ستة قرون ونصف من (٨٤٠) الى (١٤٦) قبل الميلاد .

وفي سنة (٤٨٠) ق . م . صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم ، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية الى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوربا الجنوبي الى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك : أعمدة هرقل [2] .

وفي سنة (٢٦٤) قبل الميلاد ، إشتبكت في صراع عنيف على الرومان دام أكثر من مائة سنة ، وأخيراً تغلّب عليها الرومانيون سنة (١٤٦) قبل الميلاد وقضوا عليها القضاء النهائي [3] ، ومحوا آثارها من الوجود ، فتحوّلت زعامة الدنيا من شمال إفريقية الى جنوب أوربا .

كان القرطاجنيون كجدودهم الفينيقيين ، على جانب عظيم من الحضارة ، غير أنه لم يصل الينا من آثار حضارتهم إلا أقلّ القليل، لأن أعداءهم الرومان طمسوا على كل شيء يتصل بالقرطاجنيين ، ولم يبق من آثارهم إلا بعض آثار مدنهم في إسبانيا وشمال إفريقية ، والمذكرة التي كتبها البحار القرطاجني (حنون) عن رحلته البحرية ، وكتاب في الفلاحة ، وبعض معلومات

(١) انظر تفاصيل قصصها في كتاب هنيبعل (١/٣٠ – ٤٨) .
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤) .
(٣) انظر تفاصيل تلك الحروب في كتاب : هنيبعل .

قليلة عنهم في كتب المؤرخين اليونانيين – ومن هذه الآثار الباقية نستطيع أن نفهم أن قرطاجنّة كانت على جانب عظيم من الحضارة ، وأن حضارتها كانت أرقى من حضارة الرومان ، وأن القرطاجنيين كالفينيقيين نشروا حضارتهم في العالم عن طرق السلم والتجارة .

وقد تحدّث الفيلسوف أرسطاليس عن نظام الحكم في قرطاجنّة ، فقال : « إن لقرطاجنّة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول ، ولها شرائع غاية في الحسن ، ومن الدليل على ما وعتــه من الحكمة ، أنها مع ما للأمة عندها من السلطان ، لم نجدها قط بدّلت شكل الحكم ، ولا نشبت فيها فتنة » . ثم يقول : « إن القضاء عند القرطاجنيين أفضل منه عند اليونانيين ، لأنهم لا يرضون له أغفال الناس ، بل يولّونه أحسنهم طريقة ، وأحمدهم سيرة » . ومن كلام هذا الفيلسوف العظيم ، نفهم أن قرطاجنّة كانت تتمتع بحكومة عادلة ، وأنها كانت على جانب عظيم من الحضارة .[1]

لقد كان نظام الحكم في قرطاجنة أشبه بالجمهوري ، وكان يدير شؤون الحكم فيها مجلس مكوّن من مائة عضو من الأعيان والتجار ، وكان لهم رئيسان ينتخبان في كل سنة ، وكانت ديانتهم الوثنية ، وأكبر آلهتهم : بعل[2] .

وكانت معاملة أهل قرطاجنة للأمم المتوحشة التي كانت تسكن في شواطىء إفريقية معاملة مبنية على الإحترام والصدق وحسن السياسة[3] .

وكان القرطاجنيون يبعثون الى شواطىء البحار سفنهم مملوءة بالمؤن والرجال لاستكشاف الأراضي وتأسيس المدن . وفي القرن السادس قبل الميلاد بعث مجلس الشيوخ القرطاجني الى السواحل الإفريقية الربان : حنون ، ليكشف تلك الشواطىء ويؤسس بعض المدن ، وقد خرج في ثلاثين ألفاً

(١) تاريخ المغرب (١/ ٤٣ – ٤٤) .
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٤) .
(٣) تاريخ المغرب (١/ ٤٤) .

من الرجال والنساء ، ومعهم ستون سفينة عظيمة لكل منها خمسون مجدافاً . وقد كتب هذا الربّان مذكرة رفعها الى حكومته، ووصلت الينا عن طريق ترجمتها باللغة اليونانية . وما يخص المغرب من هذه المذكرة ما يلي : « بعد أن أجرنا أصنام هرقل بيومين ، أنشأنا أول المدن وسميناها (تميتيرية)[1] ، وهي مطلّة على سهول رحبة ، ثم أقلعنا منها نحو الشرق الى : (صلو)[2] ، وقد بسقت فوق أرضه أشجار غضّة ، فبنينا هناك معبداً للإله (بوصيدن) ، ثم عكفنا الى الشرق مسيرة نصف يوم ، فاذا بنا على سمت بحيرة قريبة من الشاطيء تكاتف عليها القصب ورعت حولها الفيلة[3] . وعلى مسيرة يوم أنشأنا عدّة قرى قريبة من الساحل سميناها : حصن قريكون — غيته — عكرة — مليطة — أرنبي . ومن ثم انتهت بنا السفن الى : لكسوس[4] ، وهو نهر غراق منحدر من هضاب ليبيا ، وعلى مشارعه قبيلة : لكسته ، وقد سرحت مواشيها على ضفتيه ، وهي قبيلة عظيمة مضيافة ، آخيناها وأقمنا عندها أياماً » ، ثم يقول : « وقد استصحبنا معنا تراجم من قبائل لكسته ، وانطلقنا بمراكبنا نحو الجنوب » ، وهكذا صار يقصّ علينا ما شاهده في شواطيء إفريقية الى أن وصل الى غينيا .

ومن هذا التقرير يظهر ، أن أهل قرطاجنة وسكان شواطيء المغرب كانوا أصدقاء ويتفاهمون مع بعضهم . وأنهم بنوا للمغاربة كثيراً من المعابد والقرى ، وأن الفيل كان موجوداً في المغرب في تلك العصور ، وأن أهل قرطاجنة استوطنوا المغرب الأقصى في تلك المدن التي ذكرها حنون في رحلته ، والتي كانت موجودة بين الصورة وأغادير[5]

---

(١) هي المسماة الآن بالمهدية .

(٢) رأس كنتين .

(٣) كان الفيل في المغرب في هذا العصر ، ثم انقرض .

(٤) هو نهر سوس .

(٥) تاريخ المغرب (١/٤٥ — ٤٦) .

ومن آثار أهل قرطاجنة في المغرب من المدن – وهي التي بقيت من بين أكثر من ثلاثمائة مدينة انقرضت كلها – :

تينجيس : طنجة .

لكسوس : مدينة قرب العرائش انقرضت .

روسادير : مليلية ، وكان العرب يسمونها : مليله .

جدير[1] .

٤ – عصر الرومان :

أ – أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة، فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجنين في المدة ما بين سنة (٢٦٤) الى (١٤٦) ق . م .

الحرب الأولى: ابتدأت من سنة (٢٦٤) ق.م، وانتهت سنة (٢٤١) ق.م ، انهزم فيها الجيش الروماني في إفريقية، وانهزم فيها الجيش القرطاجني في صقلية .

والحرب الثانية: ابتدأت سنة (٢١٨) ق . م ، وانتهت سنة (٢٠٢) ق . م ، انتصر بها (هنبعل) القائد القرطاجني في ايطاليا في معركة (كان)[3] . وقتل فيها من الرومان ما يربو على سبعين ألفاً ؛ وكانت سنة (٢١٦) ق.م ، وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين ، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء . وانتصر عليه الرومان في معركة (زاما)[3] سنة (٢٠٢)

---

(١) تاريخ المغرب (١/٤٥) .

(٢) كان : بلدة في غرب ايطاليا كانت تابعة لها ، والآن تابعة لفرنسا وتقع في جنوبها . وهنبعل هو : هانيبال .

(٣) زاما : هي (جاما) ، وهي قرية قرب الكاف غربي المملكة التونسية ، ويسميها الروم : زاما . انظر تفاصيل هذه المعركة في كتاب : هنبعل (٢/٢٩ – ٤٠) .

ق . م ، ففرّ الى الشام ومات في إنطاكية .

والحرب الثالثة: ابتدأت سنة (١٤٩) ق . م ، وانتهت سنة (١٤٦) ق . م ، رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين ، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم . وانتهز البربر فرصة رجحان كفّة الرومان فانضموا اليهم بزعامة (ماكسن) البربري ، فملك الرومان قرطاجنّة وخرّبوها وأحرقوها بالنار ، فأصبحت أثراً بعد عين ، وكان ذلك سنة (١٤٦) قبل الميلاد[١] .

ولكن المغاربة أبوا الخضوع للرومان ، فكانت بينهم وبين الرومانيين حروب طويلة ، وكان كلما تقدم الرومانيون في فتح البلاد ، ترحل القبائل من أمامهم وتلجأ الى الجبال والأماكن الوعرة ، بحيث لا يقدر الرومانيون أن يتوصلوا اليها .

أما السواحل ، فقد احتل الرومان منها سواحل تونس أولاً ، ثم سواحل الجزائر عقب القضاء على قرطاجنة ؛ أما سواحل المغرب الأقصى ، فإنهم لم يستطيعوا أن يحتلوها إلا في سنة (٤٢) بعد الميلاد ، أي بعد سقوط قرطاجنة بـ (١٨٠) سنة ، وكانوا يسمّون هذه السواحل : موريتانيا ، ولم يتعد احتلالهم مدينة (سَلاَ)[٢] التي كانت تسمى : (سلاكولونيا) ، ولم يخضع باقي بلاد المغرب الأقصى للرومان إلا مدة قصيرة .

كان الرومان يعاملون المغاربة معاملة قبيحة ، لأنهم كانوا يحتقرون الشعوب التي يملكونها ، لهذا كان المغاربة كثيراً ما يثورون عليهم ؛ وأشهر الزعماء الذين ثاروا على الرومان هو (تاكفراس) سنة (١٧) ميلادية ، فقد حرّض هذا الزعيم المغاربة على العصيان فأجابوه الى ذلك وحاربوا الرومان ، واستمرت الحروب بينهم نحو سبع سنوات ، ولكن الرومان تغلّبوا عليهم .

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٥) نقلا عن تاريخ مختصر تونس (حسن حسني عبد الوهاب).
(٢) سلا : مدينة بأقصى المغرب : انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٩٩) .

كانت عاصمة المغرب الأقصى في عصر الرومان مدينة تينجيس (طنجة)، وكانت من أعظم المدن الرومانية في ذلك العصر ، وكانوا يسمّون المغرب : موريتانيا الغربية أو التانجيسية .

ومن أشهر المدن التي كانت على البحر الأبيض المتوسط مدينة روسادير (مليلية) . أما المدن التي كانت لهم على شاطىء المحيط الأطلسي فهي مدينة ليكسوس ومدينة سلا كولونيا ، وأشهر المدن التي كانت لهم في الداخل مدينة : فيوبولس .

وكانت تربط هذه المدن طرق معبّدة تشبه الطرق العصرية ، وكانت هذه الطرق محمية بأبراج وقلاع تصدّ الغارات التي يقوم بها المغاربة على المدن الرومانية ؛ وكان في المغرب مدن رومانية أخرى كثيرة . وقد ظل المغرب خاضعاً للرومان الى سنة (٤٢٩) ميلادية ، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما ، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر ؛ وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته ، وهم (الوندال) [١] الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا، فأسرع ملك الوندال وهو (جينسريك) الى بلاد المغرب ومعه (٨٠,٠٠٠) جندي ، وانضم اليهم كثير من المغاربة لأنهم كانوا يكرهون الاحتلال الروماني لبلادهم . ولكن (برنيفاس) أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلّون المغرب لأنفسهم ، فصار يحاربهم الى أن انتصروا عليه ، فاحتلوا شواطىء المغرب وتونس والجزائر ، وجعلوا عاصمتهم مدينة (قرطاجنّة) . وغادر (بونيفاس) بلاد المغرب سنة (٤٣١) ميلادية ، وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم اليها الامبراطورية الشرقية لاعانة روما سنة (٤٣٥) ميلادية ، وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب ، وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣) سنة [٢] .

---

(١) هم من الأصل الجرماني (الألمان) .
(٢) تاريخ المغرب (١/ ٥١ - ٥٢) .

ب – وعند مقارنة حكم القرطاجنيين بحكم الرومان ، نجد أن القرطاجنيين كانوا يعتبرون المغاربة إخواناً لهم ، لأنهم أبناء عمهم . وقد استفاد المغاربة كثيراً من القرطاجنيين ومن الفينيقيين قبلهم ؛ فلما انتهى عصر قرطاجنة كان المغاربة متقدمين في الحضارة والقوّة ، وورثوا عن قرطاجنة كثيراً من المدن ، وتعلموا عنهم أنواعاً كثيرة من العلوم .

وفي عصر الرومان ، خسر المغاربة ما قد اكتسبوه من حضارة في عصر القرطاجنيين ، لأن الرومان كانوا يعتبرون المغاربة عبيداً لهم : لا يحترمونهم ، ولا يريدون أن يتعلم المغاربة من حضارتهم شيئاً . لهذا كان احتلال الرومان للمغرب خسارة عظمى أصابت المغاربة ، لأن قرطاجنة كانت دولة مغربية تتزعم الدنيا ، فلما انقرضت أصبح المغاربة عبيداً خاضعين لعدوّهم الذي قضى عليهم وعلى زعامتهم .. لهذا كان المغاربة يكرهون الاحتلال الروماني ، ولم يستفيدوا منه إلا قليلا ....

٥ – عصر الوندال :

الوندال هم من الأصل الجرماني (الألمان) زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلّوها وأقاموا بها دولة عظيمة .

ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوربا وتستولي على أراضيها ، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الامبراطورية الرومانية قبائل الوندال . وبعد أن احتلوا فرنسا تقدّموا الى اسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس ، وإليهم ينسب هذا الإقليم ، فقد كان يسمى : فاندلوسيا نسبة اليهم .

كان ملك روما تنوب عنه امرأة في حكم إفريقية يقال لها : (إبلاليديا) ومقر حكمها قرطاجنّة ، وكان (بونيفاس) أحد ولاة الرومان على إفريقية يطعن عليها ويهزأ بحكمها ، فلم تطق صبراً على معاكسته إياها . وفي سنة

(٤٢٩)[١] ميلادية ، أرادت أن تنتقم منه ، فشقّ عصا الطاعة على روما واستدعى (بونيفاس) الروماني (جنسريك) ، وكان ملكاً عظيماً كوّن للوندال أسطولاً عظيماً ، فكانت سفنهم تبعث الرعب في قلوب سكان البحر الأبيض المتوسط . وولي جنسريك طلب بونيفاس ، واجتاز من اسبانيا الى المغرب واحتل مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى الى أن احتل قرطاجنّة سنة (٤٣٥)[٢]م وقضى على ملك روما في إفريقية ، وجعل قرطاجنة عاصمة لمملكته الجديدة ، وأصبح الشمال الإفريقي كله ممتلكات وندالية بعد أن كانت رومية .

واستفحل أمر الوندال ، فاحتلوا روما سنة (٤٥٥) م وأطلقوا أيدي الجند فيها خمسة عشر يوماً ، فنهبوا كل ما فيها من ذخائر نفيسة ، وعبثوا بالنظام الروماني في إفريقية حتّى قضوا على آثاره فيها .

ومكث جنسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً ، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية ، فلما مات سنة (٤٧٧) م تولى ابنه (هنريك) وكان قاسياً على الكاثوليك ، فقبض سنة (٤٨٣) م على خمسة آلاف من رهبانهم وشرّدهم في الصحراء واغتصب أموالهم وكنائسهم . وفي سنة (٥٢٣) م تولى على الوندال (هلدريك) ، وكان ضعيف الارادة منحل العزيمة ، منحل العزيمة ، فخلعوه وولوا مكانه (جليمير) ، فاستنجد (هلدريك) المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه ، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال واسترجاع إفريقية ، فهاجم ، فهاجم (بيليساريوس) القائد الرومي قرطاجنة سنة (٥٤٤) م وأسر ملك الوندال (جليمير) واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال الى بيزنطة (القسطنطينية) ، فزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة[٣] .

---

(١) وقيل سنة (٤٢٧)م .

(٢) وقيل سنة ٤٣٩ م .

(٣) انظر تاريخ المغرب (١/٥٥ – ٥٦) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٦ – ١٧) وفيه: إن الروم احتلوا قرطاجنة سنة ٥٣٤ م .

٦ – عصر الروم[1] :

أ – استعاد جوستنيان إفريقية في بضعة شهور على يد قائده الماهر بيليساريوس ، فلم يكد يغلب من بها من حكّام الوندال حتى أعلن إن إفريقية قد ردّت اليه ، وبعث اليها من القسطنطينية بالقوانين والأنظمة والقيود مما لا يتفق مع طبيعة البلاد ، فكانت قوانينه فاصلاً بين الحاكم والمحكوم لا سبباً من أسباب الاتصال بينهما . ولم يلبث الأفارقة أن عصوا قانونه ، فسارع اليهم يرغمهم على طاعته فبدأ النزاع الذي أصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يخمد أوارها بين الروم وأهل البلاد ، وأصبح مع الزمن مدار تاريخ إفريقية خلال القرن الذي انقضى بين وفاة جوستنيان وإشراق شمس الإسلام عليها .

ب – كان للدين مكانة من اهتمام الروم حكومة وشعباً ، وكانت بيزنطة كلها من الإمبراطور الى أصغر رعاياه يغرمون بجنون الخصومات الدينية غراماً شديداً . وكان الغالب أن تخفي المنازعات الدينية تحتها آراء وخصومات سياسية شتى ، وكانت مصلحة الدولة لا مجرد الرغبة في التجديد الديني ، هو الدافع للأباطرة الى ما أتوا من الأمر في كثير من الأحيان .

وكان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس الى حلقات الملاعب والمسرّات ، وكانت النساء كذلك سبّاقات اليها يخالطن الرجال في تبذّل انتهى بالمجتمع كله الى تدهور سريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث ، فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام . وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام ، بعضها أنصار ، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين

---

(١) اعتمدنا كتاب : فتح العرب للمغرب (١١ – ٤٧) في ايراد أكثر ما جاء في هذه الفقرة من معلومات .

والسياسة ، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباهج والشراب .

جـ ـ وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً ، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدّون للمضي الى شمال إفريقية ، فلم يكن للدولة بد من ان تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي ، فأنشأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا ، حتى كادت توردهم موارد التلف ، فبدأوا يحتجون ويعترضون ، فلجأ الحكام الى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم ، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين . ولم يكد الفريقان يحسّان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين ، حتى خيّل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيدٌ يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع ، فعظم الإضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها ..

د ـ وكان جوستنيان على ما يبدو على شيء من العلم بطبيعة إفريقية ، فأفردها من بين ولاياته بنظام خاص دقيق ينطوي على الحذر الشديد من أهلها ، ويرمي الى جعلها مورداً من موارد المال والمثونة للدولة ، فلم تكد بشائر الفتح ترد عليه حتى رفع إفريقية الى مصاف ولايات الدولة الكبرى ، وأقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً .

وكانت إفريقية البيزنطية لا تشمل المغرب كله من حدود مصر الى المحيط ومن البحر الى قلب الصحراء ، وإنما كانت جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر

ويضم برقة وطرابلس وتونس وجبال الأوراس ، ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبتة . أما في الجنوب ، فلم يكن يتعدى نصف إمتداد إفريقية الرومانية ، فكان أقصى اتساعه سهل تو نس وهضبة الأوراس ، ووقفت حدوده الجنوبية عند (تبسه) ومسكولا (Mascula) وتمجاد (Thamugadi) ولمبيزه (Lambeisis) وطبنـــه (Tabna) والمسيلة (Masila) ، أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى أرباض الموانى من أمثال تيفش (Tipasa) وقيصريـــة (Caesaria) وتانس (Tenes) ووهران (Oran) .

وكانت البلاد مقسمة الى سبعة أقسام إدارية :

(١) الولاية القنصلية (شمال تونس الحالية)	Proconsularium	يحكمها قناصل Consulaies
(٢) الولاية الداخلية (بيزاسيوم)	Byzacium	
(٣) طرابلس	Tripolitania	
(٤) نوميديا	Numidia	يحكمها مديرون Praesides
(٥) موريتانيا الأولى	Mauritania Sitifiensis	
(٦) موريتانيا الثانية وتشمل (شمال مراكش)	Mauritania Cesariensis Mauritania Tingtana	
(٧) سردانية		

وقد امتد سلطان الدولة في أول الأمر الى أبعد من هذا الحد الرسمي ، فدخل في طاعتها نفر من بدو البربر الضاربين على حدود الصحراء ، وأقيمت المحارس على طول الرباط الأخير لكي تضمن طاعة هؤلاء للدولة وترد عنها أذاهم ، ولكن سلطانها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، فأخذت تنسحب الى الشمال ، حتى لم يبق من املاكها آخر الأمر الا ساحل ضيق وبضع محارس حصينة في الداخل ، مثل تبِيسه وسُبَيْطِلة ، واحتل البربر ما خلا ذلك من الحصون

وكانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدائنها الخمس (أنطابلس) ، وكذلك طرابلس لم تعد ثغور الساحل مثل (سرت Syrta) وطرابلس نفسها وصبرة وقابس .

هـ - وجمع جوستنيان لحاكم إفريقية كل السلطات ، فكان هذا الحاكم يحمل من تبعات الحكم فوق ما يطيق .

كان هذا الحاكم مكلفاً بأن يجمع من الولاية مالاً طائلاً ، وكان عليه كذلك أن يرسل الى العاصمة كل عام عدداً من السفن المحملة بالغلال لغذاء أهل القسطنطينية ، فكان العبء ثقيلاً على ولاية فقيرة كإفريقية . ومن البديهي أن تعجز الولاية عن النهوض بذلك العبء الثقيل ، فلجأت الحكومة الى أخذ السكان بالعنف للحصول على الأموال بالضغط والإرهاق ، فاشتطت مع رعاياها اشتطاطاً بالغاً ، فلم يجد هؤلاء بداً من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم ، واحتراف اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على الآمنين .

هكذا كانت حكومة إفريقية البيزنطية مليئة بالنقص والأخطاء من أول الأمر ، فكان مقدّراً لهذه الحكومة ولأي حاكم يقوم بأمرها الفشل التـــام .

وكان لا بد من حراسة البلاد حتى يتيسر الاحتفاظ بها والاستمرار في جباية الضرائب ، فاتجهت عناية الدولة الى إقامة حاميات قوية في حصون متقاربة ، واقامت في كل حصن حامية تستطيع حمايته والدفاع عنه . وأسرفت الدولة في ذلك إسرافاً يسترعي النظر ، فلم تكتف بحامية واحدة بل أقامت ثلاث حاميات في حصون متعاقبة عمقاً ، وقسّمت البلاد الى أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها التي ترابط فيها قوة ضاربة بقيادة قائد أو دوق (Dux) ، فأصبحت البلاد شبكة من الحصون والقلاع ، ولما كانت الموارد ضئيلة لم يكن بالامكان المحافظة على هذه التحصينات في حالة حسنة ، بل عجز الروم عن مجرد الاحتفاظ بها ، فاذا عرفنا أن هذه المنشآت لم تكن متينة البناء إذ أقيمت على عجل ، استطعنا أن نعرف مدى قوة هذا النظام الدفاعي لإفريقية البيزنطية .

طبيعي بعد ذلك أن تكون إفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربية .

و – ولم تكن العلاقات بين الحاكمين والمحكومين على ما يرام ، إذ كان الروم مضطرين الى الغلو في تقرير الضرائب واستعمال العنف في جبايتها ، لكثرة ما تستلزمه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف . واشتدّ ضغط الجباة فارتفعت الأصوات بالشكوى في كل مكان ، وأخذت أسباب الاضطراب تتوافق وتتكاثر ، فأنشأ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع الأهلين ويروّعون الآمنين ، وتحوّلوا شيئاً فشيئاً الى طلاب مغانم وقطاع طرق ، وعجزت الحكومة عن ردّهم الى الطاعة ، فأصبحوا من عوامل الفوضى والإضطراب . وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباتهم العسكرية ، فتقاعدوا عن القتال أو تهاونوا فيه أو ادّعوا الحاجة الى الطعام أو اصطنعوا التعب واعتذروا بشدّة البرد ، وإذا ساروا الى القتال دخلوا الميدان من غير استئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم ، وربما تركوه دون تردد ساعة الخطر !!!

وكان البربر يرقبون ذلك فتزداد جرأتهم على الحكّام وتتحرّك الثورة في نفوسهم ، ولم يلبث الإرهاق الذي أصاب أهل البلاد أن مهّد لهم السبيل ليعلنوا ما يضمرون من كراهية و حقد .

واستبانت الدولة أن حكم إفريقية لم يعد بالأمر الهيّن ، فأخذت تميل الى الاعتماد على الأساليب العسكرية في التفاهم مع الأهلين ، فتحوّلت إفريقية الى ولاية عسكرية يشرف على أمورها قائد عسكري ، لكي يستطيع أن يداوم الحرب مع الأهلين ويثبت لهم ، ولكنه لم يستطع أن يردّهم الى الطاعة .

وهكذا فشل الحكم البيزنطي في إفريقية وعجزت الدولة عن السيطرة عليها فعلياً ، فأصبح جندها في حال أقرب الى الاستقلال ، وبدأ قادتها يفكرون في الانفصال وإعلان أنفسهم حكاماً بأمرهم .

ز – دخلت المسيحية الى المغرب عن طريق مصر وربما عن طريق روما كذلك خلال القرن الثاني الميلادي ، فاعتنقها كثير من البربر . وانتشر الرهبان

بين البربر ، فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ ق . م الى ٤٣٥ ب . م) وبين الأهلين ، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم ، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد .

وقامت الدولة الرومانية باتخاذ الاجراءات التي رأتها كفيلة بالمحافظة على وحدتها السياسية وخاصة على أيام الإمبراطور دسيوس (Decius) الذي طلب في سنة (٢٥٠ م) من جميع رعاياه أن يعلنوا عن وطنيتهم بإعلانهم التمسك بالديانة الوطنية المتمثلة في عبادة الأباطرة الى جانب آلهة روما ، والتنصل من كل العبادات الأخرى ، وخاصة المسيحية والمانوية . وترك كثير من المسيحيين ديانتهم واضطهدت الدولة النصارى وعطلت كنائسهم وصادرت أملاكهم . وعلى عهد دقلديانوس (٢٧٠ — ٢٧٥ م) اشتدت الدولة ضد المسيحيين الذين تمسكوا بدينهم وقاموا بما يشبه العصيان المدني ، فرفضوا الخدمة العسكرية . وفي أوائل القرن الرابع الميلادي ، توثقت العلاقات بين الدولة والكنيسة ، حتى أن الكنيسة أعلنت حرمان من يلقي السلاح من رحمتها .

ورغم أن الكنيسة نجحت في تنظيم نفسها بفضل هذا التحالف وأنشأت كثيراً من الكنائس ، فان المسيحية بقيت على سواحل المغرب مع الرومان ولم تصل الى القبائل الوطنية في المغرب الأقصى . وإلى جانب ذلك عرفت المسيحية الانحرافات المذهبية المتأثرة بالأفكار الآتية من المشرق البعيد عن طريق مصر ، مثل مذهب الحلول الإلهي ومذهب المانوية الثنوية . ثم إن الكنيسة المغربية عرفت انقساماً خاصاً بها ، وهو المذهب الدوناتي — نسبة الى صاحبة دونات (Donat) الكبير أسقف الوطنيين الذي رفض الإعتراف بشرعية انتخاب سيليان اسقفاً لقرطاجنة ، فأعلن دونات طلب الاستشهاد واستجاب له كل الساخطين على الدولة وخاصة من طبقات الكادحين[١] .

---

(١) انظر : تاريخ المغرب العربي (٦٥ — ٦٦) .

ورفع البربر علم الثورة على الرومان : ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر ، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الدوناتية .

ولم يلبث الوندال أن أقبلوا خلفاء للرومان على إفريقية ، فأنشأوا يضطهدون الدونانتيين وأعداءهم معاً ، وفرضوا على الناس مذهبهم الآريوسي — الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية — واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها .

بهذا تفرّق أمر المسيحيين في إفريقية واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً ، فلم يلبث أن ارتدّ عنها الكثيرون ، وضعف أثرها في الداخل ، فكان على جوستنيان أن يحاول نشرها في البلاد من جديد .

واهتم جوستنيان اهتماماً بالغاً باعادة المسيحية الى إفريقية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها ، وشجّع البعثات التبشيرية ، فأخذت المسيحية تنشط من جديد ، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة (Sabrata) وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شِلف (حول تلمسان) .

بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي ، واقترف القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد . وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاتها أن يفرّوا الى داخل البلاد نجاةً من الإضطهاد ، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون ، بل أخذ البعض يعمّد نفسه من جديد وفق طقوس الدونانتيين .

وكانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر ، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة ، فوجد جريجوري في تفرّق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في

شؤون كنيسة افريقية ليكسب رعاياها الى صفه ، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة ، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره ، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف .

من ذلك الحين أخذت طائفة دينية من أتباع كنيسة روما ، تنشأ في إفريقيّة وتكسب لمبادئها أنصاراً يعتزّون بها ويخاصمون فيها غيرهم من أصحاب المذاهب القائمة في إفريقية ، مما جعل المنازعات الدينية أحدّ وأقسى ، وزاد في انحلال البلاد التي كانت – لهذا الزمن – قد تفككت تفككاً بالغاً لا يرجى معه أمل في صلاح أمورها .

كانت سياسة البيزنطيين إذن ، قاضية على الآثار القليلة التي خلّفها الرومان في نفوس أهل البلاد ، بل دفعت هذه السياسة بالبربر البدو الى العدوان على الولايات البيزنطية التي قامت فيها معالم الحضارة ، ولو لم تكن المسيحية قد ثبتت بعض الثبات في بعض النواحي كالزاب وتلمسان لما كان للبيزنطيين أي أثر في حضارة أهل البلاد .

ج – تبيّن الأباطرة أن نظام الحكم الذي وضعه جوستنيان لإفريقيّة لم يحقق الغرض المراد منه ، إذا استمرت الثورات تقلق البلاد وتفصل أجزاءها عن جسد الدولة جزءاً جزءاً . وثبت في أذهانهم أنه لا بدّ أن يراعى في النظام الجديد تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية ، وجعل الاولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس ما رسم جوستنيان . وأقيم على الولاية حاكم عسكري له الاشراف التام على كل مرافقها وموظفيها بما فيها الحاكم المدني . وأقيم على الأقسام الادارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون : بالدوق (Dux) وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات .

وكان تحويل إفريقية البيزنطية من ولاية مدنية الى منطقة عسكرية نذيراً

بفشل البيزنطيين في حكم البلاد وإيذاناً بوقوف كل الجهود السلمية والاصلاحية التي كان يرجى قيامها في ظلهم !

وفي سنة (٦٠٨ م) أقام موريس (Maurice) على إفريقية البطريق (هرقل) وهو قائد ماهر من أصل أرمني ، ونُدب لمعاونته في إدارة البلاد أخوه (جريجوريوس) ، فبدءا يعملان معاً ليعيدا الأمور الى نصابها في إفريقية المضطربة ، ولكن هرقل لم يكد يبدأ العمل حتى فوجىء سنة (٦٠٢ م) بثورة في القسطنطينية انتهت بقتل موريس وإقامة فوكاس إمبراطوراً .

ولم يستطع هرقل أن يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يسمع به من مظالم فوكاس ، فلم يلبث أن اتجه وجهة معادية وانشأ يعمل على الإنفصال عن الدولة ، وكان أولى الخطوات التي اتخذها لبلوغ ذلك ، أن حجز في قرطاجنة السفن التي تنقل القمح الى القسطنطينية كل عام ، فلم يلبث الموتورون من فوكاس أن اعتبروه منقذاً للدولة وتوجهوا بآمالهم نحوه ، وانثالت عليه الرُجى تستحثه الى المبادرة بانقاذ الدولة مما صارت اليه .

بيد أن هرقل كان في الستين من عمره ، وقد علت به السنّ عن أن ينهض بعمل كهذا فندب ابنه هرقل لانفاذه . فلم يجد هذا صعوبة في إسقاط فوكاس والقبض على أشياعه وتسليمهم للجمهور الساخط يفعل بهم ما يريد ؛ فلما تمّ له ذلك أحبّ أن يعود الى إفريقية ، ولكن رجال الدولة وأساقفتها ألحوا عليه في قبول التاج حتى قبل ، فاحتفل بتتويجه سنة (٦١٠ م) .

وساد الهدوء النسبي في إفريقية خلال السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطي ، لأن هرقل الكبير بعد أن أصبح ابنه امبراطوراً لم يعد يعنى بشؤون إفريقية كثيراً ، فزال الضغط عن أهل البلاد وشعروا بشيء من الحرية . وكان هرقل يعرف لأهل إفريقية يدهم التي أسلوها اليه والى ابنه ، وفضلهم فيما صار اليه من ملك وسلطان ، ولما كان من حسن عونهم

له فيما أراد من إسقاط فوكاس ، فأحسن معاملتهم وتقرّب منهم ، فركنوا الى الهدوء والسكون ، فكانت البلاد أهدأ حالاً وأكثر ازدهاراً في ذلك الحين منها في أي وقت آخر من العصر البيزنطي .

ط – ومات هرقل الكبير سنة (٦١٠ م) فخلفه أخوه جريجوريوس الذي ك ، يساعده منذ زمن طويل في إدارة البلاد ، ولكنه لم يلبث على حكومتها إلا زمناً قصيراً ، إذ خلفه عليها بطريق اسمه (قيصريوس) (Caesarius) ، ثم أعقبه نقيتاس (Nicetas) ابن جريجوريوس وابن عم الإمبراطور الذي كان ساعده الأيمن في الهجوم على القسطنطينية . وخلف نقيتاس في ولاية إفريقية ابنه جريجوريوس ، وهو الذي يسميه المؤرخون العرب (جرجير) .

طبيعي أن تنشأ بين آل جريجوريوس وأهل إفريقية من روم وبربر علاقات طيبة ، فقد طـال بهم العهد في حكم هذه البلاد . وكان الحكام الثلاثة الذين تولوا الأمر من هذه الأسرة ذوي خبرة وكفاية وكياسة ، وكان لهم من الحظوة عند الأباطرة والقربى منهم ما زاد شأنهم نباهة .

وانتعشت إفريقية في أيام جريجوريوس بعض الإنتعاش ، بسبب الهدوء القصير الذي تمتعت به في ظل أبيه وجدّه ، لذلك فان غالبية مؤرخي شمال إفريقية متفقون على أن العرب وجدوا البلاد ساعة دخولهم كثيرة الزروع وافرة الثمرات .

ازدهرت البلاد إذن ازدهاراً طارئاً قصير الأجل في أواخر أيام الحكم البيزنطي ، لأن الهدوء الذي سادها في ظل آل جريجوريوس وركون البربر الى السلام – لحسن سياسة هذه الأسرة ، كانا قمينين بأن ينهضا بالبلاد بعض النهوض ، وربما اقتصر الانتعاش الى الولاية القنصلية وقرطاجنة وأرباضها ، وبعض المدائن الكبرى في سهل تونس وهضبة الأوراس .

ي – في ذلك الحين ، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيزنطة

وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً ، تتصارع وتحترب وتهبط بالدولة الى درك عميق . وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى ، فأنشأ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١ م) يصدر المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه ، وأنكروه جميعاً ... فلم يجد هرقل بدأ من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد (قيرس) الذي ندبه هرقل هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر .

وتلقى الإفريقيون مذهب هرقل الجديد بالسخط ، وأصر أساقفتهم ورهبانهم على ألا يعدلوا بمذهبهم القديم مذهباً آخر ، واستعدوا للقاء أي شر يراد بهم في سبيل العقيدة . وكانوا قد طال بهم العهد وهم يتوجهون بالولاء لروما لا الى بيزنطة في مسائل الدين ، فأحسوا حين اطلعوا على المذهب الجديد والأوامر المتصلة به أنهم يبتعدون عن الدولة مرة أخرى .

ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل ، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل الى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة الى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجة ، وبهذا انقلب الحال ، ونزل الإضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم . وكان جريجوريوس نفسه أرثوذكسياً ، فرضيت نفسه عن حكومة القسطنطينية ، فخيل للناس أن ما وَهيَ من العلائق لا بد معقود مرة أخرى بين بيزنطة وإفريقية .

ولكن الأيام لم تمهل المتفائلين إلا قليلاً ، إذ قتل قسطنطين في مايس (مايو) سنة (٦٤١ م) ، وكانت الإمبراطورة (مارتينه) التي قبل

إنها دبرت موت قسطنطين ليتولى ابنها هرقل الصغير مكانه ، كانت على مذهب هرقل ، فبدأت ترد الى الأرثوذكسية ما أسلفت من أذى الى مذهبها ، فتوترت العلاقات مرة أخرى بين جرجير (جريجوريوس) والدولة .

وحوالي سنة (٦٤٠ م) أقبل على إفريقية رجل من أشهر رجال الدين في القرن السابع ، إذ كان له فيما بعد أثر بعيد في مصير إفريقية السياسي والديني ، وهو الراهب : مكسيم . وأنشأ هذا الراهب يبث في رهبان إفريقية تعاليمه ، ليعدّ هؤلاء القساوسة السذج البسطاء الذين أضعفهم الإنقسام ، لكي يكافحوا ويثبتوا لمهارة البيزنطيين واقتدارهم على السفسطة في أمور الدين . وبهذا أصبح ذلك الرجل معقد آمـــال أهل إفريقية للنجاة مما يراد بهم من مساءات ، فاشتد ساعده بولائهم ، وصارح الدولة بأن الله لن يرضى عن الإمبراطورية الرومانية ما دام هرقل وآله على عرشها .

ولقيت هذه الآراء هوى في نفس جريجوريوس ، فأخذ يبذل العون لمكسيم ، ويشجعه على الإستمرار فيما هو آخذ فيه من مناهضة الدولة وصرف الناس عنها ، فلم يكد رهبان إفريقية يرون أنهم في أمن من غدر الدولة بحماية جريجوريوس ، حتى اجتمعوا ووجهوا للامبراطور خطاباً يسألونه أن يترك ما هو سائر فيه من ابتداع وإفساد في الدين .

كذلك صادفت حركة مكسيم قبولاً لدى البابوية ، فلم تتردد في بذل العون له حتى يستطيع أن يثبت للكنيسة الشرقية ؛ وكان مكسيم يميل للبابوية ويحببها إلى أتباعه ، فصار لها في افريقية مكان مرموق .

وهكذا أسلمت الدولة البيزنطية رعاياها الى البابوية من الناحية الدينية كما ستسلمهم للعرب المسلمين من الناحية السياسية .

وبذلك كانت الظروف كلها مواتية لجريجوريوس ليخرج على الدولة ، فلم يكد البابا تيودور يلمح منه هذا الميل حتى صارحه : « بأن الله يرضى

عن ثورته ويقدِّر له التوفيق فيها » ، وأهاب بالقسس ، فأحاطوا بجريجوريوس يستحثونه على المبادرة بإنفاذ هذا الأمر .

بيد أن طائفة أخرى من قساوسة إفريقية ، لم يكن برضيهم هذا الإنفصال ، ويغلب على الظن ، أن مخاوف هذا الفريق لم يكن مرجعها الميل الى الكنيسة الشرقية ، وإنما كان سببها الخوف من الفتح الاسلامي الذي كان قد أتى منذ سنوات ثلاث على برقة وطرابلس ، وأخذ ينذر إفريقية نفسها بمثل هذا المصير [١] .

كانت هذه هي حالة المسيحية في المغرب قبل ظهور الاسلام : مذاهب منشقة ، وجدل بيزنطي ، ومنافسة بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية ؛ وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، فوقف الأهلون موقف العدو من كل ما يتصل بهم من دين وحضارة [٢] .

* * *

وبعد ..

كيف بدأ نور الاسلام يضيء دروب المغرب ؟ كيف أصبحت العربية لغة المغرب ؟ من هم الذين أدخلوا هذا النور في العقول والقلوب معاً في أرجاء المغرب ؟ من هم الذين أدخلوا لغة القرآن في أنحاء المغرب ؟ كيف تغلغل الاسلام عقيدة والعربية لغة بين سكان المغرب ؟

من هم الذين شيدوا صروح الاسلام على أسس رصينة متينة ، وأشادوا لغة القرآن على دعائم قوية ثابتة في المغرب ، بحيث تكسرت على أسسها ودعائمها محاولات الصليبيين والاستعمار لتبديل عقيدة أهلها ولغتهم ، وبقي الاسلام والعربية سائدين عبر القرون ، وسيبقيان سائدين حتى يرث الله الأرض

---

(١) فتح العرب للمغرب (١١ – ٤٧) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

ومن عليها .

من هم القادة الفاتحون الذين رفعوا رايات الإسلام عالية في المغرب ، ونشروا لغة القرآن في ربوعه ؟

ذلك ما ستقرأه في هذا الكتاب ، الذي يصدر والمغرب يرفل في استقلاله بعد تضحيات كثيرة بالأنفس والأموال من أجل الحفاظ على إسلام المغرب وعروبته ، وحسبنا أن نذكر باجلال وإكبار جهاد ليبيا ضد الإيطاليين ، وتونس والجزائر والمغرب ضد الفرنسيين ، وحسبنا أن نذكر ثورة الجزائر التي ضحت بمليون شهيد لتثبت أنها بلد إسلامي عربي ، لا قطعة من فرنسا .

ولست أشك أن العرب المسلمين ، وغير العرب المسلمين ، في المغرب وفي غيره ، سيقفون مبهورين أمام عظمة أولئك الفاتحين ، وسيقول كل عربي مسلم : « أولئك آبائي ، فجئني بمثلهم » ... وهيهات .

والحمد لله الذي يسّر لي التفرّغ لكتابة تاريخ قادة فتح المغرب ، وصلى الله على القائد الأول والزائد الأكبر ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

القادة العامون

١. عمرو بن العاص السهمي[1].

٢. عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري.

٣. معاوية بن حديج السكوني.

٤. عقبة بن نافع الفهري.

٥. أبو المهاجر دينار.

٦. زهير بن قيس البلوي.

٧. حسان بن النعمان الأزدي الغساني.

٨. موسى بن نصير اللخمي.

---

(١) انظر: قادة فتح الشام ومصر (١٢٣–١٦٣).

عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري

فاتح إفريقية[1] (تونس)

نسبه وأيامه الأولى :

هو عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح[2] بن حُبَيِّب بن جَذِيمَة[3] ابن حِسْل بن عامر بن لؤي القرشي العامري[4]، ويكنى : أبا يحي[5].

واسم أبي سرح : الحسام[6] . وكان من المنافقين[7] الكفار[8] . وأمه أشعرية واسمها : مهابة بنت جابر[9] الأشعري ، أرضعت عثمان

---

(١) إفريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية ، وينتهي آخرها الى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقلية منحرفة الى الشرق والأندلس منحرفةعنها الى جهة الغرب وحد إفريقية من سرابلس الغرب الى بجاية ، وقيل الى مليانة . وقال آخر : حدها من برقة شرقاً الى طنجة غرباً وعرضها من البحر الى الرمال التي في أول بلاد السودان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٠) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (١٤٨) .

(٢) في الاستيعاب (٣/٩١٨) : ابن ابي السرح .

(٣) في الاستيعاب (٣/٩١٨) : ابن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، وفي أسد الغابة (٢/١٧٣) : ابن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي .

(٤) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٦) ، وانظر تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٦٩) وجمهرة أنساب العرب ص (١١٠) . وفي أسد الغابة (٣/١٧٣) : إنه كان من قريش الظواهر وليس من قريش البطاح .

(٥) الاصابة (٤/٧٦) وأسد الغابة (٣/١٧٣) والاستيعاب (٣/٩١٨). وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٦٩) والروض الأنف (٢/٢٧٤) ومعالم الايمان (١/١١٠) .

(٦) معالم الايمان (١/١١٠) والنجوم الزاهرة (١/٧٩) .

(٧) المعارف ص (٣٠١) والاصابة (٤/٧٧) .

(٨) الاصابة (٤/٧٧) .

(٩) الاصابة (٤/٧٦ – ٧٧) .

ابن عفان ، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة[١] .

أسلم عبد الله قديماً[٢] قبل فتح مكة المكرمة ، وهاجر الى المدينة المنورة ، فهو من السابقين الأولين[٣] ، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم افتتن وخرج من المدينة الى مكة مرتداً[٤] ؛ فنزلت فيه : (ومن قال : سأنزل مثلما أنزل الله ؟!)[٥] .

ولما فتح المسلمون مكة المكرمة ، عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسلمين بقتل نفر من الكفار سمّاهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد ، ففر ابن سعد الى أخيه بالرضاعة عثمان بن عفان ، فغيّبه حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة ، فاستأمن له ، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال : « نعم » ؛ فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : « لقد صَمَتُّ ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه » ، فقال رجل من الأنصار : « فهلا أومأت إليّ يا رسول الله » ؛ فقال : « إنّ النبي لا يقتل بالاشارة »[٦] ؛ فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٦٩) ومعالم الايمان (١/١١٠) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤٩٧) والاستيعاب (٣/٩١٨) وأسد الغابة (٣/١٧٣) والنجوم الزاهرة (١/٧٩) وسيرة ابن هشام (٤/٢٨) .

(٢) ذيل المذيل للطبري (٣٢) وطبقات ابن سعد (٧/٤٩٦) .

(٣) شذرات الذهب (١/٤٤) .

(٤) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٦) وانظر أسد الغابة (٣/١٧٣) والاستيعاب (٣/٩١٨) والسيرة الحلبية (٣/٣٦٤) ، وجاء فيها : نزل فيه قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) اقول : والآية الكريمة من سورة الاعراف (٧ : ٣٧) ولم أجد ما يؤيد نزولها في عبد الله بن سعد في تفسير ابن كثير والبغوي والزمخشري والبيضاوي . وانظر البيان المغرب في أخبار المغرب (١/ ٤) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٦٩) .

(٥) المعارف ص (٣٠٠) والآية الكريمة من سورة الانعام (٦ : ٩٣) . انظر تفسيرها في البغوي (٣/٣٦٠) والكشاف (١/٤٦١) .

(٦) سيرة ابن هشام (٤/٢٨-٢٩) . وفي الاستيعاب (٣/٩١٨) وأسد الغابة (٣/١٧٣) =

ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه [1].

لقد بايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الاسلام وقال : « الاسلام يَجُبّ ما قبله » [2] ؛ ولكن عبد الله كان يفرّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أينما رآه خجلاً منه ، فذكر ذلك عثمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « الاسلام يَجُبّ ما كان قبله » ، فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ ويسلّم عليه [3].

أسلم عبد الله وحسن إسلامه وعُرف فضله وجهاده [4] ، فأصبح وثيق الايمان كامل الشعور بجلال الاسلام وتبعاته ، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة .

جهـــاده :

١ – في مصر :

كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام ، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر ، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من (قَيْسَارِيّة) [5] الى أن فرغ من حربه [6] ، فشهد فتح مصر وكان

= ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاب الأنصاري : « إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين ». وانظر السيرة الحلبية (٣/٣٦٤) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٢) . وفي البيان المغرب (١/٤) : إن عبد الله بن سعد استجار بدار عثمان بن عفان ، فأخذ له عثمان الأمان من النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) أسد الغابة (٣/١٧٣) والاستيعاب (٣/٩١٨) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) وجوامع السيرة ص (٢٣٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٧) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٤) .

(٤) الروض الآنف (٢/٢٧٤) .

(٥) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن ، واسعة الرقعة طيبة البقعة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٩٥) .

(٦) فتح مصر والمغرب ص (٨٥) وانظر رياض النفوس (١/٤٤) .

صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحـاته[1] وفي حروبه هناك كلهـا[2]؛ وكان عمرو بن العاص يبعثه الى أطراف (إفْرِيقِيّة) غازياً ويمدّه بالجنود فيعود من غزواتـه ظافراً غانماً[3].

وتولى عبد الله (صَعِيد)[4] مصر بعد فتحها، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاّه (الصعيد)[5] فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره[6] وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وكان ذلك سنة خمس وعشرين الهجرية[7].

٢ — فتح افريقية

لما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب، بعث المسلمين في جرائد الخيل، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا[8]، فكتب عبد الله الى عثمان ابن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين واستأذنه في غزوها[9].

---

(١) معالم الايمان (١/١١١) والروض الآنف (٢/٢٧٤) والإصابة (٤/٧٧) والنجوم الزاهرة (١/٨٣). وقد جاء ذكر الصحابة الذين شهدوا فتح مصر في: فتح مصر والمغرب ص (١٣٥) ومنهم عبدالله بن سعد.

(٢) الاستيعاب (٣/٩١٩) وأسد الغابة (٣/١٧٣).

(٣) ابن الاثير (٣/٣٣) والطبري (٣/٣١٠) وفي رياض النفوس (١/٤٤): انه دخلها سنة سبع وعشرين هجرية.

(٤) الصعيد: بلاد واسعة كبيرة فيها عدة من عظام المدن منها أسوان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٠) والمسالك والممالك ص (٤٠) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (٢١٣).

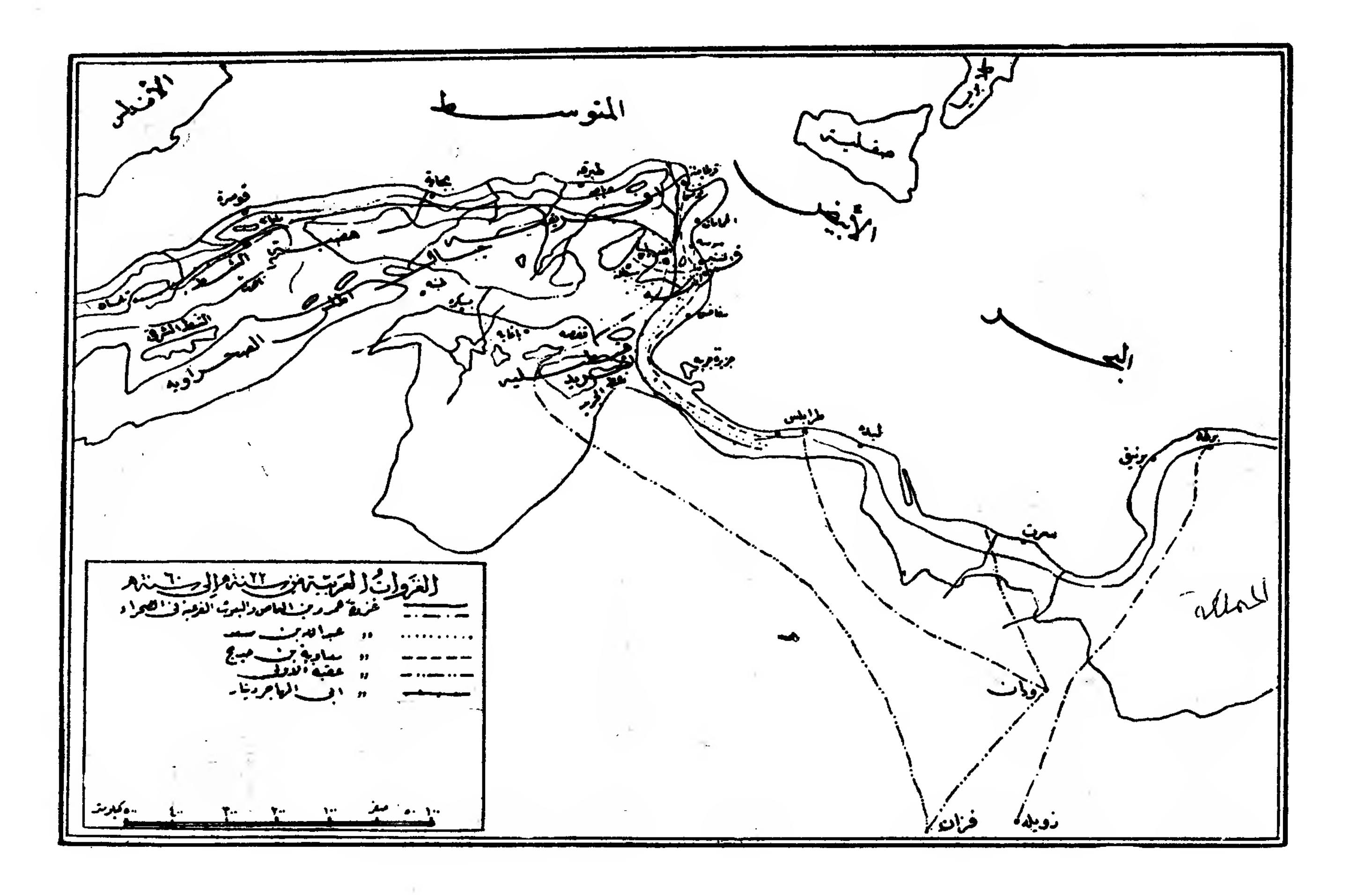
(٥) فتح مصر والمغرب ص (٢٣٣).

(٦) النجوم الزاهرة (١/٦٦).

(٧) النجوم الزاهرة (١/٧٩) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) وفتح مصر والمغرب ص (٢٣٥) والبلاذري ص (٢٢٤) وأسد الغابة (٣/١٧٣) والإصابة (٤/٧٧). وفي ابن الأثير (٣/٣٤) وابن خلدون (٢/١٢٨ ملحق) وابي الفدا (١/١٦٧): ان عبد الله تولى مصر سنة ست وعشرين هجرية.

(٨) البلاذري ص (٢٢٧) وفتح مصر والمغرب (٢٤٦).

(٩) فتح مصر والمغرب (٢٤٦) وابن الاثير (٣/٣٤).



الغزوات العربية من سنة ٢٢ إلى سنة ٦٠ هـ
غزوة عمرو بن العاص والبعوث الغزوية في الصحراء
" عبد الله بن سعد
" معاوية بن حديج
" عقبة الأولى
" أبي المهاجر دينار
١٠٠ ٥٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ كيلومتر
المتوسط
الأبيض
البحر
الأندلس
صقلية
طرابلس
لبدة
سرت
برقة
ودان
فزان
زويلة
الصحراوية

واستشار عثمان من عنده من الصحابة ، فأشار أكثرهم بالاقدام على غزو إفريقية ، فجهّز عثمان العساكر من المدينة وأمدّ عبد الله بجيش عظيم ، وخرج في هذه الغزاة ممن حول المدينة خلق كثير [١] ، كان فيهم : عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين ، لذلك سمي هذا الجيش : جيش العبادلة [٢].

وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً [٣] سنة ست وعشرين هجرية [٤] الى (إفريقية) ، فلما وصلوا الى (بَرْقَة) [٥] لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين — وكان عقبة ومن معه حامية هناك ، فساروا جميعاً الى (طَرَابُلُس) [٦] الغرب فنهبوا مَن عندها من الروم [٧] .

وتقدم عبد الله بجيشه نحو (إفريقية) ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم (جرجير) [٨] ملكه من (طرابلس) الى (طنجة) [٩] ،

---

(١) البلاذري ص (٢٢٨) .

(٢) انظر ابن خلدون (١٢٨/٢) الملحق .

(٣) البلاذري ص (٢٤٧) .

(٤) ابن خلدون (١٢٩/٢) الملحق . وفي البلاذري ص (٢٢٨) : إن عثمان كتب الى عبد الله في سنة سبع وعشرين يأمره بغزو إفريقية .. انتهى . وفي معالم الايمان (١١١/١) : أن عثمان ولاه إفريقية سنة سبع وعشرين هجرية .

(٥) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها انطابلس ، وتفسيره الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٢) والمسالك والممالك ص (٣٣) .

(٦) طرابلس الغرب : أو طرابلس المغرب ، مدينة من عمل إفريقية مبنية من الصخر على ساحل بحر الروم ، خصبة واسعة الكورة حصينة جداً . انظر التفاصيل في المسالك والممالك ص (٣٣) ومعجم البلدان (٣٤/٦) .

(٧) ابن الأثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢) ملحق .

(٨) جرجير : هو جرجيريوس . انظر فتح العرب للمغرب ص (٨٣) .

(٩) طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب ، وهو قاعدة لمنطقة دولية في الوقت=

وكان مستقر ملكه في مدينة يقال لها : (قَرْطَاجَنَّـــة)[1] ، وكان (هرقل) قيصر الروم قد ولاّه إفريقية فهو يحمل اليه الخراج كل سنة .

والتقى المسلمون بجيش جرجير البالغ عدده مائة ألف وعشرين ألفاً بمكان يدعى : (عقوبة) [2] بينه وبين مدينـــة (سُبَيْطِلَة)[3] يوم وليلة ، فنشبت معركة حامية بين الطرفين هناك[4] .

وراسل عبد الله بن سعد ملك الروم جرجير يدعوه الى الاسلام أو الجزية ، فامتنع منهما وتكبّر عن قبول أحدهما .

واستأنف عبد الله القتال ، فاستمرّت الحرب أياماً حتى وصل للمسلمين مدد بقيادة عبد الله بن الزبير ، وحين سمع جرجير بوصول هذا المدد الى المسلمين فتّ ذلك في عضده .

ورأى عبد الله بن الزبير أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ، فاذا أذّن الظهر عاد كل فريق الى خيامه ، كما أنه افتقد في اليوم التالي عبد الله بن سعد في المعركة ، فسأل عنه فقيل : « إنه سمع منادي جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي ! وهو يخاف ! » ، فحضر ابن الزبير عنده وأشار عليه بأن يأمر منادياً ينادي : « من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوّجته ابنته ، واستعملته عـــلى

= الحاضر ، وكانت طنجة مرفأ للفينيقيين في القرن السادس قبل الميلاد. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمسالك والممالك ص (٣٤) .

(١) قرطاجنة : ويطلق عليها اسم قرطاجا ، وهي مدينة لا تزال آثارها باقية بالقرب من مدينة تونس، ويقال ان مدينة تونس قد بنيت من خرابها . والاسم مكون من جزءين : قرطا ، بمعنى مدينة ، وأضيف اليها جنة لطيبها ونزهتها . وقد كانت قرطاجنة مقر امبراطورية جبارة قاومت الرومـــان وهاجمت روما في أيام هنيبال . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٢/٧) .

(٢) عقوبة : موقع بينه وبين (سبيطلة) يوم وليلة . انظر البلاذري ص (٢٢٨) .

(٣) سبيطلة : مدينة من مدن إفريقية ، بينها وبين القيروان سبعون ميلا . انظر معجم البلدان (٣٣/٤) .

(٤) ابن الاثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢) ملحق

بلاده » ، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

وقال ابن الزبير لعبد الله بن سعد : « إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في إمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا ، فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرّة ، فلعلّ الله ينصرنا عليهم » ، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم ، فوافقوه على ذلك .

وفي اليوم التالي ، فعل ابن سعد ما اتّفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ، وحضر الباقون فقاتلوا الروم الى الظهر قتالاً شديداً ؛ فلما أذّن الظهر همّ الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم عبد الله بن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتّى أتعبهم ؛ ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، وألقى كل من الطرفين سلاحه ، وكان قد بلغ التعب من الروم حداً بالغاً . وأخذ ابن الزبير مَنْ كان مستريحاً من شجعان المسلمين وهاجم بهم الروم ، فلم يشعروا بهم حتّى خالطوهم ؛ وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا ، فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتّى غشيهم المسلمون ، فقُتل جرجير قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأُخذت ابنة الملك جرجير سبية .

وحاصر ابن سعد (سُبَيْطِلَة) ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار .

وبعث عبد الله جيوشه في البلاد ، فبلغت (قَفْصَة)[1] ، فسبوا

(١) قفصة : بلد صغير في طرف إفريقية من ناحية المغرب ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) .

وغنموا ، كما سيّر جيشاً الى حصن (الأجم)[1] وقد احتمى به أهل تلك البلاد ، فحصروه وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار[2] ؛ فأرسل عبد الله بن الزبير الى عثمان بالبشارة بفتح افريقية ، وعاد ابن سعد الى مصر بعد أن أمضى بافريقية سنة وثلاثة أشهر[3] .

وفي رواية : أن عبد الله بثّ السرايا ففرّقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه ، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا الى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم ، فقبل ذلك[4] . ومعنى ذلك أن هؤلاء دفعوا هذا المبلغ ليكفّ المسلمون أيديهم عنهم وتتوقف الحرب ويسود السلام بين أهل إفريقية من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى . فاجتمع أهل إفريقية على الطاعة والاسلام وحسن إسلامهم[5] ؛ وليس معنى ذلك خروج المسلمين من إفريقية نهائياً كما توهم بعض المؤرخين[6] ، وأكبر دليل على ذلك إن إفريقية انتقضت فعاد عبدالله لحربها كماسيرد ذلك.

---

(١) الأجم : الأجم –العجم– الأعجام، كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم (Thysderae) وكانت مركزاً حربياً هاماً طوال العمر البيزنطي . انظر فتح العرب للمغرب ص (٨٣) .

(٢) وهذا ما يساوي ثلاثمائة قنطار من ذهب . انظر البلاذري ص (٢١٨) .

(٣) ابن الأثير (٣/٣٤ – ٣٥) وابن خلدون (٢/١٢٩ ملحق) . وانظر فتح مصر وإفريقية (٢٤٦ – ٢٤٩) والبلاذري (٢٢٧ – ٢٢٩) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) ومعالم الايمان (١/١١١) والبيان المغرب (١/٤ – ٨) وفي النجوم الزاهرة (١/٧٩) : ان جيش عبد الله كان عشرة آلاف . وانظر البدء والتاريخ (٥/١٩٩) وأسد الغابة (٣/١٧٣) ومعجم البلدان (١/٣٠١)

(٤) البلاذري (٢٢٨) ومعجم البلدان (١/٣٠١) .

(٥) النجوم الزاهرة (١/٨٠) .

(٦) انظر : فتح العرب المغرب ص (١٠٦) ، فقد ورد فيه : لم يوفق عبد الله بن سعد فيما قصد اليه من فتح إفريقية ، ولم تزد رحلته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها ، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً .. انتهى . واذا كان انتشار الاسلام فيها وخضوعها للمسلمين ليس أثراً كبيراً ، فما هو الأثر الكبير ؟؟!

لقد افتتح عبد الله بن سعد إفريقية سهلها وجبلها [1] ، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً [2] ، وأذلت تلك الواقعة الروم بافريقية وأصابهم رعب شديد [3] فاذا كان كل ذلك ليس فتحاً (مستداماً) بل (غارة) ، فكيف يكون الفتح ؟؟!

٣. في قُبْرُس [4]:

وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة ، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام الى فتح (قُبْرُس) وقال له : « لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ! خيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » ، فسار المسلمون من الشام الى (قبرس) ، وسار اليها عبدالله بن سعد من مصر ، فاجتمعوا عليها ؛ فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة [5] .

وبذلك فتح المسلمون (قبرس) وكان لعبدالله فضل كبير في فتحها .

٤. في النُوْبَــــة [6] :

بعث عمرو بن العاص عقبةَ بن نافع الفهري لفتح (النُوْبَة) ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً ، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام ، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحُدُق مفقودة .

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٧٩) .

(٢) تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) .

(٣) البيان المغرب (١/٨) .

(٤) قبرس : جزيرة في بحر الروم . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٦) .

(٥) ابن الأثير (٣/٣٦ - ٣٧) ، وانظر الطبري (٣/٣١٨) والاستقصا لدول المغرب الأقصى (١/٣٥) وابن خلدون (٢/١٣٠ - ١٣١ ملحق) وتاريخ أبي الفدا (١/١٦٧) .

(٦) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بعد أسوان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢٣) .

ولم يصالحهم عمرو بن العاص ولم يزل يهاجمهم بين حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد ، فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً ، فأصيبت يومئذٍ عيون كثير من المسلمين ، فقال الشاعر :

لم تر عيني مثل يوم (دُمقُلَة)[1] والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فهادنهم الهدنة الباقية الى اليوم ؛ وصالحهم : على أنهم لا يغزونهم ولا يغزو النوبةُ المسلمين ، وأن النوبة يؤدون كل سنة الى المسلمين كمية من السبي ، وأن المسلمين يؤدون اليهم كمية من القمح والعدس في كل سنة مقابل السبي ، وعقد لأهل (مقرة)[2] بعد دخول جيش المسلمين (دنقلة) عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان الى حدودهم الجنوبية ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الاسلامية ، وقد اختلط العرب بالنوبة والبجة واعتنق كثير منهم الاسلام[3] .

٥ . في إفريقية ثانية :

وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، أعاد عبد الله الكرّة على إفريقية حين نقض أهلها العهدَ ، فانتصر عليهم وأعاد النظام الى ربوعهم ، وأقرّهم

---

(١) دمقلة : مدينة كبيرة في بلاد النوبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٢/٤) .

(٢) مقرة : (Maqurra) : مدينة بالنوبة .

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٥٢ – ٢٥٣) وانظر البلاذري (٢٣٨ – ٢٣٩) وتهذيب الاسماء (٢٧٠/١) . وانظر نص العقد بين عبد الله بن سعد وبين اهل النوبة في المواعظ والاعتبار (١٩٩/١) طبعة بولاق ، وانظر الروض الآنف (٢٧٤/٢) ومعجم البلدان (٨٢/٤) حول هدنة عبد الله بن سعد الباقية الى الآن . وانظر الاستيعاب (٩١٩/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) والاصابة(٧٧/٤) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) حول حدوث هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين هجرية. وفي جمل فتوح الاسلام – ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣٤٥) : غزاهم عبد الله بن سعد فصالحهم على رقيق يؤدونه ، وبنى على باب مدينة ملكهم مسجداً وشرط عليهم حفظه أبداً ، ثم اسلمت البجة كلهم .

على الاسلام والجزية [1] .

لقد كان فتح إفريقية فتحاً (مستداماً) بدون شك ، ولم يكن (غارة) من الغارات .

٦ . في غزوة ذات الصّواري .

وفي سنة أربع وثلاثين هجرية [2] غزا عبد الله غزوة : ذات الصواري ، في البحر من ناحية الاسكندرية [3] ، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثـله مذ كان الاسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة [4] ، والمسلمون في مائتي مركب[5] .

وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف ، قام بين ظهراني الناس فقال : « بلغني أن ابن هرقل قد أقبل اليكم في ألف مركب ، فأشيروا عليّ ! » ، فما كلّمه رجل من المسلمين .

وجلس عبد الله قليلاً لترجع الى سامعيه أفئدتهم ، ثم قام الثانية وكلّمهم ، فما كلّمه أحد . وجلس ثم قام الثالثة فقال : « إنه لم يبق شيء ، فأشيروا عليّ ! » ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوّعاً مع عبد الله بن سعد فقال : « أيها الأمير ! إن الله جلّ ثناءه يقول : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) [6]، فقال عبد الله : « اركبوا باسم الله » ، فركبوا ، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته ، إذ قد خرج النصف الآخر

---

(١) النجوم الزاهرة (٨٠/١) وابن الاثير (٥٢/٣) .

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٥٥) والنجوم الزاهرة (٨٠/١) والاستيعاب (٩١٩/٣) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) .

(٣) النجوم الزاهرة (٨٠/١) .

(٤) الطبري (٣٤٠/٣) وابن الأثير (٤٤/٣) . وفي فتح مصر والمغرب (٢٥٥) والنجوم الزاهرة (٨٠/١) : أن عدد مراكب الروم كان ألف مركب .

(٥) فتح مصر والمغرب (٢٥٦) والنجوم الزاهرة (٨٠/١) .

(٦) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٤٩) .

الى البر للقتال في منطقة أخرى[1] .

وقدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم ؛ فأرسى المسلمون والروم ، وسكنت الريح ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم ! فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرءون القرآن ويصلّون .

وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقرّبوا سفنهم وقرّب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها الى بعض ؛ وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر .

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر ، فقتل من المسلمين بشر كثير ، وقتل من الروم ما لا يحصى ؛ وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يصبروا مثله في موطن قط ، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد[2] .

في هذه المعركة بالذات تعرّضت حياة عبد الله لخطر داهم ، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم ، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم ، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف ، فقطعها[3] وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر .

لقد أظهر عبد الله في معركة (ذات الصواري)[4] بطولة فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام .

---

(١) فتح مصر والمغرب ص (٢٥٦) .

(٢) الطبري (٣/٢٤٠ – ٢٤١) وابن الاثير (٣/٤٤) وانظر ابن خلدون (٢/١٣٠ ملحق) .

(٣) فتح مصر والمغرب ص (٢٥٧) .

(٤) سميت هذه المعركة بذات الصواري ، لكثرة صواري المراكب واجتماعها ، انظر النجوم الزاهرة (١/٨٠) .

الإنسان :

عاد عبد الله بن سعد الى مصر من غزوة (ذات الصواري) سنة خمس وثلاثين الهجرية ، فوافاه خبر من ثار على عثمان بن عفان . وخرج عبد الله من مصر متوجهاً الى عثمان [١] ، إذ استدعى عثمان عمّاله وجمعهم وشاورهم وقال لهم : « إن لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي ؛ وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبّون ؛ فاجتهدوا رأيكم ! » ؛ فكان رأي عبد الله من بين المؤتمرين : « إن الناس أهل طمع ، فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » [٢] .

وقُتِلَ عثمان بن عفان واستخلف علي بن أبي طالب ، فعزل عبد الله عن مصر وولاها لقيس بن سعد بن عبادة [٣] ، فكان عزله عن مصر سنة ست وثلاثين الهجرية بعد أن حكمها نحواً من عشر سنين [٤] ، إذ لم يزل والياً بمصر حتى قتل عثمان بن عفان [٥] .

وسار عبد الله الى (الرَّمْلَة) [٦] أو الى (عَسْقَلان) [٧] لما بلغه مقتل عثمان وحصول الفتنة واعتزل الفتنة [٨] ولم يبايع لعلي ومعاوية [٩] ،

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٨٠ – ٨١) .
(٢) ابن الأثير (٣/٥٧) والطبري (٣/٣٧٣) .
(٣) النجوم الزاهرة (١/٨١) ، وانظر ابن الأثير (٣/١٠٦) والبلاذري ص (٢٢٩) .
(٤) النجوم الزاهرة (١/٨٢) .
(٥) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٧) والنجوم الزاهرة (١/٧٩) .
(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٨٦) .
(٧) عسقلان : مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غـزة وبيت جبرين . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٧٤) .
(٨) معالم الايمان (١/١١٢) والروض الآنف (٢/٢٧٤) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٧٠) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٣) .
(٩) النجوم الزاهرة (١/٨٣) ومعالم الايمان (١/١١٢) وأسد الغابة (٣/١٦٤) .

فأقام بعسقلان، ودعا على نفسه قائلاً : « اللّهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح » ، فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضأ ثم صلى الصبح ، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات ، والثانية بأم القرآن وسورة[1] ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب ليسلّم عن يساره ، فقبض الله روحه سنة ست وثلاثين هجرية [2] (٦٥٦ م) ، ودفن بموضع معروف يقال له : مقابر قريش بعسقلان[3] قبل اجتماع الناس على معاوية[4] .

ينبغي أن نجعل حداً فاصلاً بين عبد الله بن سعد في إسلامه الأول وعبد الله بن سعد في إسلامه الثاني ، لأن الوقائع تبيّن أنّ الرجل يختلف كثيراً في الدور الأول عنه في الدور الثاني . فعبد الله الأول فتى يافع لا يكاد يحسن فهم الأشياء ، فيستهين بثقة الرسول صلى الله عليه وسلم به ، وتؤثر فيه دعايات قريش ، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يلبث أن يفتتن[5] ويرتد الى الشرك ويلقي بنفسه في أحضان قريش ، ويقول في نزق : «كان يملي عليّ : عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم حكيم ، فيقول كل صواب»[6] ؛ فلا يبالي أن يفتري الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاراةً لقريش فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام . أما عبد الله الثاني ، فجندي باسل وقائد ممتاز وإداري حازم ،

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) والنجوم الزاهرة (١/٨٣) .

(٢) معالم الايمان (١/١١٢) والروض الآنف (٢/٢٧٤) والنجوم الزاهرة (١/٨٣) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) ، وانظر شذرات الذهب (١/٤٤) والاستيعاب (٣/٩٢٠) وأسد الغابة (٣/١٧٤) والاصابة (٤/٧٧) والسيرة الحلبية (٣/٣٦٤) وابن الأثير (٣/١١٤) ورياض النفوس (١/٤٥) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٤) وانظر النجوم الزاهرة (١/٨٣) .

(٤) معالم الايمان (١/١١٢) .

(٥) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٦) .

(٦) أسد الغابة (٣/١٧٣) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٣) والسيرة الحلبية (٣/٣٦٤) ، والمعارف ص (٣٩٠) .

وهو فوق ذلك وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته[١] ، حسن إسلامه ولم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك[٢] وحسن حاله[٣] : يأمر بقراءة القرآن ويأمر بالصبر في المعارك[٤] ، ويعتزل الفتنة الكبرى ورعاً ؛ وهو أحد العقلاء النجباء من قريش وفارس بني عامر بن لوي والمقدم فيهم[٥] . ولما ولي مصر أحسن السيرة في الرعية وكان جواداً كريماً[٦] ، وكان محموداً في ولايته[٧] ، لـه مواقف محمودة في الفتوح[٨] ؛ وقد أخطأ بعض المؤرخين في الحكم عليه لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى ، وهي ارتداده عن الإسلام ، فأنكروا عليه كثيراً من فضله ومزاياه قائداً وإدارياً وانساناً .

والحق ، أن عبد الله بن سعد ، قد عانى كثيراً من نكران فضله في حياته وبعد موته على حد سواء ، وكان لتوليه مصر أثر كبير في بعث كوامن الحسد ضده في نفوس منافسيه وضد عثمان بن عفان أخيه بالرضاعة لأنه ولاّه مصر .

كان عبد الله على (صعيد) مصر ، فقدم عمرو بن العاص على عثمان وسأله عزل ابن أبي سرح عن (الصعيد) ، فامتنع عثمان عن ذلك وعزل عمرو ابن العاص عن مصر وعقد لعبد الله بن سعد على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره[٩] ؛ إذ وفد عمرو الى عثمان بعد استخلافه وكلّمه في عزل عبد

---

(١) فتح العرب للمغرب ص (٧٨) .
(٢) الاستيعاب (٣/٩١٨) وأسد الغابة (٣/١٧٣) .
(٣) جمهرة أنساب العرب ص (١٧٠) .
(٤) الطبري (٣/٣٤١) .
(٥) معالم الايمان (١/١١١) والاستيعاب (٣/٩١٨) وأسد الغابة (٣/١٧٣) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٢) ورياض النفوس (١/٤٤) .
(٦) النجوم الزاهرة (١/٧٩) .
(٧) الاصابة (٤/٧٧) .
(٨) النجوم الزاهرة (١/٨٣) والاصابة (٤/٧٧) .
(٩) النجوم الزاهرة (١/٦٦) .

الله عن (الصعيد)، فقال عثمان: «ولاّه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة، وقد علمت أنه أخي في الرضاعة، فكيف أعزله عما ولاّه غيري؟!»؛ فغضب عمرو وقال: «لست راجعاً الى عملي ذلك!»، فكتب عثمان الى عبد الله بن سعد يؤمّره على مصر كلها، فجاءه الكتاب بـ (الفيّوم)[1] بتوليته خلفاً لعمرو بن العاص[2].

وفي رواية أخرى، أن عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد، فاختلفا؛ فكتب عبد الله الى عثمان: «إن عمراً كسر عليّ الخراج»، وكتب عمرو الى عثمان: «إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب»، فعزل عثمان عمراً واستقدمه واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها[3]؛ وكتب اليه يعلمه أن الاسكندرية فتحت مرة عنوة وانتقضت مرتين، ويأمره أن يلزموا رابطة لا تفارقها وأن يدرّ عليهم الأرزاق ويعقب بينهم في كل ستة أشهر[4].

وفي رواية ثالثة، أنّ الإسكندرية انتقضت فافتتحها عمرو بن العاص وقتل المقاتلة وسبي الذرية، فأمر عثمان برد السبي الذين سُبوا من القرى الى مواضعهم للعهد الذي كان لهم، ولم يصح عنده نقضهم، وعزل عمرو ابن العاص وولى عبد الله مكانه على مصر[5].

ومهما يكن من شيء، فقد ثار الخلاف بين عمرو بن العاص وبين عبد الله بن سعد، فأراد عثمان أن يحسم هذا الخلاف ويولي عبد الله مصر ويعزل

---

(١) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤١٤).
(٢) فتح مصر والمغرب ص (٢٣٣)، وانظر النجوم الزاهرة (١/٧٩).
(٣) الطبري (٣/٣١٤ - ٣١٥) وابن الأثير (٣/٣٣) وابن خلدون (٢/١٢٨) ملحق والبلاذري ص (٢٢٤).
(٤) البلاذري ص (٢٢٤) وفتح مصر والمغرب ص (٢٥٨ - ٢٥٩).
(٥) الاستيعاب (٣/٩١٩) وانظر البدء والتاريخ (٥/١٩٧ - ١٩٨).

عنها عمراً ، لأن السيطرة على عبد الله أسهل بكثير من السيطرة على عمرو ، كما أن عبد الله له مزايا تؤهله لتسم هذا المنصب الرفيع ، بالاضافة إلى أنه أخو عثمان بالرضاعة ، وأنه مخلص غاية الاخلاص لعثمان : لا ينسى يده عليه حين استأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ينسى عثمان لعبد الله يده عليه حين أشار على عبد الرحمن بن عوف أن يبايع عثمان قائلاً : « إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان »[1] .

ولست أشك أن عبد الله كان كفوءاً كل الكفاية لمنصبه قائداً وإدارياً ، وأن من حق عثمان أن يولي الأكفاء الذين يثق باخلاصهم له ويستطيع السيطرة عليهم بيسر وسهولة ، ولكن عزل عثمان لعمرو بن العاص عن مصر ، جعل عمراً يطعن على عثمان وعلى عبد الله بن سعد ، ويؤلب على عثمان ويسعى في إفساد أمره ؛ فلما بلغه قتل عثمان ــ وكان معتزلاً بفلسطين قال : « إني إذا نكأت قرحة أدميتها »[2] .

ولم يحاول عمرو أن يكتم نقمته على عثمان وعامله على مصر عبد الله بن سعد حتى على عثمان نفسه ، فقد قال عثمان لعمرو : « «كيف تركت عبد الله بن سعد؟ » ، قال : «كما أحببت ! » ؛ فقال : «وما ذاك؟! » ؛ فقال : «قوي في ذات نفسه ، ضعيف في ذات الله » ؛ فقال : «لقد أمرته أن يتبع أثرك » ، فقال : «لقد كلفته شططاً »[3] .

وجبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفي ألف ، وجباها عبد الله بن سعد أربعة آلاف ألف ، فقال عثمان لعمرو : « إن اللقاح بمصر درّت بعدك ألبانها » ، فقال : « ذاك لأنكم أعجفتم أولادها ! »[4] .

---

(١) ابن الاثير (٣/٢٧) .

(٢) الاستيعاب (٣/٩١٩) وأسد الغابة (٣/١٧٤) .

(٣) اليعقوبي (٢/١٤٢) .

(٤) البلاذري ص (٢١٧) .

ولم يكن عمرو بن العاص وحده ناقماً على عثمان وعلى عماله ومنهم عبد الله بن سعد ، بل كان كثير من الذين يطمعون بمنصب عبد الله بن سعد ينقمون عليه — حتى في أحرج الظروف والمواقف لم ينسوا هذه النقمة عليه ؛ فقد أقام عبد الله أياماً بذات الصواري ، فكان أول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة ، إذ أظهروا عيبه وما غيّر وما خالف به أبا بكر وعمر، يقولان : « استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أباح دمه ونزل القرآن بكفره ... ونزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر » ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال : « لا تركبا معنا » ، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين ؛ ولقوا العدو وكانا أنكل المسلمين قتالاً ، فقيل لهما في ذلك ، فقالا : «كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد؟ استعمله عثمان ، وعثمان فعل كذا وكذا » ، فأرسل اليهما عبد الله ينهاهما أشد النهي، وقال : « والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين ، لعاقبتكما وحبستكما »[1] ؛ وفعلاً ثار محمد بن أبي حذيفة بن عتبة وسرّب المصريين الى عثمان فحصروه[2] منتهزاً فرصة استدعاء عبد الله الى المدينة المنورة لمواجهة عثمان ، كما شهد محمد بن أبي بكر قتل عثمان[3] ، فقال عبد الله بن سعد معلقاً على تآمر محمد بن أبي حذيفة : « أبعد الله محمد بن أبي حذيفة ! بغى على ابن عمه وسعى عليه ، وقد كان كفله وربّاه وأحسن إليه ، فأساء جواره ووثب على عماله ، وجهّز الرجال اليه حتى قتل ؛ ثم ولي عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، ولم يمتعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ، ولم يره بذلك أهلاً[4] » ، يقصد عدم إقراره من علي بن أبي طالب على مصر

---

(١) الطبري (٣٤١/٣ – ٣٤٢) وابن الأثير (٤٥/٣) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) .
(٣) ابن الاثير (٦٩/٣) والطبري (٣٩٢/٣) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) .

بعد توليه الخلافة .

ولعلّ عبد الله بن سعد استأثر بقسط وافر من شغب عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً فأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويلقي بينهم الشر[1] ، واستقر بمصر في أيام عمرو بن العاص فحرّض الناس على الاستعفاء منه وسألوا تولية عبد الله بن سعد فأشركه عثمان مع عمرو وجعله على الخراج وولى عمراً على الحرب ولم يعزله ، ثم دخل بينهما حتى كتب كل واحد منهما الى عثمان بالذي بلغه عن صاحبه ، فلما عُزل عمرو عن مصر وجّه ابن سبأ همّه للشغب على عبد الله بن سعد[2] .

ولكن ، هل كان عبد الله وحده موضع نقمة منافسيه على الحكم ومنافسي عثمان بن عفان ونقمة ذوي الميول الهدّامة الذين كانوا يعملون بوحي عبد الله بن سبأ ؟ إن عثمان وعماله جميعاً كانوا موضع تلك النقمة ، فبعث عثمان رجالاً يثق بهم [3] الى الأمصار فرجعوا بأخبار عماله ولم ينكروا شيئاً على عماله ؛ فبعث الى عمال الأمصار ليقدموا عليه في موسم الحج : عبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد ومعاوية بن أبي سفيان ، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص[4] ، فقال : « ما هذه الشكاية والاذاعة ؟! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، وما يعصب هذا إلا بي ! » ، فقالوا : « ألم تبعث ؟! ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟! والله ما صدقوا ولا برّوا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ، ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة » ، فقال عثمان : « أشيروا عليّ ! » ، فأبدى كل واحد منهم رأيه في كيفية معالجة هذا الشغب الظالم ، وكان رأي عبد الله : « خذ من الناس الذي

---

(1) تهذيب ابن عساكر (٧/١٢٨) .
(2) انظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٧/١٢٨ - ١٣٠) .
(3) هم : محمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر . انظر ابن الأثير (٣/٥٩) والطبري (٣/٣٧٩) .
(4) الطبري (٣/٣٧٩ - ٣٨٠) وابن الأثير (٣/٦٠).

عليهم ، إذ أعطيتهم الذي لهم »[1]

تُرى ، هل كان عمال عثمان لا يستحقّون مناصبهم ؟! أم أن الشغب عليهم كان أمراً مصنوعاً يلقى في السر فيتحدّث به الناس ، كما قال سعيد ابن العاص لعثمان ؟

لقد كان ينقص عثمان بن عفان رضي الله عنه شيء غير قليل من شدّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيطرته ، لذلك تجرأ الناس عليه في أمور لم يكونوا يتجرؤون في أمثالها على عمر ، وما أصدق عثمان حين قال : « ألا فقد والله عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله[2] » ؛ فكان عبد الله من جملة ضحايا لين عثمان وسماحته .

فقد كان الناقمون على عبـــد الله يرددون قصة ارتداده عن الإسلام حين كان فتى يافعاً ، بينما عفا عن زلته هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « الإسلام يجُبّ ما قبله » ، فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

إن عبد الله لم يكن موضع ثقة عثمان فحسب ، بل كان موضع ثقة عمر ابن الخطاب أيضاً ، إذ ولاّه قيادة الميمنة في جيش عمرو بن العاص الذي فتح مصر[4] ، وولاه (الصعيد) بعد فتح مصر[5] ؛ وما أصعب أن يكون المرء موضع ثقة عمر فيوليه قيادة الرجال وإدارة البلاد .

لقد حسن إسلام عبد الله ، وكان أميراً محموداً[6] ، اختط بمصر داره اللاصقة بقصر الروم يقال لها : دار الحنيّة ، والدار التي يقال لها : دار

---

(١) ابن الأثير (٣/٦٠) والطبري (٣/٣٨٠) .
(٢) ابن الأثير (٣/٥٨) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٣/٤٣٣) .
(٤) معالم الايمان (١/١١١) والقلر رياض النفوس (١/٤٤) .
(٥) النجوم الزاهرة (١/٧٩) .
(٦) فتح مصر والمغرب (١٥٤) .

الموز ، وبنى قصراً كبـيراً يعرف بقصر الجِنّ في أيـام عثمان ، وقد أمر ببنائه حين خرج الى المغرب لغزو إفريقية[1] . وحين عاد من إفريقية قال عبد الله للمقداد بن الأسود الكندي : «كيف ترى بنيان هذه الدار ؟ » ، فقال له المقداد : « إن كنت بنيتها من مالك فقد أسرفت ، وإن كنت بنيتها من مال الله فقد أفسدت » ، فقال عبد الله : « لولا أن يقول قائل : أفسد مرتين لهدمتها »[2]، وهذا دليل على أنه يتذكر إذا ذكّر ، وأن شعوره الديني مرهف لذلك يرضخ للحق ويعترف بالخطأ .

وقد نزل (السَّبخة) التي في شرقي (القيْرَوَان)[3] ، ولذلك سمي المكان : باب عبد الله ، واختط هناك مسجداً يعرف به[4] .

وكان شاعراً ، قال في حصار عثمان[5] :

أرى الأمر لا يزداد إلا تفاقماً
وأنصـارنا بالمكّتين قليـل
وأسلمنا أهل المدينة ، والهوى
هوى أهل مصر ، والذليل ذليل

وله حديث واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم[6] :

إن عبد الله كان والياً قديراً وفاتحاً عظيماً ومؤمناً حقاً ، وكانت له مزايا إنسانية عالية وأعمال مشرفة ، وكل قول يخالف ذلك لا يستند على مصادر التاريخ الصحيح .

---

(١) فتح مصر والمغرب ص (١٥٥) .
(٢) فتح مصر والمغرب وتهذيب (١٥٥) ابن عساكر (٤٣٣/٧) .
(٣) القيروان: مدينة عظيمة بافريقية ، وهي مدينة مصرت بالاسلام في أيام معاوية بن ابي سفيان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧) .
(٤) معالم الايمان (١١١/١) ورياض النفوس (٤٤/١) .
(٥) الروض الآنف (٢٧٤/٢) وتهذيب ابن عساكر (٧ ٤٤٣) .
(٦) الاصابة (٧٧/٤) .

القائـــد :

كان عبد الله فارس بني عامر بن لؤي [1] ، وقد أثبت شجاعة فائقة في معاركه ، خاصة في معركة (ذات الصّواري) ، وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة . وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها : ينجز تحشيد قواته ، ويكمل قضاياها الإدارية ، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصّلة – كل ذلك يساعده على وضع خطة مثلى تؤمّن له النصر المبين .

وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها ، ولا يأنف أبداً من الإنصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر ، بل كان يشجّع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبّقه فوراً ، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تؤثر عليها تقولات الناس .

والظاهر من سير معاركه التي خاضها ، أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال (غازياً) على أن يكون في القصور (والياً) . فقد شهد فتح أرض الشام ومصر وفتوحات عمرو بن العاص كافة قبل أن يتولى هو مصر ، فلما أصبح والياً عليها بعد عمرو بن العاص ، أمضى سنتي ست وعشرين وسبع وعشرين في فتح إفريقية ، وأمضى سنة ثمان وعشرين في فتح (قبرس) ، وأمضى سنة إحدى وثلاثين في النوبة ، وأمضى سنة ثلاث وثلاثين في استعادة فتح إفريقية ، وأمضى سنة أربع وثلاثين في (ذات الصّواري) ، فلما عاد سنة خمس وثلاثين من (ذات الصّواري) وافاه خبر من ثار على عثمان ، فقضى أيامه الباقية في سفره الى الحجاز وفي مكوثه هناك لمعاونة عثمان على معالجة موقفه المتأزم ؛ أي أن عبد الله قضى سبع سنوات من مدة حكمه مصر غازياً وقضى ثلاث سنوات فقط بين أهله ، ولا بد أن هذه السنوات الثلاثة قضاها هي الأخرى أو قضى أكثرها على أقل تقدير لإنجاز استعداداته

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) .

للقتال ، إذ أن الاستعدادات لخوض معركة ما لا تقل أهمية عن خطة خوض المعركة ، وكل نقص في الاستعدادات يؤدي الى الفشل .

إن حرص عبد الله على قيادة رجاله بنفسه ، ورغبته في مشاركتهم بتحمل أعباء القتال، وقضاءه أكثر مدة حكمه بعيداً عن أهله وعن مأمنه غازياً ، كل ذلك يدل على أنه طراز نادر من القادة الممتازين .

وكان قائداً (تعرضياً) يهتم كثيراً بتطبيق مبدأ (المباغتة) أهم مبادىء الحرب .

لقد كان قائداً ممتازاً حرياً بمنصبه القيادي ، وأعماله الباهرة في الفتح أدلة واضحة على أنه من أبرز قادة الفتح الإسلامي قابلية ومقدرة وكفاية وتضحية .

لقد كان عبد الله قائداً ممتازاً .

عبدالله في التاريخ :

يذكر التاريخ لابن سعد فتحه بلاد تونس الخضراء وشرقي الجزائر (إفريقية) وقبرس والنوبة ، ونشره الإسلام في ربوعها .

ويذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب خاصة معركة (ذات الصّواري) .

ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، البطل الشجاع ، القوي الأمين ، القائد الفاتح ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري القرشي .

مُعَاوِيَة بن حُدَيج السَّكوني

فَاتِح بنزرت[1] وَسُوسَة[2] وجَلولاء[3]

نسبه وأيامه الأولى :

هو معاوية بن حُدَيْج[4] بن جَفْنَة بن قنبرة[5] بن حارثة بن عبد شمس ابن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشْرَس بن شبيب بن السَّكُون السَّكُوني[6] ، يكنى : أبا نُعيْم[7] ، وقيل : أبا عبد الرحمن[8] .

قيل : إنه خولاني وليس بشيء ، والصحيح إنه سكُوني . أما قولهم

(١) بنزرت : مدينة بافريقية (تونس) بينها وبين مدينة تونس يومان ، وهي مشرفة على البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٩٢) وتقويم البلدان (١٤٢ – ١٤٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٥٩) .

(٢) سوسة : مدينة يحيط بها البحر في جنوبي شرقي تونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٧٣) وتقويم البلدان (١٤٤) .

(٣) جلولاء : مدينة مشهورة بافريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ١٢٩) والمشترك وضعاً (١٠٦)، وهي الآن خراب يعرف مكانها بعين جلولاء، انظر الفتح العربي في ليبيا (٦٤) .

(٤) في أسد الغابة (٤/٣٨٣) : خديج .

(٥) في جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) : قتيرة ، وكذلك في تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٦) الاستيعاب (٣/١٤١٣) وأسد الغابة (٤/٣٨٣) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والإصابة (٦/١١١) .

(٧) جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والإصابة (٦/١١١) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) ومعالم الايمان (١/١١٣) .

(٨) الاستيعاب (٣/١٤١٤) والإصابة (٦/١١١) .

إنه سكوني ، وقيل : تُجيبي ، وقيل : كنْدي ، فمن يرى هذا يظنّه متناقضاً ، ، والحقيقة : إن السَّكُون من كِنْدَة[1] ، وولد السكون شبيباً ، فولد شبيب أشْرَس ، فولد أشرس عدِياً وسعداً أمهما : تُجِيْب بهـا يُعرف أولادهما ؛ فكل تجيبي سكوني ، وكل سكوني كندي[2] ؛ فمن نسبه الى جدّه الأقرب قال : سكوني ؛ ومن نسبه الى جدّه الأبعد قال : كندي ؛ وكلاهما صواب[3] .

وأمه هي كبشة بنت معدي كرب الشاعرة[4] .

صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه[5] ، وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم[6] ، وهاجر الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[7] ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه[8] .

والظاهر انه كان صغيراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يشهد غزواته . لذلك نال معاوية شرف الصحبة وما أعظمه من شرف ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

---

(١) السكون بن أشرس بن ثور وهو كندة . انظر اسد الغابة (٣٨٣/٤) .

(٢) أسد الغابة (٣٨٤/٤) ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) .

(٣) معالم الايمان (١١٣/١) .

(٤) الاعلام (١٧١/٨) .

(٥) طبقات ابن سعد (٥٠٣/٧) ورياض النفوس (١٧/١) والخلاصة النقية (٤) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والاستقصا (٦٨/١) . وفي تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) : إنه مختلف في صحبته . والأول أصح لتواتره .

(٦) الإصابة (١١١/٦) وانظر الخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١١٣/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .

(٧) تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠) .

(٨) الاستقصا (٦٨/١) والإصابة (١١١/٦) .

جهـــاده :

١ - في مصر والنوبة :

أ - شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والاسكندرية[1] ؛ وقد ذكر معاوية ابن حديج قصة وفادته على عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية فقال : « بعثني عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب ، فرأتني شاحباً عليّ ثياب السفر ، فأتتني وقالت : من أنت ؟ قلت : أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص ... فانصرفت عني ثم أقبلت تشتدّ أسمع حفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني ، فقالت : قم فأجب ! أمير المؤمنين يدعوك .... فتبعتها ، فلما دخلتُ فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه باحدى يديه ويشدّ إزاره بالأخرى ، فقال : ما عنـــدك ؟ قلت : خـــير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية ... فخرج معي الى المسجد فقال للمؤذن : أذّن في الناس : الصلاة جامعة ... فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فاخبر أصحابك ، فقمت فأخبرتهم ؛ ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ثم جلس ، فقال : يا جارية ! هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت ، فقال : كل ! فأكلت على حياء . ثم قال : يا جارية ! هل من تمر ؟ فأتت بتمر في طبق ، فقال : كل ! فأكلت على حياء ؟ ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيتَ المسجد ؟.. فقلت : قلتُ أمير المؤمنين قائل[2] ! فقال : لبئست ما قلتَ أو بئس ما

---

(١) الإصابة (٦/١١١) وفتح مصر والمغرب (١٣٧) والإستقصا (١/٦٨) والخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١/١١٣) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٢) القائلة : الظهيرة ، يقال : أتانا عند القائلة ، وقد يكون بمعنى (القيلولة) أيضاً وهي النوم في الظهير ة، تقول: قال من باب باع وقيلولة أيضاً ومقيلا فهو: قائل ، وقوم قيَّلٌ وقُيَّلٌ أيضاً بالتشديد . والقيل : شرب نصف النهار ، يقال : قيَّله فتقيَّل ، أي سقاه نصف النهار فشرب .

ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيعنّ الرعية ، ولئن نمتُ الليل لأضيعنّ نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟! .[1]

إن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح ، دليل على ثقة عمرو به واعتماده عليه وأنه كان شخصية لامعة في جيش المسلمين الذي فتح مصر في جهاده وعقله ومنطقه وتصرّفه . كما أنه دليل على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب ، إذ لا يمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره .

ب – وفي سنة إحدى وثلاثين الهجرية شهد ابن حديج فتح (النُوبة)[2] تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي سرْح ، فذهبت عينه يوم (دمقُلة)[3] من بلاد النوبة[4] ، فأصبح أعور[5] .

٢ – في افريقية :

غزا ابن حديج إفريقية ثلاث مرات : الأولى سنة أربع وثلاثين الهجرية في خلافة عثمان بن عفّان[6] ، حين كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح والياً على مصر ، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار ، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظيمة واتّخذ قيرواناً عند (القرن)[7] ، ولم يزل فيها حتّى خرج الى مصر[8] .

---

(١) فتح مصر والمغرب (١١٩ – ١٢٠) .
(٢) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر . أول بلادهم بعد أسوان . انظر معجم البلدان (٣٢٣/٨) .
(٣) دمقلة : مدينة كبيرة في بلاد النوبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٢/٤) .
(٤) فتح مصر والمغرب . وانظر معالم الايمان (١١٥/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) .
(٥) معالم الايمان (١١٥/١) .
(٦) معالم الايمان (١١٣/١) ورياض النفوس (١٨/١) وانظر فتح مصر والمغرب (٢٦١) .
(٧) القرن : موضع مدينة القيروان . انظر كتاب فتح العرب للمغرب (١٢٠) .
(٨) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢٢/٢) .

وغزا معاوية إفريقية بسنة إحدى وأربعين الهجرية[1]، ففتح مدينة (بنزّرت)، وكان معه عبد الملك بن مروان[2].

ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن سعد بن أبي سرح ولمعاوية بن حديج، أجبروا البربر في إفريقية على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا لأن ذلك ليس في طاقتهم، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم؛ فوقع القتال بين خليفة (جرجير) ملك إفريقية وبين القائد الرومي، فهزم هذا القائد خليفة جرجير ففرّ الى الشام واتصل هناك بمعاوية ابن سفيان وزيّن له فتح إفريقية واصفاً له خيراتها وثراءها، ودلّه على عورات الروم؛ فبعث معاوية بن حديج لفتحها[3] فغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية[4].

فقد وجّهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل[5]، معهم عبدالله بن عمر بن الخطاب وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبدالملك بن مروان[6].

ومضى معاوية حتّى وصل الى (إفريقية) وكانت تضطرم ناراً[7]، فنزل بجيشه على (قمُونيَّة)[8] وهي قيروان إفريقية[9]، وكان عامل

---

(1) معالم الايمان (1/114). اما في فتوح مصر والمغرب (261) فيذكر انه غزاها سنة أربعين. والأول أصح لأن معاوية استقر ملكه سنة إحدى وأربعين هجرية.

(2) معجم البلدان (2/293).

(3) تاريخ المغرب الكبير (2/22).

(4) رياض النفوس (1/17) والبيان المغرب (1/17) والاستقصا (1/69) والخلاصة النقية (4).

(5) الاستقصا (1/69) والخلاصة النقية (4).

(6) رياض النفوس (1/17 - 18).

(7) ابن الاثير (3/35) والبيان المغرب (1/17) وابن خلدون (2/129 الملحق).

(8) قمونية: مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/162).

(9) رياض النفوس (1/18).

(جرجير) وهو ملك (سُبَيْطلة)[1] على رأس ثلاثين ألف مقاتل كان القيصر قد وجّههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة العرب المسلمين عن إفريقية ، فلم تغن قوات الروم شيئاً ، إذ قاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن (الأجم)[2] ، ثم بثّ السرايا في البلاد وبعث عبدالله بن الزبير الى (سُوْسَة) ففتحها[3] .

وبعث رُوَيْفِــع بن ثابت الأنصاري بحراً الى (جَرْبَة)[4] ففتحها ثم عاد أدراجه الى طرابلس الغرب التي كان أميراً عليها[5].

وبعث عبد الملك بن مروان الى (جلُولاء) ففتحها[6] .

واستقر معاوية في جبل (القَرْن[7] وجعله مقراً له ، فبقي هناك ثلاث سنين[8] ، فبنى بناحية القرن مساكن سمّاها : (قيروان)[9] ، واحتفر بها آباراً تسمي : آبار حديج ، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرق عند مصلى الجنائز[10] .

---

(١) سبيطلة : مدينة تبعد عن القيروان سبعون ميلا وعن قفصة مرحلة واحدة ، وكانت عاصمة افريقية في القديم . انظر تقويم البلدان (١٤٠) ومعجم البلدان (٥/٣٣) .

(٢) الأجم : الأجم – العجم – الأعجام، كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم (Thysderas) وكانت مركزاً حربياً هاماً طول حكمهم . أنظر فتح العرب للمغرب (٨٣) .

(٣) الاستقصا (١/٦٩) وانظر ابن الاثير (٣/٣٥) وابن خلدون (٢/١٢٩ – ١٣٠ الملحق).

(٤) جربة : جزيرة في تونس قرب قابس كان يسكنها البربر . انظر معجم البلدان (٣/٧٣-٧٤).

(٥) انظر ترجمـــة رويفع بن ثابت الأنصاري في الجزء الثـــاني من هذا الكتاب . وانظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٢) وفتح العرب للمغرب (١٢٦) ومعجم البلدان (٣/٧٣ – ٧٤) والاصابة (٢/٢١٤) والعبر (١/٥٤) وشذرات الذهب (١/٥٥) .

(٦) البيان المغرب (١٠) والاستقصا (١/٦٩) وابن خلدون (٢/١٣٠ الملحق) وسترد ترجمة عبد الملك بن مروان في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٧) القرن : جبل بافريقية . انظر معجم البلدان (٧/٦٦) ، وهو الجبل المعروف اليوم بجبل (وسلات) . انظر تاريخ المغرب الكبير (٢٥) .

(٨) معالم الايمان . (١/١١٤) .

(٩) رياض النفوس (١/١٩) والخلاصة النقية (٥)

(١٠) معالم الايمان (١/١١٣ – ١١٤) .

إنه غزا إفريقية مراراً كثيرة كان آخرها سنة خمسين الهجرية[1] ، ولكن المؤرخين اقتصروا على ذكر ثلاث غزوات منها ، وهي أهمّ غزواته على ما يظهر .

وعاد معاوية بعد ذلك الى مصر بعد أن خلّد آثاراً حسنة في إفريقية[2] ، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية[3] .

٣ ــ في البحر :

أ ــ كان معاوية أول من غزا جزيرة (صِقِلِيّة)[4] ، إذ بعث اليها عبدالله بن قيس[5] فأصاب أصناماً من ذهب وفضّة مكللة بجوهر[6] ، وقد وجّه معاوية جيشه هذا في مائتي مركب[7] ، وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية[8] .

---

(١) تهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) والاصابة (١١١/٦) .

(٢) الاستقصا (٦٩/١) والخلاصة النقبة (٥) .

(٣) البلاذري (٢٣٧) .

(٤) صقلية : من جزائر البحر الأبيض المتوسط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٣/٥) .

(٥) سترد قصة حياته في كتاب قادة فتح الاندلس والبحار .

(٦) البيان المغرب (١٩/١) .

(٧) الا ستقصا (٦٩/١) والخلاصة النقية (٥) .

(٨) البيان المغرب (١٢/١) . وفي كتاب : فتح العرب للمغرب (١٢٥) : يذكر بعض المؤرخين غزوة بعثها معاوية في ذلك الحين الى صقلية ويجعلون ذلك قبل فتح بنزرت ، وواضح أنهم أخطأوا فوصفوا هنا حملة معاوية بن حديج التي بعثه عليها معاوية سنة (٢٧) أو (٢٨) في خلافة عثمان ، فغزا رودس ثم صقلية ... انتهى .

اقول : إن البلاذري في (٢٣٧) يذكر : غزا معاوية بن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية ، وكان أول من غزاها ولم تزل تغزى بعد ذلك . ثم يذكر : سبى عبدالله بن قيس بن مخلد صقلية فأصاب أصنام ذهب انتهى . وما ذكرناه أعلاه يظهر أن ابن حديج لم يغز هو صقلية بل بعث عبدالله بن قيس إليها ، وأن هذه الغزوة كانت (غارة) ولم تكن (فتحا) . وقد ورد نص واضح حول ذلك في البيان المغرب (١٠) : أغزى معاوية جيشاً في البحر الى صقلية في مائتي مركب ، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً ثم انصرفوا ... انتهى . كما أن غزوة معاوية سنة ٢٧ أو ٢٨هـ، كانت لجزيرة قبرس لا لصقلية أو رودس .

ب ـ وفي سنة تسع وأربعين الهجرية وجّه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر[1].

الإنسان :

كان معاويةَ صحابياً صحب النبي صلى‌الله عليه وسلم وروى عنه[2] أربعة أحاديث[3] منها ما رواه : « سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[4]. وهاجر الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[5] ووفد على عمر الفاروق رضي الله عنه بفتح الإسكندرية[6] ، وكان عثمانياً[7].

وكان معاوية بمصر حين غلب عليها محمد بن أبي حُذيفة بعد أن خرج عنها أميرها عبدالله بن سعد بن أبي سرح الى عثمان بن عفان[8].

وبقي معاوية موالياً لعثمان بن عفان لا يشارك المصريين الذين غادروا مصر الى المدينة لمحاصرة عثمان ، فاعتزل محمد بن أبي حذيفة وبارزه[9] وناصبه العداء السافر حرصاً على الوحدة وإطاعة للخليفة القائم ، وبقي معاوية صامداً على ولائه لعثمان لا يخشى ابن أبي حذيفة الثائر على الخليفة

---

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب (١/١٣) و (٢/١٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٥٠٣) وانظر البداية والنهاية (٨/٦١) ورياض النفوس (١/١٧) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣ - ٢٠٤) ودول الاسلام (١/٢٧) والإستقصا (١/٦٨) والخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١/١١٣) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) وتهذيب الاسماء واللغات (٢/١٠٢).

(٣) اسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة لابن حزم - (٢٩١).

(٤) أسد الغابة (٤/٣٨٤) والاصابة (٦/١١١) ومعالم الإيمان (١/١١٥).

(٥) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣).

(٦) البداية والنهاية (٨/٦١) وانظر طبقات ابن سعد (٨/٥٠٣).

(٧) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٤) والبيان المغرب (١/١٨) وطبقات ابن سعد (٧/٥٠٣).

(٨) ابن الأثير (٣/٦٢).

(٩) الولاة والقضاة (١٥).

عثمان والذين شايعوه من أهل مصر[1].

وعاد عبدالله بن سعد أدراجه الى مصر ليحول دون الفتنة، ولكن محمد بن أبي حذيفة وأصحابه منعوه من دخولها، فعاد الى فلسطين وبقي هناك حتّى قتل عثمان[2]، فسجن الثائرون معاوية في داره[3]، خوفاً من سطوته ورجولته.

وفي رواية، أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح بعث معاوية بن حديج الى المدينة لنجدة عثمان[4]، ولكن عثمان قتل قبل أن يدركه معاوية أو تدركه جيوش الأمصار[5]، فعاد معاوية من حيث أتى.

وبعث محمد بن أبي حذيفة الى معاوية وهو أرمد ليكرهه على البيعة، ولكن أحد أصدقائه[6] دفع عن معاوية ما كره، فبايع معاوية شيعةُ عثمان وعقدوا له عليهم، فكان أول من بايع على الطلب بدم عثمان؛ فسار برجاله الى (الصعيد) من أرض مصر[7].

ومضى معاوية حتّى بلغ (بَرْقة) ثم رجع الى الإسكندرية[8]، واستقر به المطاف في (خَرِبتَا)[9] ومعه أصحابه وبعض رجالات العرب[10].

وتولى قيس بن سعد الأنصاري مصر لعلي بن أبي طالب، وكان صاحب راية الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، وكان من ذوي

---

(1) الولاة والقضاة (١٧).
(2) ابن الأثير (٦٢/٣) والولاة والقضاة (١٧).
(3) الولاة والقضاة (١٨).
(4) الطبري (٣٨٨/٣) وابن الأثير (٦٢/٣).
(5) ابن الأثير (٦٦/٣) والطبري (٤٠٢/٣).
(6) هو كنانة بن بشر. انظر الولاة والقضاة (١٨).
(7) الولاة والقضاة (١٨).
(8) الولاة والقضاة (١٩).
(9) خربتا: من كور مصر حوالي الاسكندرية. انظر معجم البلدان (٤١٤/٣).
(10) الولاة والقضاة (٢١).

الرأي والبأس[1] ، فبعث قيس الى أهل (خَرِبْتَا) : «إني لا أكرهكم على البيعة ، وإني كافٌ عنكم» ، فهادنهم وجبى الخراج ليس أحد ينازعه[2] .

وكان قيس بن سعد من أثقل الناس على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام مخافة أن يُقبل اليه عليٌ في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع معاوية بينهما[3]، كما كان قيس من ذوي الرأي الدهاة، فكان معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جاهدين أن يخرجاه من مصر ، وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدرا أن يدخلا مصر حتّى كاد معاوية بن أبي سفيان قيساً من قِبَل علي بن أبي طالب ، فكان معاوية بن أبي سفيان يحدّث رجالاً من ذوي الرأي من قريش فيقول : «ما ابتدعتُ من مكايدة قط أعجب إليّ من مكايدة كدت بها قيس بن سعد . حين امتنع مني قيس قلت لأهل الشام : لا تسبّوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه ، فإن قيساً لنا شيعة : تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بـ (خربْتا) ، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمّن سِربَهم[4] ويحسن الى كل راتب[5] يأتيه منهم؟! قال معاوية : وطفقت أكتب بذلك الى شيعتي من أهل العراق، فسمع بذلك جواسيس (عليٍّ) بالعراق ، فأنهاه الى محمد بن أبي بكر وعبدالله بن جعفر ، فاتّهم (عليٌّ) قيساً ، فبعث اليه يأمره بقتال أهل (خربتا) وبخربتا يومئذ عشرة آلاف ، فأبى

---

(١) ابن الأثير (٣/١٠٦).

(٢) ابن الأثير (٣/١٠٧) والطبري (٣/٥٥١).

(٣) الطبري (٣/٥٥١).

(٤) سرب : السارب ، الذاهب على وجهه في الأرض ، ومنه قوله تعالى : (وسارب بالنهار) أي ظاهر ، وبابه دخل . والسرب بالكسر : النفس ، يقال : فلان آمن سربه ، أي في نفسه ، وهو ايضاً القطيع من القطا والظباء والوحش والخيل والحمر والنساء . والسرب : بفتحتين ، بيت في الأرض . وانسرب الحيوان وتسرب ، دخل في بيته ، ومنه قوله تعالى : (فاتخذ سبيله في البحر سربا) .

(٥) راتب : دائم ، ثابت . وأمر راتب ، أي دائم ثابت .

قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي : إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ ، وقد رضوا مني بأن أؤمن سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم ، وهم أسود العرب منهم بُسر بن أبي أرطاة ومَسْلحة بن مُخلّد ومعاوية بن حديج ، فأبى عليه إلا قتالهم ، فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي : إن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري »[1].

وعزل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قيساً وولى مكانه محمد بن أبي بكر الصديق مصر ، فلقي قيسٌ محمد بن أبي بكر فقال له فيما قال : « ..... دع معاوية بن حديج ومَسْلَمة بن مُخلّد وبُسْر بن أبي أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا فلا تطلبهم ... » ، فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، فكتب الى ابن حديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته ، فلم يجيبوه ، فبعث رجالاً هدموا دور الخارجة ونهبوا أموالهم وسجنوا ذراريهم ، فبلغهم ذلك ، فنصبوا له الحرب وهمّوا بالنهوض إليه ، فلما علم أنه لا قوّة له بهم أمسك عنهم[2].

وبعد معركة (صفين) بين علي ومعاوية ، كتب معاوية الى مسلمة ابن مخلّد ومعاوية بن حديج يحثها على الطلب بدم عثمان ويعدهما المواساة في سلطانه ، فلما وقفا على كتاب معاوية أجاب مسلمة بن مخلّد عن نفسه وعن ابن حديج : « أما بعد : فإن الأمر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمر الله أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النقمة

---

(١) الولاة والقضاة (٢١) وانظر الطبري (٣/٥٥١ – ٥٥٥) وابن الأثير (٣/١٠٧ – ١٠٨) حول مكايدة معاوية بن أبي سفيان لعلي بن أبي طالب لتشكيكه باخلاص قيس بن سعد بن عبادة له .

(٢) الولاة والقضاة (٢٧) .

على من سعى على إمامنا . وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك ، فتالله أن ذلك أمر ماله نهضنا ولا إياه أردنا ، فعجل الينا بخيلك ورجلك ، فإن عدوّنا قد أصبحوا لنا هائبين ، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك ، والسلام » ، فأمر معاوية عمرو بن العاص أن يتجهز الى مصر ، وبعث معه ستة آلاف رجل [1].

وكان علي ومعاوية حين أجمعا على الحكَمين ، أغفل عليٌّ أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر [2] ، فسار عمرو بن العاص حتى نزل أداني أرض مصر ، فاجتمعت اليه العثمانية [3] ، وكان ابن حديج على الخارجة [4] من أهل مصر ، فأحاطوا بأصحاب محمد بن أبي بكر [5] واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم أهل مصر ، فدخل عمرو بأهل الشام الفُسطاط [6] .

وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر حتى قتله [7] ، فلما رأته نائلة امرأة عثمان قبّلت رجله وقالت : « أدركت ثأري من ابن الخثعميّة » تعني محمد بن أبي بكر [8] .

وفي سنة سبع وأربعين الهجرية ، ولاّه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد عبدالله بن عمرو بن العاص ، فمرّ به عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال له : « يا معاوية ! قد أخذت جزاءك من معاوية ؟؟ .. قد قتلت أخي محمد بن أبي بكر لتلي مصر ، فقد وليتها » ، فقال : « ما قتلت محمداً

---

(١) ابن الأثير (٣/١٤٣) .
(٢) الولاة القضاة (٢٨) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٤٣) .
(٤) الولاة والقضاة (٢٩) .
(٥) ابن الأثير (٣/١٤٣) .
(٦) الولاة و القضاة (٢٨) .
(٧) البيان المغرب (١/١٨) وابن الأثير (٣/١٤٤) وأسد الغابة (٤/٣٨٤) والاستيعاب (٣/١٤١٤) .
(٨) الولاة والقضاة (٣٠) وكان محمد بن أبي بكر من قتلة عثمان .

إلا بما صنع بعثمان » ، فقال عبدالرحمن : « فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع ، حيث عمل عمرو (يقصد عمرو بن العاص) بالأشعري (يقصد أبا موسى الأشعري) ما عمل ، فوثبت أول الناس فبايعته[١] » .

وفي سنة خمسين الهجرية عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج عن إفريقية وأقرّه على ولاية مصر ، ووجّه الى إفريقية عقبة بن نافع الفهري[٢] ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية[٣] ، فمات بها سنة اثنتين وخمسين الهجرية[٤] (٦٧٢ م) .

كان معاوية بن حديج من الثقاة[٥] يُعدّ من أهل مصر وحديثه عندهم[٦] ، وكان محله بمصر عظيماً[٧] ، عاقلاً حازماً واسع العلم مقداماً[٨] .

لقد اجتهد أن يكون بعيداً عن الفتن ، فقاوم أهل مصر الذين أرادوا سوءاً بعثمان ، فلما قُتل عثمان مظلوماً ، بقي معاوية مُصراً على المطالبة بدمه ، فكان عثمانياً في أيام علي ببلاد مصر[٩] .

---

(١) ابن الأثير (١٨١/٣) والبيان المغرب (٤٧/١) ، وفي البيان المغرب (١٨/١) : إنه تولى مصر لمعاوية سنة ثمان وأربعين الهجرية .

(٢) البيان المغرب (١٩/١) .

(٣) الخلاصة النقية (٤) .

(٤) الإصابة (١١١/٦) والبداية والنهاية (٦١/٨) وشذرات الذهب (٥٨/١) والعبر (٥٧/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) ودول الاسلام (٢٧/١) وفي الإصابة (١١١/٦) إنه ولي مصر ليزيد بن معاوية وقد نقل ذلك الزركلي في الاعلام (١٧١/٨) ، وهذا خطأ ، لأن يزيد تولى الخلافة سنة ستين الهجرية . انظر البداية والنهاية (١١٥/٨) وابن الأثير (٢/٤) والعبر (٦٤/١) وشذرات الذهب (٦٥/١) .

(٥) البداية والنهاية (٦١/٨) .

(٦) اسد الغابة (٣٨٤/٤) والاستيعاب (١٤١٤/٣) .

(٧) اسد الغابة (٣٨٤/٤) .

(٨) الاعلام (١٧١/٨) .

(٩) البداية والنهاية (٦١/٨) .

وأرى أنه كان مخلصاً لعثمان الخليفة القائم ، وبقي مخلصاً له حتى بعد قتله ، ولم يكن في موقفه هذا طالباً دنيا ولا راجياً جزاء ، كما تدل على ذلك مواقفه التي ذكرناها .

لقد بنى مساكن بناحية (القرن) وسماها : قيروانا[1] ونشر الإسلام بين البربر[2] وحفر الآبار في محل القيروان[3] وخلّد آثاراً حسنة في مصر والمغرب[4] .

إنه كان إنساناً ممتازاً وإدارياً حازماً .

القائد :

كان معاوية من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبار .

وكان من ضباط ركن عمرو بن العاص في فتح مصر ومن ضباط ركن عبدالله بن سعد بن أبي سرح في فتح إفريقية والنوبة ، فلما تولى القيادة كان خبيراً بالمغرب عارفاً لشؤونه وطبيعة أرضه ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهّلت له فتح كثير من بلاد المغرب .

والذي يتتبّع قصّة جهاده بإمعان ، يجد أن معاوية كان يهوى الجهاد ، فكان يفضّل دائماً أن يكون غازياً في ساحات الوغى على أن يكون والياً في باحات القصور .

لقد كان جندياً بالطبع ، وكان من أسود العرب[5] .

سألت عائشة أم المؤمنين يوماً بعض رجاله فقالت : «كيف كان

---

(١) رياض النفوس (١٩/١) .
(٢) الاستقصا (٦٨/١) .
(٣) الاستقصا (٦٨/١) والخلاصة النقية (٤) .
(٤) الخلاصة النقية (٤) .
(٥) الولاة والقضاة (٢١) .

أميركم في غزاتكم؟ » تعني معاوية بن حديج ، فقالوا : « ما نقمنا عليه شيئاً » ، وأثنوا عليه خيراً ، وقالوا : « إن هلك بعير أخلف بعيراً ، وإن هلك فرس أخلف فرساً ، وإن أبق[1] خادم أخلف خادماً » ، فقالت : « استغفر الله ! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم من رفق بأمتي فارفق به ، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه[2] » ، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم وإرضائهم وإعطائهم ما يستحقون...

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ، ذا شخصية قوية نافذة ، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة ، يتحمل المسؤولية ولا يتهرب منها ، ذا إرادة قوية ثابتة ، يعرف مبادىء الحرب ويطبقها ، ويعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، يثق برجاله ويثقون به ويبادلونه حباً بحب وتقديراً بتقدير ، له تجربة طويلة في الحرب وماض ناصع في الجهاد .

لقد كان معاوية قـائداً ممتازاً .

معاوية في التاريخ :

قضى معاويةَ حياته كلها مجاهداً في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء .

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يُحصى من البربر ، ونشر لغة القرآن بينهم .

ويذكر له أنه فتح بلاداً شاسعة من شمال إفريقية في تونس والجزائر والمغرب

ويذكر له أنه أول من أغزى (صِقليّة)، فمهّد للعرب المسلمين فتحها بعد ذلك .

ويذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحـازم ، أمير البحر وقـائد البر معاوية بن حُدَيْج السَّكُوني .

---

(١) أبق : أبقاً وإباقاً ، هرب، فهو آبق وأبوق .

(٢) أسد الغابة (٤/٣٨٤) والاستيعاب (٣/١٤١٤) .

عُقْبَة بن نافع الفهري القرشي

فاتح زويلة[1] وغدامس[2] وبعض كور[3] السودان وفزان[4] وعامة بلاد البربر[5] وباغاية[6] وبلاد الزاب[7] وطنجة[8] والسوس الأدنى[9] والسوس الأقصى[10] واختط القيروان[11]

« يا رب ! لولا هذا البحر لمضيت
مجاهداً في سبيلك »

(عقبة بن نافع)

نسبه وأهلــه :

هو عُقْبَة بن نافــع بن عبد القَيْس بن لَقِيْط بن عَامر بن أُميَّة[12] ابن الضرب بن الحارث بن فِهْر القُرَشي[13] .

---

(١) زويلة : مدينة من مدن فزان القديمة ، تقع في الجنوب الشرقي من (مرزق) بنحو (١٥٠) ك.م. وتبعد عن مدينة طرابلس الى الجنوب الشرقي بنحو (٧٧٠) ك.م. ويعبر عنها المؤرخون بـ (زويلة السودان) إحترازاً عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بقرب تونس ، وكانت زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزان بدل مرزق . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٤) ومعجم البلدان (٤/٤١٨ – ٤١٩) وآثار البلاد (٩٤) والمشترك وضعاً (١٣٦) والمسالك والممالك (٣٤) .

(٢) غدامس : إسمها البربري القديم (سيداموس) ، وهي واحة من واحات طرابلس الغرب الصحراوية ذات شكل مستدير تقريباً ، وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على بعد (٥٠٠) ك.م على جهة المسامتة ؛ اما على الطريق الذي يمر بالعزيزية ويفرن ونالوت ثم يذهب الى سيناون ، فتبعد عنها حوالي (٦٥٨) ك.م. وهي من أقدم مراكز الحضارة في صحراء طرابلس . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٣) ومعجم البلدان (٦/٢٦٨) وتقويم البلدان (١٤٦) .

(٣) كورة : جمعها كور ، والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى

أبوه : نافع بن عبد القيس الفهري ، كان ممن نخس بزينب بنت رسول

من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها اسم الكورة كقولهم : كورة نهر الملك ..الخ انظر معجم البلدان (٣٦/١) .

(٤) فزان : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدها من الشمال الجبال السود (الهروج) ، ومن الجنوب جبال (التبو) وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذي يصل بين غدامس وغات ، ومن الشرق خط الطول في الدرجة (١٨) . وطولها من الشرق الى الغرب (٩٠٠)ك.م. ومن الشمال الى الجنوب (٨٠٠)ك.م. وارتفاعها على سطح البحر نحو (٥٠٠) متر ، وفيها وديان يبلغ انخفاضها في بعض الأماكن نحو (١٥٠) متراً تحت سطح البحر ، ومساحتها أكثر من (٣٠٠) ألف كيلو متر مربع . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٥) ومعجم البلدان (٣٧٤/٦ - ٣٧٥) .

(٥) بلاد البربر : تمتد من جبال المغرب من برقة الى آخر المغرب والبحر المحيط وفي الجنوب الى بلاد السودان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٤/٢ - ١٠٦) .

(٦) باغاية : مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة ، وهي حصن بربري قديم ، وكان سكانها من البربر والروم . انظر معجم البلدان (٤١/٢) وتاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢).

(٧) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة . وهي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة ، والنهر متسلط عليها . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٤/٤ - ٣٦٥) والمشترك وضعاً (٢٢٩ - ٢٣٠) . وفي تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم : ولاية قسنطينة .

(٨) طنجة : مدينة قديمة على البحر بينها وبين سبته مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٩) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية . وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الاطلسي . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(١٠) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط ، والسوس الأقصى اسم مدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يعتف بها طوائف من البربر . انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩) ومعجم البلدان (١٧٢/٥) .

(١١) القيروان : مدينة كبيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧ - ١٩٥) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ - ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٤٤ - ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢) .

(١٢) الإصابة (٨١/٥) وأسد الغابة (١٣٠/٣). وفي نسب قريش (٤٤٥) : إنه عقبة بن نافع ،

الله صلى الله عليه وسلم لما توجّهت مهاجرة الى المدينة المنوّرة[1] فأفزعها ، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها بعد أيام[2] ، وقد مات قبل فتح مكة مشركاً في رواية[3] ، وفي رواية أخرى : أنه أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر ، وبعثه عمرو الى (برْقَة)[4] ، وقد بقي الى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه[5] .

وأمه : سبيّة من (عَنَزَة) اسمها : النابغة ، فهو أخو عمرو بن العاص لأمه[6] . وفي رواية : أنه ابن خالة عمرو بن العاص[7] ؛ وفي رواية : أن عمرو بن العاص خاله[8] ؛ وفي رواية : أنه ابن أخي العاص ابن وائل السهمي لأمه[9] ؛ وعلى كل فعقبة من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش .

ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة[10] (٦٢١ م) ، وفي رواية ، أنه ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة[11] ، وهذه الرواية

ابن عبد قيس بن لقيط بن أمية .

(١٣) جمهرة أنساب العرب (١٧٦ - ١٧٧) ونسب قريش (٤٤٤) وانظر الخلاصة النقية (٥) والاستقصا (١/٦٩) والبيان المغرب (١/١٩) .

(١) الإصابة (٥/٨١) وانظر سيرة ابن هشام (٢/٣٠٢) .

(٢) أنساب الأشراف (١/٣٩٧) .

(٣) الإصابة (٥/٨١) .

(٤) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها إنطابلس ، وتفسيره الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٣٣) .

(٥) انظر التفاصيل في الإصابة (٦/٢٢٦) .

(٦) جمهرة أنساب العرب (١٦٣) .

(٧) المغرب في حلى المغرب (١/١٩) - طبعة جامعة فؤاد الأول ، وأسد الغابة (٢/٤٢٠) والاستيعاب (٣/١٠٧٥) .

(٨) الاصابة (٥/٨١) .

(٩) سير اعلام النبلاء (٣/٣٤٩) .

(١٠) الخلاصة النقية (٥) .

(١١) البيان المغرب (١/١٣) وبغية الرواد (١/٧٦) .

لا صحّة لها ، لأن عقبة شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص واختط بها[1] ، وكان فتح مصر سنة عشرين الهجرية[2] ، كما تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في فتح (زويلة) سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين الهجرية، فليس من المعقول أن يشهد عقبة غمار الحرب وعمره عشر سنين وأن يتولى قيادة جيش وعمره إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة!

لقد نشأ عقبة في بيئة إسلامية خالصة ذات طابع عسكري بحت ، فحمل سلاحه مجاهداً في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد ، وبرز في ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع وتجرّد وإقـــدام .

نشأ في بيئة إسلامية خالصة ، فقد ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصّح له صحبة[3] ، ويقال : له صحبة ولا يصلح[4] ، وعلى كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة[5] ، وقد تولى منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانوا لا يؤمّرون في الفتوح غير الصحابة[6] ، وكان عمر بن الخطاب لا يولي إلاّ الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي .

ونشأ في بيئة ذات طابع عسكري بحت : أهله من بني (فِهْر) لهم ماض مشرف في الحروب ولهم حاضر مشرف في الفتح ، وأقرباؤه وعلى رأسهم عمرو بن العاص هم أبرز قادة الفتح ، وقومه قريش هم قادة الفتح

---

(١) الإصابة (٥/٨١) وسير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩) .

(٢) ابن الاثير (٢/٢١٨) .

(٣) الإصابة (٥/٨١) وأسد الغابة (٣/٤٢٠) وتجريد أسماء الصحابة (٣١٦ - ٣١٧) . والاستيعاب (٣/١٠٧٥) .

(٤) الاصابة (٥/٨١) .

(٥) الاستقصا (١/٦٩) .

(٦) الإصابة (٢/١٩٤) .

وأمراء الأمصار ؛ وكانت أيامه التي عاشها منذ أول شبابه أيام الفتح الإسلامي الذهبية وأيام الجهاد الخالدة.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة ، فاجتمع في تكوينه : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب ، ليكون قائداً من ألمع قادة الفتح الإسلامي على الاطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي .

جهـــاده :

١ - في مصر وليبيا والنُّوبَة :

أ - شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها كما أسلفنا ، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية ، وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك .

ب - بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من العرب المسلمين الى (زَوِيلَة) ، فافتتحها صلحاً[١] وصار ما بين (بَرْقة) و (زويلة) سلماً للمسلمين[٢] ، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية[٣] . وقد كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يعلمه : أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ (زويلة) ، وأن مَنْ بين (زويلة) و (برقة) سلم كلهم حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقرَّ معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل (زويلة) ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخـــذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل الى مصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم[٤] .

---

(١) ابن الاثير (٣/٨) والطبري (٣/٢٢٧) والبلاذري (٢٢٦) .
(٢) المغرب في حلى المغرب (١/٤٥) والطبري (٣/٢٢٧) .
(٣) ابن الاثير (٣/٨) والطبري (٣/٢٢٧) .
(٤) البلاذري (٢٢٦) .

جـ – وفي هذه السنة ، أي سنة إحدى وعشرين الهجرية ، بعثه عمرو الى (النُّوْبَة)[1] ، فلقي المسلمون من (النوبة) قتالاً شديداً ، ثم انصرف المسلمون من (النوبة)[2] ، وبذلك كان عقبة أول من مهّد لفتح (النوبة) من المسلمين[3] .

د – لقد قدّر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر ، لذلك بعث عقبة الى (زويلة) وسار هو الى (ليبيا) وبعث عقبة الى (النوبة) ، وبذلك كان لعقبة فضل كبير على تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر .

هـ – وحين كان عمرو بن العاص على مصر ، كان عقبة على رأس المسلمين حامية ا (برقة) . وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين[4] وعقد عثمان لعبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر كلها مضافاً (للصَّعِيْد)[5] وغيره[6] ، فأقر ابن أبي سرح عقبة على منصبه قائداً لحامية (برقة) .

و – وسار عبدالله بن سعد بن أبي سرح بجيشه البالغ تعداده عشرين

---

(١) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بعد أسوان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٣/٨) .

(٢) اليعقوبي (١٣٤/٢) .

(٣) يرى بعض المؤرخين أن غزو زويلة والنوبة شيء واحد وغزوة واحدة لمكان واحد ! وأرى أن هاتين الغزوتين التين حدثتا في سنة واحدة هما غزوتان منفصلتان : الأولى انتهت صلحاً والثانية انتهت بقتال شديد .

(٤) النجوم الزاهرة (٧٩/١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٧٠/١) والولاة والقضاة (١١) . وفي العبر (٢٩/١) : انه عزل سنة سبع وعشرين الهجرية .

(٥) الصعيد : بلاد واسعة كبيرة فيها مدن عظام منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب ثم قوص وقفط وأخميم والبهنسا وغير ذلك . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٥) .

(٦) النجوم الزاهرة (٦٦/١) .

ألفاً[1] سنة ست وعشرين الهجرية[2] ، فلما وصلوا الى (برقة) لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك ، فساروا جميعاً الى (طَرَابُلُس) الغرب فنهبوا من عندها من الروم[3] .

وشهد عقبة فتوحات ابن أبي سرح في إفريقية ، وأبلى في جهاده تحت راية ابن أبي سرح أعظم البلاء .

ز ــ لقد كان عقبة على رأس حامية (برقة) ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا ، وقد حافظ على تلك المنطقة حتّى في أخطر الظروف والأحوال .

كما أنه حمى منطقة (برقة) من الروم ، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها الى فتح (إفريقية) ؛ لذلك كان عقبة ذا فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية .

٢ ــ في البحر :

أ ــ بقي عقبة في (برقة) بعد ابن أبي سرح أيضاً في أيام معاوية بن حُدَيج السكوني ، وفي سنة تسع وثلاثين الهجرية غزا عقبة الروم في البحر بأهل مصر[4] .

ب ــ وفي سنة تسع وأربعين الهجرية في أيام معاوية بن حديج السكوني ، غزا عقبة الروم في البحر ، فشتا هناك بأهل مصر[5] .

---

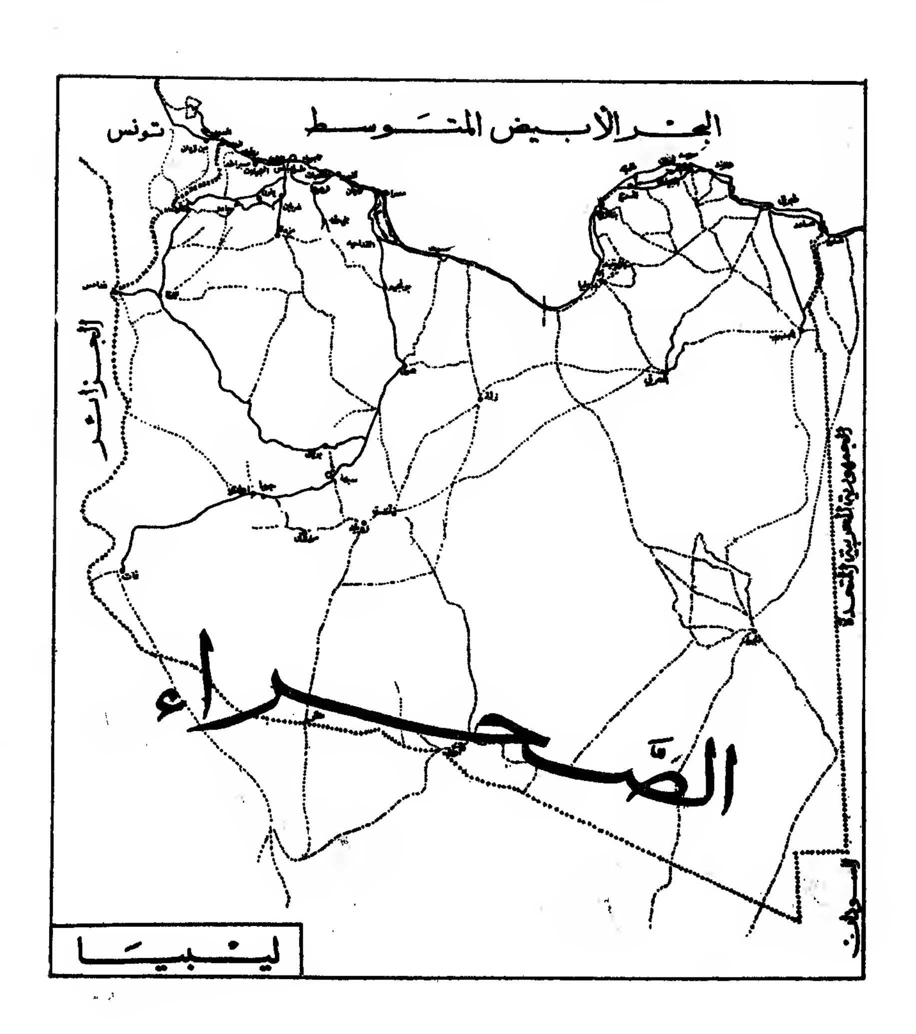
(١) البلاذري (٢٤٧) .

(٢) ابن خلدون (١٢٩/٢ الملحق) .

(٣) ابن الاثير (٣٤/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢ الملحق) .

(٤) الطبري (١٧٣/٤) وابن الأثير (١٨١/٣) .

(٥) البيان المغرب (١٣/١) وابن الأثير (١٨١٠٣) .



البحر الأبيض المتوسط
تونس
الجزائر
الجمهورية العربية المتحدة
السودان
الصحراء
ليبيا

٣ ـ من ليبيا الى القيروان :

أ. الفتح :

بقي عقبة في (برقة) بعد عثمان بن عفان وفي أيام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وفي سنة إحدى وأربعين الهجرية ، استعمل عمرو ابن العاص عقبة على (إفريقية)[١] ، فانتهى الى (لُواتَه)[٢] ، وكانوا قد صولحوا فكانوا على صلحهم حتى نقضوا زمن معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبة فتنحوا ناحية (أطْرابُلُس) ، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم وقال : « إنه ليس لمشرك عهد عندنا . إن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه : (كيف يكون للمشركين عهد ؟)، ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذامتي ، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم[٣] » . وعقد عمرو لعقبة على (هَوّارَة)[٤] فأطاعوا هم و (لواته) ثم كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبى[٥] . وفي سنة

---

(١) كانت مصر وإفريقية ولاية واحدة في أيام ولاية عمرو بن العاص أيام معاوية بن أبي سفيان .

(٢) لواته : من أشهر قبائل البربر ، كانت زمن الفتح العربي الإسلامي تسكن برقة ، وهي من أكبر بطون البربر البتر ، ينسبون الى (لو) الأصغر بن (لو) الأكبر ، و (لو) الأصغرهو (نفزاو) ، والبربر إذا أرادوا الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا : « لوات » ، فلما عربته العرب حملوه على الافراد ، وألحقوا به الهاء . انظر كتاب : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ – ١٢) ، وانظر الولاة والقضاة (٣٢) . وفي جمهرة أنساب العرب (٤٩٨) ، وردت : (لواته) بفتح اللام . وأن (لواته) من القبط ، ولا صحة لذلك بل هم من البربر .

(٣) الولاة والقضاة (٣٢) .

(٤) هوارة : وردت في ابن الأثير (٣/١٦٧) : (مَزّاتة) ، وفي ابن خلدون (٣/١٠) : (مرانة) ، ووردت في : الولاة والقضاة (٣٢) وفي تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٦) : (هوارة) ، وهي أشهر قبائل البربر ، وهي بطن من (البرانس) تنسب الى (هوار بن أوريغ بن برنس) جد البرانس. ومن بطون هوارة : غريان وورقل وسراته وسلاته ومجريس. وسلاته وغريان ومجريس أبناء هوار . وكانت مواطنهم زمن الفتح حول طرابلس الى ما يقارب سرت والى قصر ميمون من ناحية الجنوب . وكانت هوارة ظواعن وأهلين ، ومنهم من رحل الى بلاد السودان ، وما زالوا يقال لهم : (هكار) قلبت العجمة واوها كافاً أعجمية . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ – ١٢) .

(٥) في الولاة القضاة (٣٣) : أن ذلك جرى سنة ثلاث وأربعين الهجرية .

اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة (غَدامِس) وقتل وسى . وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية افتتح كوراً من كور السودان[1] . وافتتح (ودّان)[2] ثانية وهي من (برقة) وذلك سنة ست وأربعين الهجرية[3] ، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتّى نزل بـ (مغداش)[4] من (سُرْت)[5] ، وكانت (ودّان) نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بُسر بن أبي أرطاة سنة ثلاث وعشرين الهجرية ، فترك عقبة جيشه بـ (مغداش) في أرض (سُرْت) ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ، وسار إليها في أربعمائة فارس وأربعمائة جمل وثمانمائة قربة ماء: على كل جمل قربتان لحمل الماء ، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتّى أخضع البلاد بلداً بلداً ، وقبض على ملكهم فجدع أذنه ،

---

(١) ابن الأثير (١٩٧/٣) وابن خلدون (١٠/٣) والعبر (٥١/١) وشذرات الذهب (٥٣/١) .

(٢) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ، ويتبعها : زلة وهون وسوكنة وما جاورها ، ويطلق على الكل : بلاد ودان ، وكانت ودان زمن الفتح الاسلامي هي العاصمة ، وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٧٦٩) كلم ، والى جنوبي سرت بنحو (٢٨٠) كلم ، انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧) ، وانظر معجم البلدان (٤٠٥/٨) والمشترك وضعاً (٤٣٥) .

(٣) معجم البلدان (٤٠٥/٨) .

(٤) مغداش : بلد قريب من (سرت) في طرابلس الغرب بليبيا . انظر هامش : فتوح مصر والمغرب (٢٦٢) .

(٥) سرت : مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن ، وهذا الخليج يمتد من مدينة مصراته ، الى الجنوب حتّى بويرات الحسون ، ثم يتجه شرقاً الى العقيلة على مسافة (٥٨٥) كلم ، من مصراته ، ثم يتقوّس الى الشمال حتّى مدينة بنغازي مسافة (٢٨٥) كلم ، ومدينة بنغازي ، في الشرق تقابلها مدينة مصراته في الغرب ، ويقع خليج سرت جنوبي الخط الوهمي الذي يصل بين المدينتين .

وسرت تبعد عن البحر الى الجنوب بنحو أربعة كيلومترات ، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٥٥٤) كلم ، وكانت محاطة بسور من التراب ، وهي غير سرت المعروفة الآن ، لأن سرت الحديثة انشئت في العهد العثماني سنة ١٣٠٣ هـ . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٦) وانظر معجم البلدان (٦٢/٥).

فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » ، فقال عقبة : « فعلت هذا بك أدباً لك . إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب ! » ، واستخرج منهم ما كان بُسر بن أبي أرطاة فرضه عليهم سنة ثلاث وعشرين الهجرية : ثلاثمائة رأس وستين رأساً من العبيد .

ولما استتبّ الأمر لعقبة في بلاد (ودّان) ، سأل عقبة أهلها : « هل من ورائكم من أحد ؟ » ، فقيل له : (جَرْمَة)[1] ، فسار إليها ثماني ليال من (ودّان) ، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام ، فأجابوا ؛ فنزل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغبَ[2] ، وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم ، فقال له : «لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟! » ، فقال عقبة : « أدباً لك ! إذا ذكرته لم تحارب العرب » ؛ وفرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً .

ومضى عقبة من فوره لإنجاز فتح بلاد (فزّان) حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام في ربوعها ، وهذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزّان فاتحين[3] .

وسأل عقبة أهل (فزّان) : « هل من ورائكم أحد ؟ » ، فقالوا : « أهل (خاوَر)[4] ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر

---

(١) جرمة : اسم قصبة بناحية فزان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٩/٣) وهي عاصمة بلاد فزان في أيام الفتح الاسلامي . وسميت جرمة باسم أمة : الجرمنت ، وهي أمة قديمة كانت تسكن فزان . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩) .

(٢) اللغوب : التعب والاعياء .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٢ – ٢٦٣) وانظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩) .

(٤) خاور : أكبر مدينة في كورة كاوار ، وهي قصبة كاوار . وتقع في جنوبي فزان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٤/٣) .

جبل ، وهو قصبة (كاوّار)[1] » ؛ فسار اليه خمس عشرة ليلة ، فلما وصل اليه دعا أهله الى الإسلام فأبوا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم ، فحاربهم وأقام على حصارهم شهراً دون جدوى . وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد (كاوّار) ، ففتحها حتّى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » ، فقال عقبة : « أدباً لك ! إذا أنت نظرت الى إصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً[2] .

وكان في نيّة عقبة أن يمضي قدماً في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل (كاوار) : « هل من ورائكم أحد ؟ » ، فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » ؛ فانصرف عقبة راجعاً ، فمرّ بقصر (خاور) ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم ؛ ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم . وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم (ماء فَرَس) ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتّى كشف عن صفاة ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرس يمصّ ذلك الماء . وأبصره عقبة فنادى في الناس : « أن احتفروا » ، فحفروا سبعين حِسْياً[3] وشربوا واستقوا ، فسمي ذلك المكان لذلك : (ماء فَرَس) .

ورجع عقبة الى (خاور) من غير طريقه التي كان أقبل منها ، فلم يشعروا به حتّى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم ؛ فاستباح ما في المدينة من ذريّاتهم وأموالهم ، وقتل مقاتلتهم .

لقد كانت عودة عقبة المفاجئة بجيشه الى (خاور) حركة بارعة جداً ،

---

(١) كاوار : ناحية واسعة في جنوبي فزان بها مدن كثيرة ومياه جارية ونخل كثير . انظر معجم البلدان (٧/٢١٠) .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٣) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩ – ٧٠) .

(٣) الحسي : الحفرة القريبة العمق .

طبّق بها عقبة مبدأ (المباغتة) بالزمان ، فأطبق على (خاور) في وقت لم يتوقعه أهلها .

وانصرف عقبة بعد فتح (خاور) حتى نزل بموضع (زويلة) اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمّت خيولهم وظهورهم .

لقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة ، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلّة المياه فيها ، ولأنه قدّر أنه لن يصادف في تغلغله قوات ضاربة كبيرة للعدو ، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان ، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفّر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى ، فليس أمام عقبة غير قوات سكّان الصحراء الاصليين ، وهؤلاء قليلون يمكن التغلّب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة ...

ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة ، وفعلاً أنجز واجبه وحقّق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر .

وسار عقبة بجيشه الى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم[1] وأخذ الى أرض (هوارة)[2] ، فافتتح كلّ قصر بها[3] . ومضى الى (صفر)[4] ، فافتتح قلاعها وقصورها . ثم بعث خيلاً الى (غدامس) فاستعاد فتحها

---

(١) يقصد بالطريق الاعظم : الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسة . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧١) .

(٢) هوارة : وردت في فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) : مزاته ، والصحيح ما ذكرناه ، وهوارة قبيلة بربرية .

(٣) من تلك القصور ، قصر ميمون من ناحية الجنوب : جنوبي طرابلس الغرب – سرت .

(٤) صفر : وردت كذا في فتوح مصر والمغرب (٢٦٤)، واسمها الحالي : صفرو ، وهي مدينة في شمال المغرب ، في قلب جبال أطلس الوسطى .

ثانية ، والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول ، فاضطر عقبة الى فتحها ثانية . وتوجّه الى (قَفْصَة)[1] فافتتحها ، ثم افتتح (قَسْطِيْلِيَة)[2] ثم انصرف الى (القَيْرَوان)[3] .

لقد طهّر عقبة بهذا الفتح كلّ المقاومات المعادية بين (برقـة) و (القيروان) ، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين ، حَرِيَّة أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوّات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي .

ب . القاعدة الأمينة (القيروان) :

وصل عقبة الى (القيروان) الذي كان في مدينة (قَمُوْنِيَة)[4] والذي كان معاوية بن حُدَيج قد بناه من قبل ، فلم يعجب به [5] ، فقد كان مكان (القيروان) وهو ناحية في الوسط الشرقي لإفريقية ليست ضاربة في الشمال فتكون جبلية ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية ، وكان (القيروان) منه بجانب سبخة . لقد كان العرب منذ أيام عبدالله بن سعد بن أبي سرح يؤثرون (قمونية) لنزولهم ، لأنها بسيط من الأرض ، كثير

---

(١) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير في عهد الرومان. انظر فتوح مصر والمغرب (٢٦٤)، وهي بلدة صغيرة في طرف إفريقية (تونس) من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٣٨) .

(٢) قسطيلية : إحدى بلاد الزاب الكبير بالمغرب ، تقع في أقصى بلاد المغرب على حدود الصحراء. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٨٨) وفتوح مصر والمغرب (٢٦٤) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) .

(٤) قمونية : مدينة بافريقية كانت موضع القيروان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٦٢) والقيروان معرب : كاراوان الفارسية ، وتكلمت به العرب قديماً ، والنسبة اليه : قيرواني وقيروي ، ويطلق على القافلة وعلى الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب ، ويظهر أنه أطلق على المكان لنزول الجيش فيه أو القافلة . انظر كتاب : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧١) .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) وأسد الغابة (٣/٤٢٠ – ٤٢١) والاستيعاب (٣/١٠٧٦) .

المراعي ، جيد الهواء ، خصب التربة ، كثير المياه[1] ، ولكن مكان (قمونية) ليس صالحاً – من الناحية العسكرية – ليكون قاعدة أمينة لقوّات المسلمين ، لأن بعض غير المسلمين يسكنون (قمونية) مع المسلمين ، وقد يكون بعض هؤلاء رتلاً خامساً[2] على المسلمين ، وما أخطر ذلك على المسلمين وهم في جهاد دائب لفتح إفريقية ونشر الإسلام في ربوعها .

والقيروان معناه : مدينة أو معسكر أو مسلحة[3] ، ولفظ قيروان فارسي معرّب أصله : كروان أو كربان ، ومعناه قافلة ، أو مراح القوافل ، ويفهم من لسن العرب أنه كان مستعملاً حتّى في الجاهلية بهذا المعنى ، إذ روى أن امرىء القيس قال في وصف غارة له :

وغـــارة ذات قيروان كأن أسرابهـــا الرعال[4]

ومن معاني القيروان : معظم العسكر ، والقافلة من الجماعة ، وموضع اجتماع الناس والجيش ، ومحط أثقال الجيش ، وقيل : هي الجيش نفسه .

وليس هناك ما يؤيد القول : بأن القيروان ، كان علماً على مدينة قديمة بإفريقية ، اختطت القيروان مكانها ، فلم يبق إلا القول بأن عقبة وأصحابه أرادوا به محطاً لقوافلهم ومراحاً لعسكرهم[5] .

قال عقبة لرجاله : « إن إفريقية إذا دخلها إمامٌ أجابوه للإسلام ، فاذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر ؛ فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام الى آخر الدهر » ، فاتّفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتمّ لهم الجهاد والرباط . وقال لعقبة بعض أصحابه : « قرِّبها من البحر ليكون

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٨) .

(٢) الرتل الخامس : ما يطلق عليه في مصر : الطابور الخامس ، وهم من المخربين والجواسيس .

(٣) المسلحة : جمعها ، مسالح . والمسلّحة هم الجماعة المسلحون المعدون للقتال .

(٤) معجم البلدان (٧/١٩٣) .

(٥) فتح العرب للمغرب (١٠٣ – ١٠٤) وانظر معالم الإيمان (١/٧) .

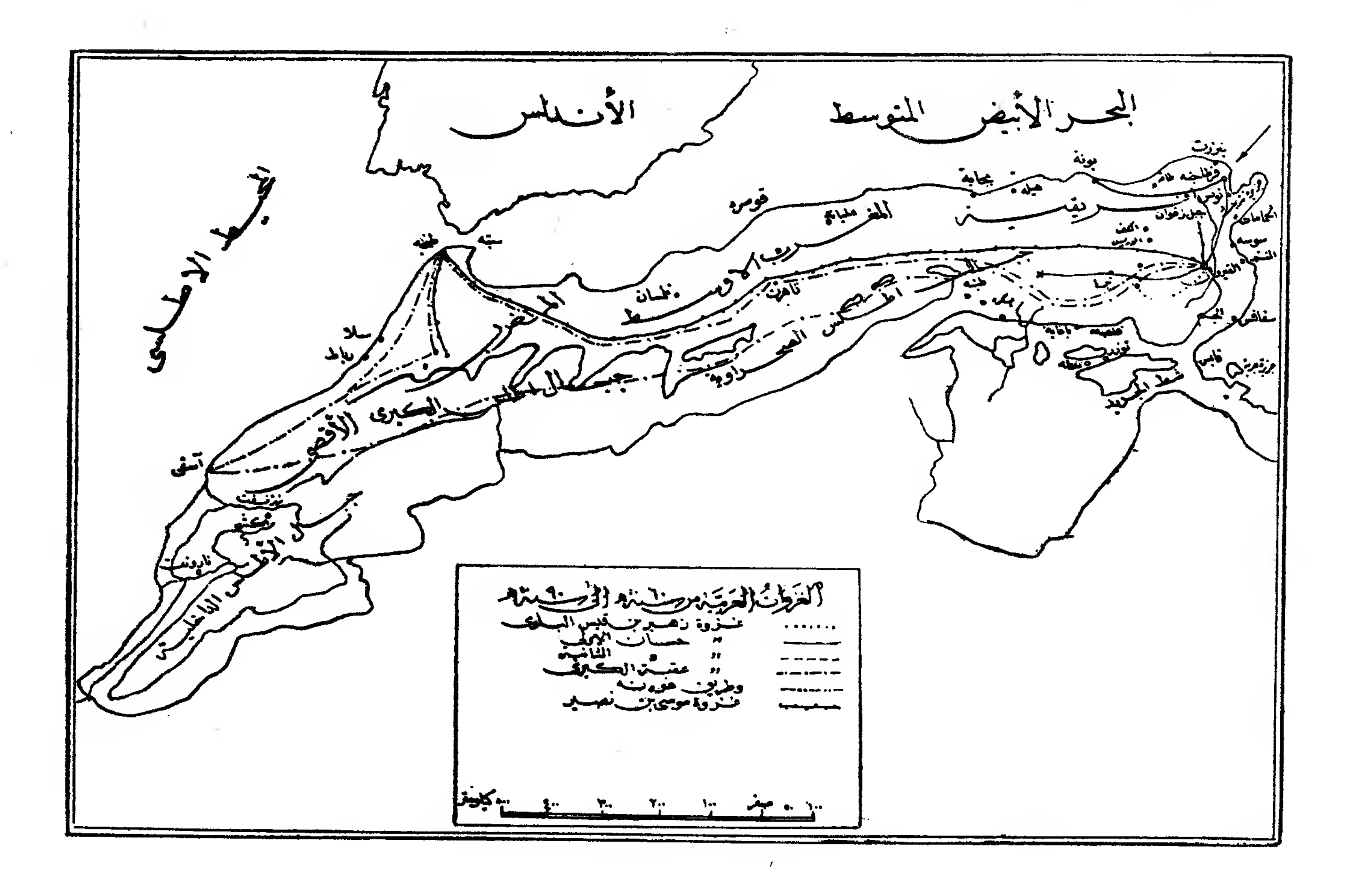
أهلها مرابطين » ، فقال لهم : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر ، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجّة حتى يستره الليل ، فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل ، فيخرج ، فيقيم في غارته الى نصف النهار ، فلا تدركها منه غارة أبداً . فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير[1] ، فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم ، وهم عسكر معقود الى آخر الدهر ، وميّتهم في الجنة » ؛ فاتفق رأيهم على ذلك فقال : « قرّبوها من السبخة » ، فقالوا : « نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرّها في الصيف » ، فقال : « لا بدّ لي من ذلك ، لأن أكثر دوابكم الإبل ، وهي التي تحمل عسكرنا ، والبربر قد تنصّروا وأجابوا النصارى الى دينهم ، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بدّ من المغازي والجهاد ، ونفتح الأول منها فالأول ، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى ، فركب الى موضع (القيروان) اليوم وكان غيضة كثير الأشجار مأوى الوحوش والحيّات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه[2] .

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس ، وانضاف اليه من أسلم من البربر ،

---

(١) تقصير الصلاة .

(٢) انظر رياض النفوس (١/٦ – ٧) والبيان المغرب (١/١٣ – ١٤)، وفيهما : أن رجاله قالوا له : « إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض » ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه. ومضى الى السبخة وواديها ونادى : « أيتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » . ونظر الناس بعد ذلك الى أمر معجب ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها ، ونادى في الناس : « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » . فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام ، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر . وانظر آثار البلاد (٢٤٢) وابن الاثير (٣/١٨٤) وأسد الغابة (٣/٤٢٠ – ٤٢١) .



البحر الأبيض المتوسط
الأندلس
المحيط الأطلسي
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
إفريقية
جبال أطلس الصحراوية
جبال الأطلس الكبرى
سبتة
طنجة
سلا
آسفي
تاهرت
تلمسان
بجاية
بونة
قابس
القيروان
سوسة
بنزرت
شط الجريد
الغزوات العربية من سنة ٦٠ هـ إلى سنة ٩٠ هـ
غزوة زهير بن قيس البلوي
" حسان الأولى
" الثانية
" عقبة الكبرى
وطريق عودته
غزوة موسى بن نصير
١٠٠ ٥٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ كيلومتر

فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية ، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية ، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، فأصبحت المدينة عسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة (القيروان) وأمنوا واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها . وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتّسعت خطّة المسلمين ورسخ الـــدين[1] ، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب[2] ، وأصبحت القيروان القاعـــدة الأمينة للمسلمين في شمـــال إفريقية .

٤ . من القيروان الى المحيط :

في سنة خمس وخمسين الهجرية استعمل معاوية بن أبي سفيان مَسْلَمة ابن مخلد الأنصاري الخزرجي على مصر وإفريقية وعزل عقبة عن إفريقية[3] ، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له : أبو المهاجر دينار ، فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخفّ به[4] وسجنه وأوقره حديداً[5] فأقام في الحبس شهوراً ثم أطلقه[6] حين أتاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[7] .

---

(١) ابن الاثير (١٨٤/٣) وانظر ابن خلدون (١٠/٣). وفي البيان المغرب (١٦/١) : أن محيطها كان (١٣٦٠٠) ذراعاً .

(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢٨/٢) .

(٣) البيان المغرب (١٦/١) .

(٤) ابن الأثير (١٨٤/٣) .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥) .

(٦) اليعقوبي (٢٠٤/٢) .

(٧) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥ – ٢٦٦) .

وسار عقبة الى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر ، فاعتذر معاوية اليه ووعده أن يعيده الى عمله[1] ، وفي رواية : أنه توجّه الى الشام فلما قدم على معاوية وجده قد توفي[2] ، فردّه يزيد والياً على (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية[3] .

وسار عقبة الى (إفريقية) من الشام حتّى قدم على (القيروان) بعشرة آلاف فارس ، فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيّده وأخذ ما معه من الأموال ، وجدّد بناء (القيروان)، وشيدها ونقل اليها الناس، فعمرت وعظم شأنها[4] .

وخرج عقبة بأصحابه وبكثير من أهل (القيروان) الى المغرب بعد أن ترك في (القيروان) جنداً مع الذراري والأموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي[5] . وخرج بأبي المهاجر معه موثقاً ، فدعا بأولاده قبل مغادرته (القيروان) وقال لهم : « إني قد بعت نفسي من الله عزّ وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله »[6] ، ثم قال : « يا بني ! أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيّعوها : إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عزّ وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار وهمّ بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم

---

(١) ابن الأثير (٣/١٨٤) .
(٢) رياض النفوس (١/٢٢) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٧٤٩) .
(٤) رياض النفوس (١/٢٢) .
(٥) في رياض النفوس (١/٢٢) : أنه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي .
(٦) ابن الأثير (٤/٤٢) .

دين الله ويفرّقوا بينكم وبين الله تعالى ؛ ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا » .
ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » ،
ثم قال : « اللّهم تقبّل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك »[1] .

وسار عقبة في عسكر عظيم حتّى انتهى الى مدينة (بَاغَايَة) ، لا يدافعه أحد ، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً[2] فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وغنم منهم غنائم كثيرة . واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم[3] .

ورحل عقبة فنزل على (تِلِمْسَان)[4] وهي من أعظم مدائنهم ، فانضم اليها من حولها من الروم والبربر ، فخرجوا اليه في جيش ضخم لجب . والتحم القتال ووقع الصبر ، حتّى ظن المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجأوهم الى حصونهم ، فقاتلوهم الى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة .[5]

وسار عقبة الى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقيل له (أَرَبَة)[6] وهي دار ملكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية

---

(١) رياض النفوس (٢٢/١) .

(٢) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٣) ابن الأثير (٤٢/٤) .

(٤) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم أقادير ، على بعد مرحلة من وهران. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٠٩/٢) .

(٥) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٦) أربة : أسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب ، وهي أكبر مدينة بالزاب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٦/١) وقد وردت في رياض النفوس (٢٣/١) : أدنة تصحيفاً .

كلها عامرة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم الى الجبال ، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى ، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم[1] .

ورحل عقبة الى (تَاهَرْت)[2] ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : «أيها الناس ! إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة . وأنتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم ربّ العالمين ، وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ؛ ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا ! فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عزّ وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة ، فان الله عزّ وجل جعلكم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين » . والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً[3] ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ، ولكنهم انتصروا أخيراً ، فانهزمت الروم والبربر ، وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم[4] .

وسار عقبة حتى نزل على (طَنْجَة) ، فلقيه بطريق من الروم[5] اسمه

---

(١) ابن الأثير (٤٢/٤) وانظر رياض النفوس (٢٣/١) .

(٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب ، يقال لأحدهما : تاهرت القديمة ، وللأخرى : تاهرت المحدثة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٤/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٦٩) .

(٣) رياض النفوس (٢٣/١ – ٢٤) .

(٤) ابن الأثير (٤٢/٤) .

(٥) في تاريخ المغرب الكبير (٤٤/٢) : إنه يليان النصاري ، ملك غمارة ، وهو بربري . =

(يليان) فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه[1] . وأراد عقبة فتح الأندلس ، فقال له يليان : « أتترك كفّار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بينك وبين المدد ؟! » ، فقال عقبة : « وأين كفّار البربر ؟ » ، فقال : « في بلاد السوس ، وهم أهل نجدة وبأس » . فقال عقبة : « وما دينهم ؟ » ، فقال : « ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق ، وإنما هم كالبهائم » ، وكانوا على دين المجوسية يومئذ ؛ فتوجّه عقبة ، فنزل على مدينة (وَلِيلْى)[2] بازاء جبل (زَرْهُون)[3] وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين (سَبُو) [4] و (ورغة)[5] ، وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة : (قصر فرعون) ، فافتتحها عقبة وغنم وسبى[6] .

وانتهى عقبة الى (السوس الأدنى) وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً ، وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه ؛ ثم سار حتّى وصل الى (السوس الأقصى) ، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم . وسار عقبة حتّى بلغ (مَالَيَان)[7] ، ورأى البحر المحيط ، فقال : « يا رب ! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك »[8] ، ثم قال : « اللّهم اشهد . إني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى

= وفي فتح العرب المغرب (١٩٢) : إنه قوطي من اسبانيا كما يؤكد مؤرخو الاندلس .

(١) ابن الأثير (٤٢/٣) .

(٢) وليلى : مدينة بالمغرب قرب طنجة . انظر معجم البلدان (٤٣٤/٨) .

(٣) زرهون : جبل بقرب فاس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٨،٤) .

(٤) سبو : نهر بالمغرب قرب طنجة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢/٥) .

(٥) ورغة : نهر بالمغرب ، ولم أعثر على ذكره في معجم البلدان .

(٦) الاستقصا (٧٣/١) .

(٧) ماليان : بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط . انظر معجم البلدان (٣٦٧/٧) .

(٨) ابن الأ (٤٢/٣ - ٤٣) .

لا يعبد أحد من دونك »[1]

٥ . الشهيد :

رجع عقبة إلى (القيروان) ، فلما انتهى الى ثغر (إفريقية) وهي (طُبْنَةَ)[2] أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا (القيروان) فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه ![3] .

ومال عقبة بخيل يسيرة يريد (تُهُوَذَة)[4] ، وكان معه حوالي ثلاثمائة فارساً[5] ، فلما رآه الروم في قلّة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه[6] .

وبعث الروم الى (كَسِيْلَة)[7] الذي كان في عسكر عقبة مضمراً للغدر ، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد

---

(١) رياض النفوس (١/٢٥) وانظر ما جاء من ذلك مختصراً في العرب والاسلام (١٤٠).

(٢) طبنة : بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٨) .

(٣) ابن الاثير (٤/٤٣) ورياض النفوس (١/٢٥) .

(٤) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية افريقية ، لهم أرض تعرف بهم ، انظر معجم البلدان (٢/٤٣٨) وهي مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها بمسافة ٣٧و٥ ميل . انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٦) .

(٥) الخلاصة النقية (٥) والاستقصا (١/٧٤) .

(٦) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٧) كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي : كان أميراً على البرانس كلهم ، وكان نصرانياً جمع الجموع ن البربر والفرنج وزحف نحو المسلمين فهزمه أبو المهاجر وأسره فأسلم كسيلة على يدي أبي المهاجر ، كانت قيادة أوربة لكسيلة منذ سنة (٥١ هـ). وقد حسن إسلام كسيلة فاستصفاه أبو المهاجر واتصلت بنهما صداقة موصولة الأسباب . وكسيلة هذا هو الذي قتل عقبة بن نافع سنة ثلاث وستين الهجرية ، صفا له الجو وخضع له المغرب من أقصاه الى أقصاه واحتل القيروان وطرد جميع العرب من بلاد المغرب ، وخضع له الروم الذين كانوا في المغرب أيضاً ، وكون في المغرب دولة مغربية ظلت أكثر من خمس سنوات ، وقد قتله زهير بن قيس البلوي سنة تسع وستين الهجرية . انظر ابن الأثير (٤/ ٤٣ - ٤٤) وتاريخ المغرب (١/٦٤) والاستقصا (١/٨١) والبرانس من قبائل البربر ، وأوربة بن من بطون البرانس .

عقبة، فقال أبو المهاجر : «عاجله قبل أن يقوى جمعه»، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على (كسيلة)، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثّل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني تُصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له : «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة»، فلم يفعل وقال : «وأنا أيضاً أريد الشهادة». وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدّموا الى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم[1] ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ (تهوذة)[2].

الإنسان :

استشهد عقبة سنة ثلاث وستين الهجرية[3] (٦٨٣ م) في معركة (تهوذة)، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (٦٢١ م)، وقبره يزار بالزاب[4]، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم اسنمة ثم جصّصت، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات[5].

كان صحابياً بالولادة، وكان إدارياً حازماً : اختطّ القيروان سنة

---

(١) ابن الاثير (٤/٤٣).
(٢) الاستقصا (١/٧٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩) والبداية والنهاية (٨/٢١٧) وابن الاثير (٤/٤٢) والإصابة (٥/٨١).
(٤) الخلاصة النقية (٥).
(٥) (الاستقصا (١/٧٤).

خمسين الهجرية ، والقيروان اليوم حيث اختطها عقبة [١] ، كما اختطّ المسجد الأعظم وكان يصلي فيه[٢] ، فكانت هذه المدينة منذ اختطاطها إسلامية بحتة لا يسكنها غيرهم كما قال عقبة : « ... ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم (غير المسلمين) رأياً ، ولكن رأيت أن أبني ههنا مدينة يسكنها المسلمون[٣] » ، كما أصبحت القيروان مقراً لعسكر المسلمين [٤] .

فقد كان عقبة على جانب عظيم من الورع والتقوى ، وكان مجاب الدعوة[٥] ، ولا نعلم أنه شارك في الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان بلسانه أو بسيفه ، بل كان حينذاك حامية في ثغور المسلمين في منطقة (برقة) . كما لا نعرف أنه أثرى من الفتح أو شغل نفسه بالغنائم والبناء ، بل إنه كرّس حياته كلّها للجهاد ، وكان يوصي ولده بقوله : « لا تقبلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من ثقة وإن لبستم العباء ، ولا تكتبوا ما يشغلكم عن القرآن »[٦] .

وكان له عقب ، وولده بمصر والشام وإفريقية[٧] ، وكان ذا شجاعة وحزم وديانة[٨] .

لقد كان مثالاً حياً للسلف الصالح من العرب المسلمين خلقاً وورعاً وشجاعة وحزماً ، وقد نشر الإسلام في مناطق واسعة من شمال إفريقية وخاصة بين قبائل البربر ذات الشجاعة والرجولة والإقدام ، الذين كانوا

---

(١) الاستيعاب (١٠٧٦/٣) .
(٢) رياض النفوس (٧/١) .
(٣) آثار البلاد (٢٤٢) .
(٤) أبو الفدا (١٨٧/١) .
(٥) الاستيعاب (١٠٧٧/٣) وأسد الغابة (٤٢١/٣) وسير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .
(٦) الإصابة (٨١/٥ – ٨٢) .
(٧) الإصابة (٨١/٥) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .

نصارى ، وفشا الإسلام الى أن اتّصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط . [1]

القائد :

١ — كان عقبة من أولئك الرجال الذين ابتلوا بإفراط المعجبين به قائداً إنساناً ، وتفريط الناقدين له قائداً .

أفرط المعجبون بقيادته — وخاصة من المؤلفين القدامى — فجعلوا منه القائد الأول والأخير في فتح (إفريقية) ، وأسبغوا على أعماله العسكرية طابع الخوارق والكرامات .

وأفرط المعجبون به إنساناً ، فجعلوا منه شخصية هي أقرب الى أولياء الله الصالحين منها الى الرجل المجاهد الصابر المحتسب الذي نذر نفسه لله ولعقيدته .

وكان من تفريط الناقدين به قائداً ، أنهم جعلوا منه قائداً فاشلاً : لا هدف له من حملته الكبرى ولا خطّة له في إدارة الحرب ، وحتى لم يعمل على نشر الإسلام حسب خطّة مرسومة وغاية واضحة [2] .

فما هي حقيقة قيادة عقبة بعيداً عن الإفراط والتفريط واستناداً على الحقائق التاريخية العسكرية البحتة دون تحيّز ومحاباة ولا تجنّي وتحامل ؟؟

٢ — كان عمرو بن العاص أول من اكتشف مزايا عقبة العسكرية ، فولاّه بموافقة عمر بن الخطاب وفي أيام خلافته قيادة جيش من جيوش المسلمين .

ولست أشك أن توليته مثل هذا المنصب لم يكن لأنه كان قريب القرابة لعمرو بن العاص ، إذ أن عمراً كان له أقرباء كثيرون ، فلماذا يؤثر عقبة بالقيادة على غيره من ذوي قرباه ؟! وقد يتساهل من يؤثر أقرباءه على غيرهم من

---

(١) جمل فتوح الاسلام لابن حزم — ملحق بجوامع السيرة (٣٤٤) .

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٠٢ — ٢٠٣) ، وآمل أن يعيد المؤلف الفاضل النظر فيما كتبه عن عقبة في الطبعات الجديدة لهذا الكتاب القيم .

الناس في إعطائهم المناصب الإدارية التي تؤمّن لهم الراحة والسلطة والمال ، أما أن يؤثرهم بالمناصب القيادية على غيرهم ، فأمر فيه نظر ، إذ أن مثل هذه المناصب تقود أصحابها الى حتوفهم وتقود رجالهم الى المهالك ، وتودي بسمعه من ولاّهم القيادة الى الحضيض !... فليس بالمتوقع من مثل عمرو ابن العاص — وهو من هو دهاءً وبعد نظر — أن يولي مناصب القيادة أحد أقربائه لأنه قريبه فقط دون أن يكون قديراً على قيادة الرجال ممارساً لإدارة القتال . وإذا جاز أن يجري مثل ذلك في أيام غير أيام عمر بن الخطاب ، فمن المستحيل أن يجري مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب[1] .

لقد تولى عقبة منصب القيادة بعد أن بذل جهوداً مشرفة في فتح مصر ، وبعد أن لمس عمرو بن العاص بنفسه تلك الجهود ، لذلك لم يستطع أمراء مصر بعد عمرو أن يعزلوا عقبة عن منصبه القيادي وبقي قائداً حتى سنة خمس وخمسين الهجرية في أيام مسلمة بن مخلد ، ولم يكن عزله حينذاك لعجزه ، وإنما كان لأسباب أخرى سترد وشيكاً .

ولم يخيّب عقبة ظنّ عمرو بن العاص به ، فنجح في فتح (زويلة) وأمّن الحدود الغربية لمصر وصار ما بين (زويلة) و (برقة) سلماً للمسلمين ، وذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية . كما أن عمرو بن العاص بعثه في ذلك العام الى (النوبة) ، فكان أول من مهّد لفتح النوبة من المسلمين وأمّن الحدود الجنوبية لمصر .

وقد تسنّم عقبة منصب قيادة حامية (برقة) لحماية الحدود الغربية لمصر ، فحمى تلك الحدود في أيام عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب وأوائل عهد عثمان بن عفان ، فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة خمس وعشرين الهجرية أقرّ عقبة على منصبه وكان من أبرز قادته الذين عاونوه في فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان.

---

(١) انظر الشروط التي كان يلاحظها عمر بن الخطاب في تولية القادة في كتاب : (الفاروق القائد) (٤٣ — ٤٨) الطبعة الثانية .

وبقي عقبة في أيام علي بن أبي طالب على حامية (برقة) فلم يعزله عنها قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري، الذي تولى مصر سنة سبع وثلاثين الهجرية لعلى بن أبي طالب[1] ، ولم يعزله عنها محمد بن أبي بكر الصديق الذي تولى مصر سنة سبع وثلاثين الهجرية لعلي بن أبي طالب أيضاً[2] .

وأصبح عقبة على (إفريقية) منذ سنة إحدى وأربعين الهجريّة حين استعمله عمرو بن العاص في أيام ولايته الثانية على مصر ، وبقي عليها في أيام عبد الله بن عمرو بن العاص وفي أيام عتبة بن أبي سفيان الذي تولى مصر سنة ثلاث وأربعين الهجرية [3] وفي أيام عقبة بن عامر الجهني .

وفي أيام معاوية بن حديج السّكوني الذي تولى مصر سنة سبع وأربعين الهجرية[4] أقر ابن حديج عقبة على قتال إفريقية ، وهو الذي بعثه سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية[5] .

وبعد عزل ابن حديج عن إفريقية سنة خمسين الهجرية ، أقرّ معاوية ابن ابي سفيان عقبة عليها ووجّهه لفتحها[6] .

هكذا بقي عقبة قائداً في إفريقية طيلة أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وشطراً من أيام معاوية بن أبي سفيان ، وعمل بإمرة عدد كبير من أمراء مصر طيلة عهود هؤلاء الخلفاء الأربعة ، اي منذ سنة إحدى وعشرين الهجرية الى سنة خمس وخمسين الهجرية ، فلم ينزعه عن قيادته خليفة ولا أمير ، وهذا دليل واضح على ما كان يتمتّع به من كفاية وكياسة ومقدرة ، لأنهم جميعاً كانوا بحاجة ماسة الى خبرته الطويلة المفيدة

---

(١) الولاة والقضاة (٢٠) .
(٢) للولاة والقضاة (٢٧) .
(٣) الولاة والقضاة (٣٥) .
(٤) ابن الأثير (٣/١٨) والبيان المغرب (١/٤٧) .
(٥) البلاذري (٢٣٧) .
(٦) البيان المغرب (١/١٩) .

في شؤون إفريقية ، ولأنه كان جندياً فحسب متفرغاً للجهاد بعيداً عن التيّارات السياسية .

لقد أصبح عقبة على مرّ الأيام خبيراً بقتال إفريقية ، وكان سيفه دائماً للعرب المسلمين ... لا عليهم ...

٣ ـ فما هي حصيلة أعماله في هذه الفترة من تولّيه منصب القيادة في إفريقية ؟

فتح (زويلة)، ومهّد لفتح (النوبة) ، وأمّن الحدود الغربية والجنوبية لمصر قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في إفريقية ، وعاون ابن أبي سرح وابن حديج في فتح إفريقية ، وحمى (برقة) القاعدة الأمامية للفتح في إفريقية من الروم ومن البربر حتى في أيام الفتنة الكبرى والحروب الداخلية بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان ، وغزا البحر مرتين ، وافتتح (غدامس) وكوراً من كور السودان ، واستعاد (ودّان) ، وفتح (فزّان) حتى أتى على آخرها ، وفتح بلاد (كاوار) حتى أتى على آخرها أيضاً ، وفتح قصر (خاور) مطبقاً مبدأ (المباغتة) على أحسن وجه .

لقد كان عقبة في هذه الفترة من قيادته أوّل من فتح (زويلة) وأول من مهّد لفتح (النوبة) وأول من أدخل العرب فاتحين الى (فزان) ، وأول من نشر الإسلام في ربوع ليبيا ، وأول من تغلغل فاتحاً في الصحراء الليبية .

وأخيراً توّج أعماله ببناء (القيروان) القاعدة الأمينة المتقدّمة للمسلمين ، حتى إذا أنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية ، واستعدّ لاستئناف الفتح مستنداً على تلك القاعدة الأمينة ، جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، إذ عزل عقبة عن (إفريقية) في الوقت الذي تهيّأت له كل الأسباب والإستعدادات لفتح المغرب الأوسط والأقصى ، فلم يدرك مناه ولم ينفذ كل خططه في الفتح .

تلك هي مجمل حصيلة أعماله في ميادين الحرب والدعوة في فترة ولايته الأولى ، فهل هناك من يستطيع غمزه بالتقصير أو اتهامه بأنه تولى القيادة لأنه من أقرباء عمرو بن العاص فحسب ؟؟

واذا لم تكن هذه المفاخر ــ بل بعضها ، كافية لتقدير قيادة عقبة ، فماذا بإمكان أي قائد أن يفعل ليستحوذ على التقدير والإعجاب ؟؟

لقد كانت نتائج أعمال عقبة في هذه الفترة مدعاة للفخر والإعتزاز ، وهي من الناحية العسكرية الفنية تستحق كلّ التقدير والإكبار .

٤ ــ فلماذا عُزِل عن (إفريقية) بعد كل هذه الجهود وهذا الجهاد ؟

في سنة خمس وخمسين الهجرية استعمل معاوية بن أبي سفيان مَسْلَمَة بن مُخلّد الأنصاري على مصر وإفريقية ، فعزل مسلمة عقبة عن إفريقية واستعمل مولى له يقال له : أبو المهاجر دينار .

ولم يعزل معاوية أو مسلمة عقبة عن إفريقية لريبة أو تقصير ، ولكن معاوية أراد أن يكافىء مسلمة الذي كان من أبرز أعوانه على إخلاصه له ، فولاّه مصر مكافأة له ووفاء بحقه عليه .

فقد كان مسلمة عثمانياً في أيام عثمان ، ولم يتزعزع أبداً عن إخلاصه لعثمان ، حتى بعد قتله : فقد أرسل مسلمة هو وصحبه في أيام عثمان من يخبره بشغب محمد بن أبي حُذيفة عليه[1] ، وكان مع الخارجين على أمير مصر لعلي بن أبي طالب قيس بن سعد بن عبادة[2] ومحمد بن أبي بكر من بعده[3]. وقد شهد مع معاوية معركة (صفين) ، وكان من أكبر أعوان عمرو بن العاص في استعادة مصر من أميرها محمد بن أبي بكر وكان ممن شهد قتله[4]،

---

(١) الولاة والقضاة (١٥) .

(٢) الولاة والقضاة (٢١) .

(٣) الولاة والقضاة (٢٧) وانظر العبر (١/٤١) .

(٤) أسد الغابة (٤/٣٦٥) .

وكان من الذين وطّدوا أركان الدولة الأموية في مصر ، فلم يكن لمعاوية مناص من تولية مسلمة بعد أن ولى من قبله أمثاله من أعوانه المقربين اليه والمخلصين له كعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج .

أما مسلمة فقد ولىّ أبا المهاجر دينار مولاه على (إفريقية) ، لأنه كان من رجاله المقرّبين اليه الذين صمدوا الى جانبه في أيام الشدّة ، والذين كانوا من أكبر أعوانه في السلم والحرب ، ومن الطبيعي أن يعتمد كل أمير جديد على أقرب أعوانه في تسيير دفّة الحكم في البلاد التي يتولاّها. قيل لمسلمة : « لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً ! » ، فقال مسلمة: « إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل ، فنحن نحب أن نكافئه »[1].

لذلك لم يستطع معاوية ولا يزيد من بعده أن يعيد عقبة الى (إفريقية) على الرغم من خبرته الطويلة فيها ومعرفته الدقيقة لمسالكها ومداخلها ومخارجها وسكانها قبل أن يتوفى مسلمة سنة اثنتين وستين الهجرية[2].

لقد كان عزل عقبة عن إفريقية ليس كرهاً له بل محبّة بمسلمة وأبي المهاجر ومكافأة لهما على خدماتهما وإخلاصهما للحاكمين حينذاك .

٥ ــ بعد موت مسلمة بن مُخَلّد ، اضطر يزيد بن معاوية على إعادة عقبة الى (إفريقية) فاستعمله عليها سنة اثنتين وستين الهجرية[3] ، وقال يزيد : « أدركوها قبل أن يخرّبها »[4] ، ويريد بذلك : أدركوا (إفريقية) قبل أن يخرّبها أبو المهاجر . وعلى الرغم من أن أبا المهاجر أبلى بلاء حسناً في أعماله ، بل قام بأعمال مجيدة هناك كما سيرد تفصيله عند الحديث عنه ، ولكن ليس كل قائد يستطيع أن يملأ الفراغ الذي يملأه عقبة .

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) .
(٢) الولاة والقضاة (٤٠) والإصابة (٦/٩٨) والعبر (١/٦٦) وشذرات الذهب (١/٧٠) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٨٤ – ١٨٥) .
(٤) رياض النفوس (١/٢٢) .

وأكاد أتبيّن بوضوح ، أن الحاجة الملحّة الى عقبة هي التي جعلت يزيد يوليه (إفريقية) ، وإلاّ فلا نعرف أن عقبة شغل نفسه في التيارات السياسية التي سادت في أواخر أيام عثمان وفي أيام الفتنة الكبرى وفي عهد معاوية ، فليس له ذكر في الفتن الداخلية ولا في الحروب التي دارت رحاها بين المسلمين ولا في محاولة معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد ...

لقد كان عقبة جندياً فقط ، لا تستهويه السياسة من قريب ولا بعيد .

فما هي حصيلة أعماله في عهد ولايته الثانية على (إفريقية) التي امتدّت سنة واحدة وبضعة شهور ؟؟

بدون مبالغة ولا تحيّز ، فإنه في خلال هذه الفترة القصيرة ، قد حقّق أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حدّ الروعة والإعجاز .

لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية من (القيروان) حتّى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة، ولكنّ هذا هو الذي حدث فعلاً استناداً الى النصوص التاريخية الموثوق بها !!

لم يكد يصل الى (القيروان) إلا وترك الذراري والأثقال فيها ، وترك قوة مناسبة من رجاله لحمايتها ، ثم اندفع متغلغلاً في مجاهل المغرب متنقلاً من نصر الى نصر ناشراً الإسلام داعياً الى الله ، حتّى وصل الى بلاد (أسفى)[1] على المحيط الأطلسي وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعة ثم قال لأصحابه : « إرفعوا أيديكم » ، ففعلوا ، فقال : « اللّهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً ، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يُشرك بك شيء. اللّهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال

(١) أسفى : بلدة على شاطىء البحر المحيط بأقصى المغرب . انظر معجم البلدان (١/٢٣٢) .

والإكرام » ، ثم انصرف راجعاً[1] .

وقد أخذ عليه بعض المؤرخين الأجانب وبعض المؤرخين العرب بعض المآخذ حول أعماله العسكرية في هذه الصفحة من صفحات معاركه؛ ولعلّ أهمّ تلك المآخذ هي : عدم تأمين خطوط مواصلاته الطويلة التي قارب طولها ألفي كيلو متر من القيروان الى ساحل المحيط ، وأنه ترك بعض المدن المعادية دون أن يفتحها ودون أن يؤمّن ظهره وخط رجعته تاركاً أعداءه متحصنين وراء ظهره ، وأنه لم يكن له هدف واضح ولا خطّة معينة[2] .

وأفترض هنا أن دافع هذا النقد هو عدم التخصص في النواحي العسكرية ، وبتعبير آخر: أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا عسكريين من ذوي الإختصاص وقد يفترض غيري دوافع أخرى لهذا النقد .

إن تأمين خطوط المواصلات الطويلة في تلك الأزمان ، كان بوضع حاميات في المراكز المهمة كالمدن والقرى والمراحل ومحلاّت عبور الأنهار ، وهذا ما فعله عقبة ، وإذا كان قد وضع حامية في (القيروان) وهي مدينة إسلامية ، فهل يغفل عن وضعها في المراكز المهمة الأخرى ؟؟!!

وإذا أغفل التاريخ ذكر تدابير عقبة في تخصيص تلك الحاميات والمسالح التي تهدف الى حماية خطوط مواصلاته ، فهل معنى ذلك أنه لم يعمل على وضع تلك الحاميات والمسالح الضرورية لتأمين خطوط مواصلاته ؟!

إن خطوط المواصلات ، وهي التي تربط القاعدة الرئيسة أو المتقدمة بالجبهة ، هي الشرايين التي إذا لم تؤمّن بكل دقة لتتدفّق عليها وبواسطتها الإمدادات والقضايا الادارية ، كان مصير القائد وقواته الفناء الأكيد ، فهل هناك قائد واحد في الدنيا كلها يغفل عن حماية خطوط مواصلاته ليلاقي

---

(١) الاستقصا (١/٧٤) .

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٠٢ – ٢٠٤) والفتوحات العربية الكبرى (٦٣٤ – ٦٤١) .

هو ورجاله الموت والفناء ؟؟

إنّ تأمين خطوط المواصلات أمر بدهيٌّ لا يغفل عنه أي قائد ، فكيف يغفل عنه قائد مثل عقبة ؟

أما أن عقبة ترك بعض المدن دون أن يفتحها ، فقد حدث فعلاً ، ولكن لا غبار على تصرّفه هذا من الناحية العسكرية .

إن المبادىء العسكرية في حصار المدن تقول : « إذا لم تكن المدينة هدفاً سوقياً (ستراتيجياً) ، وخشي القائد مغبة تعطيل قواته لحصارها ، فبإمكانه تخصيص قوة مناسبة لمراقبتها ومنع العدو فيها من قطع خط المواصلات ، والانصراف بعد ذلك الى أهدافه الأخرى ؛ لأن بقاء قواته الضاربة مدة طويلة لمحاصرتها سيضيع الوقت على القائد سدى وسيحرمه من تحقيق أهدافه الأخرى » .

ولست أشك أن عقبة طبّق هذا المبدأ في تغلغله عمقاً في (إفريقية) ، فقد كانت المدن التي أجّل فتحها أهدافاً غير سوقية ، كما أن القوات المعادية التي تدافع عنها لا قيمة لها من الناحية العسكرية ، وكان قراره في ترك حصارها وإبقاء قوة مناسبة لمراقبتها ولحماية خطوط مواصلاته قراراً صائباً جداً .

أما الإدعاء بأن عقبة لم يكن له هدف واضح ولا خطّة معينة للفتح ، فهذا ادعاء متهافت ، إذ كان هدفه هو هدف الفتح الإسلامي في كل مكان وهو : نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله ، وهذا ما صرّح به عقبة وما كان يتوخّاه . أما خططه العسكرية فهي التي آمّنت له الانتصارات المتوالية بأقصر وقت وبأقل جهود وبقوة مناسبة ، وإلا فكيف استطاع الانتصار على أعدائه في معارك متسلسلة وفي عقر ديارهم ؟!

٦ ـــ سلك عقبة في ذهابه من (القيروان) الى المحيط طريق الأطلس التلي ، أما رجوعه فعلى شمال الأطلس الصحراوي ، لأنه أقرب طريق الى

(القيروان) ، وقد نجا بتغيير طريقه من الفخاخ التي بنيت له[1]، ذلك لأن ابن الكاهنة البربري خرج في أثر عقبة بعد مغادرته (القيروان) ، فكان كلّما رحل من منهل[2] دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى (السوس) ولا يشعر عقبة بما صنع البربري[3] .

وأرى أن من جملة الأسباب التي حدت بعقبة على تبديل طريق عودته ، هو أنه شعر بما فعله ابن الكاهنة من تغوير المياه ، إذ أن المياه ضرورية للقوات ولحيواناتها ، فلا يمكن أن يغفل مثل عقبة عن استحصال المعلومات اللازمة عنها .

كما أنه بدّل طريق عودته ، لأن قوات الروم والبربر ذات شأن وقوّة على جانبي طريق الذهاب القريبة من البحر والمدن ، وهي أقل شأناً وقوة في طريق العودة الصحراوي ، لذلك فالمقاومات المحتملة للمسلمين السائرين على هذه الطريق تأتي من سكانه البربر بالدرجة الأولى ومن حلفائهم الروم بالدرجة الثانية بعكس المقاومات المحتملة على الطريق القريبة من الساحل الآهلة بالسكان والمدن .

كما قدّر أن الصحراء هي ميدان قتال العرب وليس ميدان قتال الروم ، لذلك كان قرار عقبة عن تبديل طريق عودته قراراً صائباً حقاً .

ولكن محذور طريق العودة هو قلّة مياهه ، وهذا العامل هو الذي حدا بعقبة إلى أن يبعث بقواته إرسالاً حتى بقي أخيراً ومعه قوات قليلة تبلغ الثلاثمائة فارساً أو تزيد على هذا العدد الضئيل قليلاً .

هذا هو الجواب للمتسائلين عن : «كيف أرسل عقبة قواته أمامه بقدمات متعاقبة وبقي مع قوات قليلة ؟» .

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (١/٤٥) .
(٢) المنهل : مكان شرب الماء . وابن الكاهنة هو كسيلة .
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٨) .

إن قلّة المياه في طريق عودته هي التي اضطرته على إرسال قواته بقدمات متعاقبة ، لأن قلّة المياه تجعل الحركة على هذه الطريق بقوات جسيمة أمراً مستحيلاً .

وإذا كان القائد الذي يعرف مسؤولياته ويقدّرها حقّ قدرها يكون دائماً في (المقدمة) أثناء التقدّم وفي الهجوم ، فهو دائماً يكون في (المؤخرة) أثناء الإنسحاب والعودة ، وهذا ما فعله عقبة فعلاً ، إذ بقي مع (الساقة) في عودته من المحيط الى (القيروان) ، وأشرف على حماية قواته حتى وصلت الى مثابتها سالمة وسقط هو وساقته شهداء من أجل القسم الأكبر من قوات المسلمين .

ألم يكن بإمكان عقبة أن يتقدّم قواته فيصل مع المقدمة الى مدينة (القيروان) ؟ ألم يكن بإمكانه أن يرافق القسم الأكبر من قواته ويترك قيادة الساقة لبعض من يعتمد عليهم من قادته فيكون هو بعيداً عن الأخطار ؟

لقد كان بإمكانه أن يفعل ذلك غير ملوم ، ولكنّ حرصه على أرواح قواته وسلامتها ، ولكنّ تقاليده العسكرية العريقة، ولكنّ تطبيقه أسلوب القتال الذي ينصّ على : أن يكون قائد القوم أقرب ما يكون الى الخطر ليعطي بمثاله الشخصي لرجاله أروع الأمثال ... كلّ ذلك أبى عليه إلا أن يزجّ بنفسه في الخطر المحدق لتنجو قواته الضاربة من خطر محيق ..

٧ — بقي علينا أن نجيب عن أسباب إساءة أبي المهاجر دينار عزل عقبة ؟ وهل كان ذلك مجرّد اجتهاد منه أم كان مدفوعاً من غيره ؟

الظاهر أن الشعبية التي كان يتمتع بها عقبة في إفريقية بين العرب والبربر المسلمين كانت طاغية ، لذلك قدّر أبو المهاجر أنه لن يستطيع السيطرة على ولايته بسهولة ويسر ما لم يحجز حرية عقبة ولو الى فترة وقتية ، والظاهر ايضاً أنه لم يكن ليقدم على مثل هذا العمل ما لم يأخذ موافقة مسلمة بن مخلد سلفاً .

والدليل أن أبا المهاجر كان يخشى عقبة ، أن معاوية لما أمر بإطلاق سراح عقبة ، أرسله برسل من قبله حتى أخرجوه من (قابس)[1] و هو حنق على أبي المهاجر[2]، فدعا عقبة على أبي المهاجر ، فبلغ ذلك أبا المهاجر ، فلم يزل خائفاً منذ بلغته دعوته[3] ، مما يدل على أن أبا المهاجر كان يقدّر عقبة كلّ التقدير ، وأنه كان لعقبة مكانة مرموقة في نفس أبي المهاجر .

وحين قدم عقبة مصر ركب اليه مسلمة بن مخلّد، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر ، وأنه قد أوصى أبا المهاجر به خاصة[4] ، وهذا الإدعاء لا يبرىء ساحة مسلمة من إقدام أبي المهاجر على حجز حرية عقبة بعلمه ، إذ لم يكن بإمكان مسلمة إلا أن يعتذر إلى عقبة بمثل هذا الإدعاء — خاصة بعد استنكار معاوية لاعتقال عقبة وبعد أن أمر باطلاق سراحه ، وبعد أن علم بأن عقبة في طريقه الى الشام لعرض ظلامته على معاوية بن أبي سفيان .

ولكنني اتبيّن من إقدام مسلمة على الموافقة على اعتقال عقبة وإقدام أبي المهاجر على اعتقاله ، رغبتهما في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الشخصية لعقبة ، إذ قدّرا أنّ عقبة لن يسكت بسهولة على عزله ، فاذا سكت هو فلن يسكت أنصاره وأقرباؤه من العرب ومن قريش بالذات .

ولكن، هل كان عقبة من الذين يشغبون على أمرائهم خضوعاً لمصالحهم الشخصية ؟ أكاد أجزم بأنه ليس من أولئك النفر من الناس ، فقد كان عقبة مؤمناً حقاً ، ومثله يدوس بقدميه كلّ مصلحة شخصية له ، ولكنه حنق على اعتقاله أشدّ الحنق، واستنكر عزله لأن ذلك حال بينه وبين تنفيذ خططه التوسعيّة في الفتح .

---

(١) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢) وتقويم البلدان (١٤٢ — ١٤٣) .

(٢) رياض النفوس (١/٢١) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٢٦) .

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٢٦) .

وما يقال عن اعتقال عقبة ، يقال عن اعتقال أبي المهاجر الذي اعتقله عقبة في ولايته الثانية ، فقد أحسن أبو المهاجر في عمله واستمال قلوب كثير من أتباعه ، خاصة من البربر وعلى رأسهم أميرهم (كسيلة)[1]، الذي كان صديقاً حميماً لأبي المهاجر ، فقد صالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم (كسيلة) وأحسن اليه ، وكان (كسيلة) قد أسلم وحسن إسلامه وصحب أبا المهاجر[2] .

٨ ــ وأخيراً ، كلّل عقبة حياته الحافلة بالجهاد المليئة بالنشاط والحركة لخدمة الإسلام ونشره بتضحيته بحياته ، فسقط شهيداً مع أصحابه الأبطال .

فهل كانت خاتمته المفجعة والمشرفة في آن واحد نتيجة لإهماله وعدم تقديره عواقب الأمور ، أم أن هذه الخاتمة لم تكن متوقعة في تقدير موقفه العسكري ؟

الذي يتتبّع الحوادث منذ بداية الفتح في إفريقية على يد عقبة وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن ابي سرح ومعاوية بن حديج وغيرهم من القادة الفاتحين الى إمارة عقبة الثانية ، لا يجد أثراً ملحوظاً للبربر في الدفاع عن إفريقية، وكلّ ما لاقاه العرب المسلمون من مقاومة كانت من الروم ؛ ولا يخلو الأمر أن يكون مع الروم جماعة من الأفارقة والبربر يؤدّون مهمة الجند ، أو المحافظة على الأمن في الحصون والمدن ، ولكن لا توجد تلك التجمعات الكبيرة والجموع المحتشدة من البربر لردّ العرب المسلمين ولمقاومة فتحهم مثل ما حدث في أيام عقبة في إمارته الثانية . وكانت كلُّ مقاومات الروم مقتصرة على المدن الساحلية وعلى محاور الطرق الساحلية . كان العرب المسلمون يسلكون أيام الفتح الطرق التي تمرّ في قلب بلاد البربر وفي وسط منازلهم ، فكانوا يمرون ببرقة وهي موطن (لُواته) ومنها يمرون بـ (سرت)

---

(١) رياض النفوس (٢١/١) .
(٢) ابن الأثير (٤٣/٤) .

وما بعدها الى طرابلس ، وهي مواطن (هوارة) ، ويقع على جنوب طريقهم إلى إفريقية جبل (نَفُوْسَة)[1] وهو موطن من مواطن قبائل البربر القوية ؛ ومع ذلك لم يذكر المؤرخون لتلك القبائل البربرية أيَّ نشاط عدائي لمقاومة الفتح الإسلامي قبل إمارة عقبة الثانية[2] .

لعلَّ من أسباب عدم مقاومة البربر للفتح الإسلامي قبل إمارة عقبة الثانية ، – أو على الأصح – قبل عودة عقبة من المحيط الى (القيروان) ، إذ أنه في أيام تقدّمه من القيروان الى المحيط سار لا يدافعه أحد[3] ، أن البربر كانوا ينظرون الى الروم نظرة المستعمر الغاشم ، فانتهزوا فرصة الفتح الإسلامي فخلّوا بينهم وبين الروم انتقاماً من الروم ، كما أن البربر نظروا الى الفاتحين الجدد نظرة المحرِّر لهم من ربقة الإستعمار الذي طال تعسُّفه واستغلاله لمواردهم . كما أن الفاتحين بذلوا جهدهم لنشر الإسلام في صفوف البربر ، فعاون البربر المسلمون إخوانهم العرب المسلمين في الفتح .

ولكنَّ عقبة أخطأ في معاملة رؤساء البربر ، فلما ولي عقبة عرّفه أبو المهاجر محلَّ كسيلة وأمره بحفظه فلم يقبل واستخفَّ بكسيلة . وأتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها من السلاّخين ، فقال كسيلة : « هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة » ، فشتمه وأمره بسلخها ، ففعل ... فقبّح أبو المهاجر هذا عند عقبة ، فلم يرجع ! فقال له : « أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه » ، فتهاون به عقبة ، فأضمر كسيلة الغدر ؛ فلما رأى الفرصة سانحة له جمع أهله وبني عمه وقصد عقبة[4] . وقيل : إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبي المهاجر ، لأنه كان صديقه ، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به[5] .

(١) نفوسة : جبال في المغرب بعد إفريقية عالية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٠٥) .
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٩) .
(٣) رياض النفوس (١/٢٣) .
(٤) ابن الأثير (٤/٤٣) .
(٥) رياض النفوس (١/٢٥) .

لقد أدرك أبو المهاجر خطأ عقبة في اضطهاده كسيلة ، فنصح عقبة أن يتألّف كسيلة ولا يستهين به، فقال لعقبة : «أصلح الله الأمير ! ما هذا الذي صنعت ؟! كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعُيينة بن حصن ، وأنت تجيء الى رجل هو خيار قومه في دار عزّه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه ! توثّق من الرجل ، فإني أخاف فتكه ! » ، فتهاون عقبة ، فلما انصرف كسيلة نكث البربر ما كانوا عليه [1] .

لقد كان عقبة من أولئك القادة الذين يقسون على رؤساء أعدائهم ليكونوا عبرة لأمثالهم فلا يقدمون على محاربة المسلمين ، وقد كان خالد ابن الوليد يطبّق هذا المبدأ في حربه الفرس والروم ، فنجح خالد وفشل عقبة ، لأن الفرس والروم لم يكونوا قبائل تعتدّ بالكرامة الشخصية وتؤمن بأخذ الثأر ، وتجلّ رؤساءها وتدين لهم بالطاعة ، وتعتبر كلّ اعتداء عليهم اعتداء على قبائلهم كما كان البربر ، وكما كان العرب أنفسهم ، فهم يعتبرون كلّ ذلك من جملة تقاليدهم العريقة التي لا يحيدون عنها قيد أنملة ويرون أن التغاضي عن الأخذ بتلك التقاليد عاراً دونه كلّ عار .

فكيف يُسلم البربر عظيماً من عظمائهم ورئيساً من رؤسائهم وهو كسيلة الى المذلة والهوان ؟

لقد استثار عقبة بمعاملة كسيلة معاملة فيها كثير من التحدي وكثير من الاستهانة به ذوي قرباه وأهله وقبيلته ، فعمل هؤلاء على جمع الحشود الضخمة من البربر حتى بلغ جمعهم خمسين ألفاً من المقاتلين [2] ، فما كان أحرى بعقبة أن يتألّف كسيلة وأمثاله لتكون سيوفهم له كما كانت لأبي المهاجر من قبله لا عليه كما أصبحت من بعد !

---

(١) رياض النفوس (١/٢٦) .
(٢) رياض النفوس (١/٢٦) .

لقد كان عقبة قائداً لامعاً يليق للمعامع ، أما للسياسة فلا ...

٩ . لقد عمل عقبة على نشر الإسلام في ربوع إفريقية عملاً دائباً ، بل كان أول الفاتحين من العرب المسلمين الذين بدأوا بنشر رايات الإسلام في ليبيا ، وكان أول من تغلغل في مجاهل الصحراء الليبية وأول من تغلغل في مناطق إفريقية جديدة مثل (فزان) والمغرب الأوسط والأقصى ، ولو لم يعمل عقبة وغيره من الفاتحين على نشر الاسلام بين البربر لكان مصير العرب المسلمين في إفريقية بعد نكسة عقبة في معركة (تهوذة) مهدداً بالفناء ؛ فقد أسر محمد بن أوس في نفر يسير من أصحاب عقبة الذين شهدوا معه تلك المعركة واستشهد فيها عقبة ، فخلّصهم صاحب (قفصة) وبعث بهم الى (القيروان)[1] لأنه كان مسلماً . بل إن كسيلة نفسه حين دخل القيروان وكان بها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين ، فطلبوا الأمان منه فآمنهم[2] ، مما يدلّ على خشيته من الذين بقوا على الإسلام من رجال قبيلته ورجال القبائل البربرية الأخرى .

لقد جمع كسيلة جميع أهل المغرب ، وزحف الى (القـــيروان) ، فانقلبت إفريقية نارا[3] مما يدل على أن ثورة عظيمة شملت البلاد بأسرها بعد انصراف المسلمين وسقوط (القيروان) في يد (كسيلة) ، فكيف نعلّل هذه الثورة إلاّ بأنه كان في إفريقية حينذاك نفر عظيم لم يرضهم سقوط (القيروان) في يد (كسيلة) ، فأثارهم ذلك وثارت المنازعات بينهم وبين أنصاره ؟ ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربراً مسلمين أو أنصاراً للمسلمين ؟ ذلك أن كل جند العرب قد عادوا الى (برقة) مع زهير بن قيس البلوي ، فكان أولى بإفريقية أن يهدأ حالها بعد انصراف

---

(١) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٢) ابن الاثير (٤/٤٣) .

(٣) رياض النفوس (١/٢٨) .

المسلمين منها وخلاصها للبربر والروم[1] .

لقد أشعل الفاتحون وعلى رأسهم عقبة جذوة الإيمان بين سكّان (إفريقية) ، وهيهات أن تخبو حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن الانصاف ألاّ نلقي اللوم كله على عقبة في استثارة البربر في شخص رئيس من رؤسائهم (كسيلة) تلك الاستثارة التي أدّت الى نكسة الفتح الاسلامي إلى فترة امتدت الى سنة تسع وستين الهجرية[2] ، ذلك لأنه منذ حركته من (القيروان) الى المحيط ، وعودته من المحيط الى (القيروان) لم تصله أية إمدادات عسكرية من يزيد بن معاوية ومن خلفائه من بعده ، فاضطر الى الإصطلاء بناره معتمداً على ما لديه من رجال ؛ والحرب في طبيعتها تحتاج الى الإمدادات المستمرة بالرجال وبالقضايا الادارية ، خاصة إذا طالت خطوط المواصلات كما هو الحال في حرب عقبة ، تلك الخطوط التي امتدّت الى أكثر من ألفي كيلومتر ، وتلك الحرب التي سقط فيها كثير من الشهداء والجرحى والمرضى .. الخ

وكانت الدولة الأموية في تلك الأيام تعاني كثيراً من الفتن الداخلية: في العراق وخراسان والحجاز واليمن ، وكان عليها أن تعالج بما لديها من قوات تلك الفتن. لذلك لم تستطع أن تمدّ الجبهة الإفريقية بما تحتاجه من جيوش، حتى تولى عبد الملك بن مروان ، فذكر عنده من بالقيروان من المسلمين ، فأنفذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم وذلك سنة تسع وستين الهجرية[3] .

ولكن ، هل كان تغلغل عقبة بالفتح عمقاً من القيروان الى المحيط شراً كله ؟؟

لا شك أن ذلك التغلغل العميق في إفريقية لم يكن شراً كله على العرب

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٠٧) .

(٢) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٣) ابن الاثير (٤/٤٣)، وسيرد تفصيل ذلك في ترجمة زهير بن قيس البلوي في هذا الكتاب.

المسلمين كما يتبادر إلى أذهان غير العسكريين لأول وهلة ، بل كان فيه خير كثير على الفتح الإفريقي ، وقد عاد بالنفع عليهم وعلى الفتح في المدى البعيد ، ونتائج الحرب ليست كلها آنية ، بل منها ما يظهر نفعه في الحال أو في المستقبل القريب أو البعيد ...

لقد حصّل الرواد الأولون للفتح الذين جابوا أقطار إفريقية وأمصارها ومجاهلها من (القيروان) إلى المحيط على معلومات مفيدة لا تثمّن عن طبيعة الأرض : مداخلها ومخارجها ، ومسالكها وخواص أرضها ومنابعها ومواطن الخيرات فيها ومواطن الجدب في أنحائها .

وحصلوا على معلومات قيمة لا تثمن أيضاً عن طبيعة سكانها : أجناسهم ومزاياهم وقوتهم وأساليب قتالهم وأساليب معيشتهم ومواطن القوة والضعف فيهم ، وكيف يمكن التغلّب عليهم وكيف يمكن تجنّب الزلل في معاملتهم ، وما هي الطرق الناجعة لحربهم .

وحصلوا على معلومات عن تسليحهم وتجهيزهم وتنظيمهم ومواردهم الإدارية وعدد حصونهم وقوتها وكيف يمكن التغلّب عليها .

هذه المعلومات عن طبيعة الأرض التي يجري القتال عليها ، وعن العدو وعن تسليحه وتنظيمه وتجهيزه وموارده ، ضرورية جداً من الناحية العسكرية ، وهي التي تيسر لكل قائد الفرص الكاملة للانتصار ، وبدونها يسير القائد أعمى في الظلام ، وما أسهل اندحار الأعمى الذي يسير في الظلام .

وهذه المعلومات تحصّل تارة من الأدلاء وتارة من العيون والأرصاد ، وتارة بمفارز الإستطلاع ... كما تحصل تارة بالقتال حين لا يكون من القتال مفر .

ومثل هذه المعلومات لا يتردّد القائد لكي يحصل عليها أن يستفيد من كل منابعه ومن ضمنها القتال .

إن استشهاد عقبة وأصحابه لم يذهب عبثاً ، بل زوّد المسلمين بمعلومات

حيوية لا تنضب عن عدوّهم وعن أرضه ، وقد اقتطف المسلمون ثمرات استشهاد عقبة بعد ست سنوات من استشهاده ، فكان فتح إفريقية الى المحيط فتحاً (مستداماً) منذ كان حتى اليوم .

ولو قدّر لعقبة أن يبقى حيّاً لما استطاع أن يديم ما فتحه ، لأن الدولة الأموية كانت تدور في دوامة من الفتن والاضطرابات الداخلية حينذاك ، وكانت مشغولة عن كل شيء خارجي حتى الفتح لأنها مكرسة كل طاقاتها ومواردها المادية والمعنوية للقضاء على تلك الفتن والاضطرابات .

يكفي أن نذكر من تلك الفتن والاضطرابات : كارثة استشهاد الحسين ابن علي ووقعة الحرّة بالمدينة المنورة سنة ثلاث وستين الهجرية[1] ، وثورة عبد الله بن الزبير وحصار مكة سنة أربع وستين الهجرية[2] وتوجّه مروان ابن الحكم الى مصر لاستعادتها من أصحاب ابن الزبير سنة خمس وستين الهجرية[3] ، وحدوث الوباء العظيم بمصر وثورة المختار بالعراق ووقعة الخازر بالعراق سنة ست وستين الهجرية[4] ، ونشوب القتال المرير بالعراق بين المختار الثقفي وبين مصعب بن الزبير سنة سبع وستين الهجرية[5] ، حتى لقد اضطر عبد الملك بن مروان الذي تولى الخلافة سنة خمس وستين الهجرية الى دفع الأتاوة لملك الروم كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين[6] ، وحتى تفرّق المسلمون الى درجة وقوف أربعة ألوية في عرفات في سنة واحدة في موسم الحج هي سنة ثمان وستين الهجرية[7] ، هذا بالاضافة الى الفتن الأخرى كثورات الخوارج وثورات أقرباء بني أمية ... الخ .

---

(١) العبر (١/٦٧) .
(٢) العبر (١/٦٩) .
(٣) العبر (١/٧١) .
(٤) العبر (١/٧٣) .
(٥) العبر (١/٧٥) .
(٦) ابن الأثير (٤/١١٩) .
(٧) ابن الأثير (٤/١١٥) .

فهل كان بإمكان بني أمية – وهذا وضعهم وهذا ما يعانونه ، أن يديموا جيوش إفريقية بالإمدادات ؟ وهل كان بإمكان عقبة أن يديم ما فتحه بدون إمدادات ؟

لقد كانت غزوة عقبة التي امتدّت من (القيروان) الى المحيط ، فشلاً تعبوياً[1] ، ولكنها كانت على كل حال نصراً سوقياً (ستراتيجياً)[2] ولا يعد الفشل التعبوي شيئاً يذكر الى جانب النصر السوقي.

١٠ – فما هي سمات قيادة عقبة ؟

كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والاستعانة به والتوكل عليه والفزع اليه ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر ، وكان يؤمن أن النصر هو من الله جلّ ثناؤه[3] ، وكان يعتقد أن الانتصارات الاسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها الى العالم مؤمنون صادقون ، ويذود عنها حماة قادرون .

وكان يحب رجاله ويحبونه ، ويثق بهم ويثقون به ، وقد بلغت ثقتهم به حداً جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة ؛ فكان يتفقد أصحابه فيما يعود عليهم بالنفع ، ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويغضّ الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال ، ويستعتب مقصّرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له ، غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة ، ولا مستريح إلى كشف غامض العورة[4] .

وكان ميمون النقيبة ، كامل العقل ، طويل التجربة ، بعيد الصوت ،

---

(١) التعبية : الأعمال العسكرية في المعركة . والفشل التعبوي يؤثر على نتائج معركة محدودة ولا يؤثر على نتائج الحرب كلها .

(٢) السوق : الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب . والنصر السوقي ، يعني نتائج الحرب كلها لا نتائج معركة واحدة . انظر الرسول القائد (١٨٣) – الطبعة الثالثة .

(٣) مختصر سياسة الحروب (١٥) .

(٤) مختصر سياسة الحروب (١٦) .

بصيراً بتدبير الحرب ومو اضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، يحسن تعبئة أصحابه ، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوّهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً سخياً [1] .

وكان ذا شجاعة وحزم وديانة[2] مستقيماً فصيح القول نزيهاً شريفاً ، ولكنه كان يفتقر الى الكياسة والدبلوماسية[3] ، فقد كان جندياً فحسب من أخمص قدمه الى قمة رأسه ، ولم يكن يعرف أساليب السياسة وأحابيلها ولفّها ودورانها .

وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة ، ذا إرادة قوية ثابتة وشخصية رصينة متّزنة ، يتحمّل مسؤوليته كاملة بلا تردّد ، له نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم، وله ماض ناصع مجيد .

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادىء الحرب ، نجد أنه طبّق مبدأ (المباغتة) في حروبه ، وكانت حروبه (تعرضية) ، يعمل على (تحشيد قوته) قبل المعركة ، و (يقتصد بالمجهود) ويطبّق مبدأ (الأمن) ويعمل على (إدامة المعنويات) ويذلّل (الامور الإدارية) كافة لقواته ، ويحسب لها أدق حساب .

لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي .

عقبة في التاريخ :

يذكر التاريخ لعقبة ، أنه كان من أبرز قادة الفتح الإسلامي ، ومن

---

(١) مختصر سياسة الحروب (١٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩) .

(٣) الفتوحات العربية الكبرى (٦٣٦) .

أحرص دعاة الدين الإسلامي .

لقد كان أول من نشر الإسلام في زويلة والصحراء الليبية وفي النوبة والسودان وفي أصقاع كثيرة من المنطقة الشاسعة الكائنة بين القيروان والمحيط الأطلسي . « فأسلم البربر وكانوا نصارى ، وفشا الإسلام الى أن اتصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط[1] .

وكان نشر الإسلام في إفريقية – نهاية الإستعمار الفكري فيها وبداية الإستقلال الفكري ، ذلك الاستقلال الذي أمدّ إفريقية المسلمة بطاقات لا تنضب من القوة والمنعة وبالمصل الواقي من المبادىء الوافدة التي بذلت جهوداً جبارة منذ انحسار مد الفتح الاسلامي حتى اليوم لتحويل تلك البلاد عن عقيدتها – دون جدوى .

ويذكر له أنه فتح أوشارك في فتح كل أصقاع إفريقية العربية المسلمة : (مصر وليبيا والجزائر وتونس ومرا كش وموريتانيا والسودان) ، فكان فتحه وفتح أصحابه القادة الفاتحين فتحاً (مستداماً) ، لأنه كان فتح عقيدة ومبادىء لا فتح استغلال واستعباد .

لقد شارك في فتح مصر وكان أول من فتح زويلة والصحراء الليبية وبعض كور السودان ، وأول من وصل الى المحيط الأطلسي ، وأول من مهد لفتح (النوبة)، وأول من أدخل العرب فاتحين الى (فزّان)، وأول من بنى القيروان) لتكون مدينة عربية إسلامية خالصة ولتكون القاعدة المتقدمة للفتح الإسلامي في إفريقية .

لقد كان له جهاد مشرّف في أيام ولايته الأولى لنشر الإسلام في البلاد الكائنة من قناة السويس الى القيروان وفتح تلك المناطق أو المشاركة في فتحها .

وكان له جهاد مشرّف في أيام ولايته الثانية لنشر الإسلام في البلاد الواقعة

---

(١) جمل فتوح الاسلام – ملحق بجوامع السيرة – لابن حزم (٣٤٤) .

ما بين القيروان والمحيط الأطلسي .

لقد انتهى في فتحه الأول بالعرب المسلمين الى أعماق الصحراء ، وانتهى في فتحه الثاني الى المأهول من إفريقية الى المحيط .

واخيراً ، بذل روحه الغالية رخيصة لبناء صرح الفتح الإسلامي في إفريقية ، فبقي ذلك الصرح شامخاً صلباً صلداً متماسكاً تهاوت تحت أقدامه محاولات الصليبيين في القرون الوسطى ومحاولات الاستعمار الحديث لتكون تلك البلاد قطعة من أوربا ... فكان قدوة حية لأحفاده البررة الذين تساقطوا شهداء ليبقوا مسلمين طيلة القرون الطويلة ، ويكفي أن نذكر أن مليون شهيد قدّموا أرواحهم رخيصة لتبقى الجزائر فقط قطعة من مكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد دار السلام والشام والقاهرة .

ترى ! هل يعرف أبناء مصر والسودان وليبيا والجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا [١] اليوم من هو عقبة وماذا قدّم من أجلهم من تضحيات جسام ؟ وهل يعرفون أنه كان من أوائل قادة الفتح الذين أدخلوا العرب في بلادهم ومن أوائل رواد الدعوة الذين أدخلوا الإسلام في ربوعها ؟؟

رضي الله عن القائد الفاتح ، الفارس الشجاع ، البطل الشهيد ، عُقْبَة ابن نافع الفِهري القرشي .

---

(١) آمل من حكومات وشعوب إفريقية العربية المسلمة أن تدرس سيرة هذا القائد البطل في مدارسها ، وأن تطلق اسمه على كلياتها وشوارعها ومعالمها ، وأن تخلد ذكره بانشاء المكتبات والمستشفيات والمعاهد والكليات باسمه ، وتنشر البحوث عنه . وآمل من الحكومة المغربية أن تعمل على تحقيق مكان وقوفه على ساحل المحيط الأطلسي وتنشىء جامعاً شامخاً هناك .

إن ذلك أقل ما نأمله من إفريقية العربية المسلمة ، ليعرف أبناؤها البررة مكانة عقبة وأثره في جعل بلادهم عربية إسلامية .

أبو المهاجر دينار
فاتح المغرب الأوسط

توليته إفريقية :

أبو المهاجر دينار هو مولى مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري[1] فهو مولى الأنصار[2] ، وكان من التابعين[3].

ولاّه مَسْلمة بنُ مُخلّد الأنصاري (إفْرِيقية) بعد عُقْبَة بن نافِع الفِهري وذلك سنة خمس وخمسين الهجريــة (٦٧٤ م) ، فقدمها في هذه السنة[4] ، فأساء أبو المهاجر عزل عقبة بن نافع وسجنه وأوقره حديداً ، حتّى أتــاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخليته سبيله وإشخاصه اليه[5] .

وقد كان قيل لمسلمة بن مخلّد : « لو أقررت عقبة ، فإن له جزالةً وفضلا » ، فقال مسلمة : « إنّ أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نَيْلٍ ، فنحن نُحبّ أن نكافئه » ؛ فلما قدم أبو المهاجر (إفريقية) كره أن ينْزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ، ومضى حتّى خلّفه

---

(١) ابن خلدون (٣/١٠) والبلاذري (٢٣٠) والاستقصا (١/٧١) وابن الأثير (٣/١٨٤) والبيان المغرب في أخبار المغرب (١/١٧) ورياض النفوس (١/١٩) .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥) . وفي الاستقصا (١/٧١) وقيل : إنه مولى بني مخزوم .

(٣) رياض النفوس (١/١٩) .

(٤) الاستقصا (١/٧١) وفي رياض النفوس (١/٢١): أنه وصل الى إفريقية سنة سبع وخمسين الهجرية ، والرواية الأولى أصح ، لأنه ليس من المعقول أن يبقى سنتين بعيداً عن منصبه .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥ - ٢٦٦) .

بميليْن ، فابتنى ونزل [١] ؛ وبذلك هُجرت مدينة (القيروان) التي ابتناها عقبة لفترة من الزمن امتدت حتى عاد عقبة إلى منصبه في (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية[٢] .

لقد أخلص أبو المهاجر لمسلمة ، ولكن إخلاصه وحده لم يكن ليؤهله الى تسنم منصب قيادي رفيع في (إفريقية) لو لم تكن له مزايا عسكرية وإدارية أخرى أهلته لتسنم مثل منصبه الرفيع .

جهـــاده :

عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه الى (إفريقية)[٣] ، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الادارية وإعداده خطط الفتح ، سار بجيشه الى (قَرْطَاجَنّة)[٤] عاصمة الروم في شمال (افريقية) ، لأن الروم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من (بنزرت)[٥] الى (طَنْجَة)[٦] ، وأن هذا الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم ومواطنهم ، فلا بد من تطهير تلك المناطق منهم[٧] ليتخلص المسلمون نهائياً من مستعمري (إفريقية) القدامى وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي .

ونازل أبو المهاجر (قرطاجنة) ، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية ، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار . ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) .

(٢) انظر ترجمة عقبة بن نافع الفهري في هذا الكتاب (٩٠-١٣٦) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) وانظر رياض النفوس (٢١/١) .

(٤) قرطاجنة : بلد قديم من نواحي افريقية ، وكانت مدينة عظيمة شامخة البناء أسوارها من الرخام الأبيض ، وهي على ساحل البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٢/٧) .

(٥) بنزرت : مدينة بينها وبين تونس يومان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٢/٢) .

(٦) طنجة : مدينة قديمة على البحر ، بينها وبين سبته مسيرة يوم واحد . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٧) تاريخ المغرب الكبير (٣٤/١) .

يحققوا هدفهم بفتح (قرطاجنة) ، طلبوا الصلح ، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة (شريك)[1] التي كان الروم يتخذونها دوماً مثابة لتحشّد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين[2] ، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها ، وبهذا أثبت أبو المهاجر عملياً بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية ، فيفضّل المواقع السوقية (الاستراتيجية) التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل (قرطاجنة) مقابل إقراره الصلح بين الطرفين .

وفي رواية : أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني — صنعاء الشام — الى جزيرة شَريك[3] ، ففتحها[4] .

وكان هدف أبي المهاجر فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدّهم إذا همّوا بالمسير الى المسلمين أثناء غزوه للبلاد ، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسر خطوط مواصلات أبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً .

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد ، حتى وصل (مِيلَة)[5] في الجنوب الشرقي لـ (بِجَايَة)[6] وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً ، فوجدها مستعدة للقتال ، وكان فيها طائفة من البربر

---

(١) جزيرة شريك : كورة بافريقية بين سوسة وتونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٩٩) . وهي في الواقع شبه جزيرة . انظر الخريطة المرفقة .

(٢) انظر معجم البلدان (٣/١٠٠) .

(٣) هو شريك العبسي ، وكان احد العاملين على هذه الجزيرة فسميت باسمه ، وشريك هذا هو والد قرة بن شريك عامل مصر المشهور .

(٤) الاستقصا (١/٧١) .

(٥) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى افريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٦) .

(٦) بجاية : مدينة على ساحل البحر ، بين إفريقية والمغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٦٢) .

والروم قد تحصّنوا فيها ، فنازلها أبو المهاجر وفتحها وغنم ما فيها واستقرّ فيها [1] .

كانت (ميْلَة) تتوسّط المغربين الأدنى والأوسط ، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع ، فجعل أبو المهاجر (ميلة) مقرّه وأقام فيها سنتين[2] ، وكان خلال هذه المدة يتّصل بالبربر وينشر فيهم الدين ، ويريهم حقيقة المسلمين .

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة (أوْرْبَة) [3] لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها ، وكان رئيسها كسيلة ابن لمزم الأوربي ؛ وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد ، غيوراً على وطنه ، وكان البربر يجلّونه ويحبونه ، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه . ورأى كسيلة أبا المهاجر في (ميلة) فعلم أنه لا بدّ أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ؛ فذهب في المغربين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن البلاد . واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم ، فسمع أبو المهاجر بجمعه ، فسار اليه .

وكان كسيلة قد عسكر بـ(تِلِمْسَان)[4]، فقصده أبو المهاجر ، والتقى الجيشان هناك ، فدارت معركة حامية بينهما ، فانتصر المسلمون وأُسر كسيلة ، فحُمِلَ الى أبي المهاجر ، فأحسن اليه أبو المهاجر وقرّبه ، وعامله معاملة الملوك[5] . وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٤ - ٣٥) .

(٢) النجوم الزاهرة (١/١٥٧) .

(٣) أوربة : تنقسم الأمة البربرية الى قسمين كبيرين ، كل قسم يحتوي على قبائل كثيرة ، وهذان القسمان هما : البرانس والبتر . والبرانس تشتمل على قبائل كثيرة أكبرها هي هوارة وكتامة وزوارة وصنهاجة وأوربة ومصمودة . انظر التفاصيل في تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٥) .

(٤) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم : أقادير ، على بعد مرحلة من وهران . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤٠٩) .

(٥) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٨) والاستقصا (١/٧١) .

فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه[١] ، وانتهى الى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر[٢] ، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط[٣] فصالح أبو المهاجر بربر (إفريقية) وفيهم كسيلة الأوربي وصالح عجم (إفريقية) ، ثم رجع الى (القيروان) وأقام بها[٤] .

الشهيد :

ردّ يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري الى (افريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية[٥] ، فخرج عقبة سريعاً[٦] ، فوصل الى (القيروان) مجداً وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد[٧] وأساء عزله وغزا به معه وهو في الحديد[٨] .

وأراد عقبة أن ينهض إلى (طنجة) فقال له أبو المهاجر : « ليس بطنجة عدو لك ، لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد — يريد كسيلة — فابعث معه والياً » ، فأبى عقبة إلا أن خرج بنفسه[٩] .

وكان كسيلة في جيش عقبة قد استصحبه معه في غزواته ، وكان يستهين به ويمتهنه ، فأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه ، فدفعها كسيلة الى غلمانه ، فأراده عقبة على أن يتولاّها بنفسه وانتهره ، فقام اليها كسيلة مغضباً وجعل كلّما دسّ يده في الشاة مسح بلحيته . وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو

---

(١) الاستقصا (١/٧١ — ٧٢) .
(٢) رياض النفوس (١/٢١) والاستقصا (١/٧٢) .
(٣) الاستقصا (١/٧٢) .
(٤) رياض النفوس (١/٢١) .
(٥) رياض النفوس (١/٢٢) والاستقصا (١/٧٢) وابن الاثير (٤/٤٢) .
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .
(٧) ابن الأثير (٤/٤٣) .
(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .
(٩) رياض النفوس (١/٢٦) .

معتقل عند عقبة ، فبعث اليه ينهاه ، ويقول : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعمد الى رجل جبار في قومه وبدار عزه ، حديث عهد بالشرك، فتفسد قلبه ؟ ! تو ثق من الرجل فإني أخاف فتكه » ، فتهاون به عقبة ؛ فلما انصرف نكث البربر ما كانوا عليه . وأقبلت النفرة الى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : «عاجله قبل أن يجتمع أمره »[1] .

وغشى كسيلة عقبة بقرب (تَهُوْذَة)[2] في جيش كثيف ، فنزل عقبة عن فرسه وقال : « أطلقوا أبا المهاجر » ، ثم قال له : « إلحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين ، وأنا أغتنم الشهادة » ، فقال أبو المهاجر : « وأنا أغتنم الشهادة مثلك » ؛ فكسر كل واحد منهما غمد سيفه ، وكسر المسلمون أغماد سيوفهم ، وقاتلوا حتّى قتلوا[3] .

وفي رواية أن أبا المهاجر كان موثقاً بالحديد ، فزحف عقبة على كسيلة . فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني تصمّ المناديا

فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقه وقال له : « إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة » ، فلم يفعل[4] . وقيل : إن عقبة أمر بتخلية أبي المهاجر ، فقاتل وهو موثوق بالحديد[5] ، فقتل عقبة ومن معه ، وقتل أبو المهاجر

---

(١) رياض النفوس (١/٢٦) وانظر الاستقصا (١/٧٤) .
(٢) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان (٢/٤٣٢) .
(٣) رياض النفوس (١/٢٦ – ٢٧) .
(٤) ابن الأثير (٤/٤٣) .
(٥) رياض النفوس (١/٢٧) .

وهو موثوق في الحديد[1]، وكان مقتل عقبة وأصحابه ومنهم أبو المهاجر[2] سنة ثلاث وستـين الهجرية[3] (٦٨٣ م) وقتل مع عقبة زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ (تهوذة)، وقد جعل عـلى قبورهم أسنمة ثم جصّصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة ، وهو في عداد المزارات[4].

الأنسان :

نجهل كل شيء عن أصل أبي المهاجر ومولده ونشأته الأولى ، ولعلّ معاملة أبي المهاجر القاسية لعقبة كان لها أثر بالغ في اغفال بعض المؤرخين لذكره ، على الرغم ما كان يتمتّع به من مزايا سامية وخصال حميدة .

فهل كان أبو المهاجر معتدياً على عقبة في سجنه ؟ الظاهر أن أبا المهاجر كان منفذاً لأوامر مسلمة بن مخلّد ليس إلاّ ، إذ ليس من المعقول ولا من المنطق أن يُقدم أبو المهاجر وهو مولى على سجن عقبة الصحابي العامري القرشي مخالفاً أوامر مسلمة بن مخلد وبدون موافقته[5] ، وإنما حبسه – كما يبدو – لأنه كان يتمتّع بشعبية طاغية ما كان لأبي المهاجر أن ينجح في أعماله وعقبة طليقاً حراً . يدلّنا على ذلك أن معاوية لما أمر بإطلاق سراح عقبة ، أطلقه أبو المهاجر وأرسله برسل من قبله حتى أخرجوه من (قابس) [6]،

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) والبداية والنهاية (٢١٧/٨) وابن الأثير (٤٣/٤) والاصابة (٨١/٥) .

(٣) الاستقصا (٧٤/١) .

(٤) الاستقصا (٧٤/١) .

(٥) في فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) : فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد ، فأقسم له بالله لقد خالفـه ما صنع أبو المهاجر ، ولقـد أوصيته بك خاصة ... انتهى . ومن المحتمل ان يكون مسلمة قد اعتذر عن تقصيره من عقبة بذلك ليس إلا .

(٦) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية عـلى ساحل البحر . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٧) وتقويم البلدان (١٤٢ – ١٤٣) . وانظر رياض النفوس (٢١/١) حول إخراج عقبة .

فلو لم يكن أبو المهاجر يخشى عقبة لما أرسله مخفوراً الى حدود ليبيا ، وعلى كل ، فان حبس عقبة كان أحد تدابير الأمن التي اتخذها أبو المهاجر منعاً للفتن والشغب الذي كان يتوقعه من أنصار عقبة ، ولم يكن هذا الاجراء إلا من أجل المصلحة العامة التي هي فوق مصالح الأشخاص مهما يكونوا .

وما يقال عن سجن عقبة ، يقال عن سجن أبي المهاجر بعد ولاية عقبة الثانية ، إذ أصبح لأبي المهاجر شعبية طاغية أيضاً خاصة عند البربر وزعيمهم كسيلة بالذات ، لأن ابا المهاجر حين ظفر بكسيلة عرض عليه الإسلام فأسلم ، فأحسن اليه أبو المهاجر واستعفاه ، وكان في عسكر المسلمين حتى عزل أبو المهاجر[1] ؛ وقيل : إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبي المهاجر، لأنه كان صديقه ، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به[2] .

لقد كان أبو المهاجر يوقّر عقبة ويعرف ما له من المقام العظيم . فقد بلغ أبا المهاجر أن عقبة دعا عليه وقال : « اللهم لا تمتني حتى تمكّني من أبي المهاجر دينار بن أبي دينار » ، فلم يزل أبو المهاجر خائفاً منذ بلغته دعوته[3] ، فكيف يعاقبه أبو المهاجر ويسيء اليه بعد ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يفعل ذلك إلا مضطراً راغماً[4] ؟؟

وقد أثبت أبو المهاجر بأنه لم يحقد على عقبة لأن عقبة حبسه وقيّد حريته، فقد أسدى لعقبة من النصح والمشورة على الصعيدين العسكري والإداري ، وهو سجين وأخيراً بذل نفسه رخيصة في سبيل عقيدته ، ففضّل الموت شهيداً بيد صديقه الحميم كسيلة على النجاة بحياته بيد هذا الصديق الحميم مشاركاً عقبة الذي سجنه مصيره المشرف، فخسر كلّ شيء إلا الشرف !

لقد كانت سيوف المسلمين للمسلمين لا عليهم ، وكانت سيوفهم على

---

(١) رياض النفوس (١/٢٥ - ٢٦) .

(٢) رياض النفوس (١/٢٥) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) وانظر رياض النفوس (١/٢١) .

(٤) أنظر فتح العرب للمغرب (١٥٢) .

أعدائهم حتى ولو كان أولئك الأعداء او لا زالوا من الأصدقاء ..

فمن حق أبي المهاجر أن يعرف العرب المسلمون حقه عليهم ، ومن حقه ألاّ يغمطوا هذا الحق ، وأن يذكروه بالفخر والتقدير والاعزاز ، ويكفي أن يذكروا قولته : « ألقى الله في حديدي »[1] ، مُفضِّلاً الموت الأكيد بعزة على العيش الأكيد بذلة ، ليعرفوا مبلغ عمق ايمانه وعظم تضحيته في سبيل مبادئه وعقيدته وشرفه .

لقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً ، وكان مؤمناً حقاً وعلى شيء كثير من الحكمة وبُعد النظر .

القـائد :

كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون منها الى (الفُسطاط)[2]، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر : أقام بها الشتاء والصيف ، واتخذها منزلاً[3] ... وتلك عبارة يفهم منها أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أن (إفريقية) أصبحت مقراً يقيم به المسلمون ويطمئنون فيه دون أن يعودوا الى مصر بعد كل غزوة ، أي أنها أصبحت رغم تبعيتها لمصر ولاية إسلامية مستقلة الشخصية بعض الشيء ، وهذه هي الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إفريقية إسلامية ؛ فقد كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون (إفريقية) ثم يقفلون منها الى الفسطاط ، أما في ولاية أبي المهاجر وما بعدها ، فإنهم يقيمون بها العام كله ، ويخرجون للغزو من قيروانها ثم يعودون اليه مرة أخرى . وقد صاحب هذا التغير السياسي الذي جدّ على المركز السياسي

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٨).

(٢) الفسطاط : مدينة محدثة بناها عمرو بن العاص لما فتح ديار مصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان في موضع الفسطاط قصر قديم يقال له : قصر الشمع ؛ وكان فسطاط عمرو حيث الجامع المعروف بجامع عمرو في القاهرة الآن . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١١٨-١١٩) ومعجم البلدان (٦/٣٨٠) والمسالك والممالك (٤٠).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) .

للبلاد تحوّل جوهري في سير الفتوح فيها ، فقد أصبحت غاية الغزوات إتمام فتح (إفريقية) وجعلها بلاداً إسلامية كمصر والشام سواء بسواء[1].

ومن الإنصاف هنا ، أن نذكر لعقبة بن نافع الفهري فضله في هـذا المجال ، فقد عمل جاهداً لبناء (القيروان) ليكون القاعدة المتقدمة للمسلمين في إفريقية : تخرج منها جيوشهم للفتح ، وتعود اليها بعد إنجاز مهمتها ، وتتحصّن فيها عند الخطر ، وتكون مستودعاً لأرزاقهم وعتادهم وموادهم الإدارية الأخرى . وما كان تحوّل أبي المهاجر عنها ليقضي على قيمتهـا العسكرية الحاسمة ، بل بقيت الأغراض التي بنُيت من أجلها مدينة القيروان قائمة .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لا فضل لأبي المهاجر في هذا التطور السياسي الذي جدّ على سير الفتوح في (إفريقية) ، بل كان لما اتّسم به أبو المهاجر من بُعد النظر أثره الكبير الحاسم على هذا التطوّر ، ولعل خير دليل على بعد نظره وعزمه الأكيد على جعل الفتح الإسلامي في (إفريقية) ليس مجرد غارات تستهدف جمع الأموال والغنائم ، هو ما فعله أبو المهاجر في مصالحة أهل (قرطاجنة) بشرط إخلاء جزيرة (شريك) التي يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين ، حتى يحرم الروم من تلك القاعدة الحيوية ، وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم .

لقد فضّل أبو المهاجر جزيرة (شريك) الموقع السوقي (الإستراتيجي) على المال والغنائم ، وهذا دون شك ، قرار عسكري في منتهى الأهمية ، وله دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد نظر وتفكير عسكري سليم .

فقد أراد أبو المهاجر من ذلك أن يكون الفتح الإسلامي في (إفريقية) فتحاً مستداماً تترسّخ به أقدام المسلمين في (إفريقية) ، وتكون (إفريقية)

---

(١) فتح العرب للمغرب (١٥٦ – ١٥٧).

به بلاداً إسلامية أسوة بالبلاد المفتوحة الأخرى ، وألاّ يقتصر الفتح الإسلامي في (إفريقية) على الغارات التي قد يكون من نتائجها الربح المادي فقط دون الربح المعنوي الذي هو الهدف الأول للفتح الإسلامي ، هذا الربح المعنوي الذي يهدف الى نشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة ، فيكون بذلك فتحاً فكرياً يبقى على الزمن لا استعماراً من أجل المنافع المادية ؛ لذلك استقرّ أبو المهاجر في (ميلة) سنتين يدعو البربر الى الإسلام ، وينشر هذا الدين في ربوعهم ؛ فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجا .

لقد صاحب أبو المهاجر مسلمة بن مخلّد الأنصاري مدة طويلة في حروبه : في فتح مصر وفي القضاء على الفتن الداخلية ، فلما تولى (إفريقية) كان مهيئاً للقيادة نظراً لتجربته الطويلة في معاناة الحروب .

وفي أيام قيادته في (إفريقية) عانى أبو المهاجر حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ الى شروط أبي المهاجر ، وهذا النوع من الحروب يتميّز القائد الذي يعانيها بالضبط الشديد والصبر الجميل .

كما عانى حروب الميدان حول (تلمسان) ، وناهض جيوشاً كثيفة للبربر ، وهذا النوع من الحروب ، يتميّز القائد الذي يعانيها بالشجاعة والإقدام ، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة ، وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية .

لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم : يقاتل بسيفه عندما لا يجد مفراً من ذلك ، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم وبالعقيدة البناءة المنشئة ؛ فاذا كان لسيفه بعض الأثر على انتصاره ، فقد كان لعقله أكبر الأثر على هذا الانتصار .

لقد جعل أبو المهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله والاستعانة به والتوكل عليه والفزع اليه ومسألته التأييد والنصر ، وكان محباً لرجاله محبوباً

منهم ، يثق بهم ويثقون به ، وكان كامل العقل ، طويل التجربة ، بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، حسن التعبية ، حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً ، بعيد النظر ، صحيح القرارات والخطط .

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادىء الحرب ، نجد أنه طبّق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته) ، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً ، فهو داعية أولاً وقائد ثانياً ؛ وأنه طبّق مبدأ (التعرض) ، فكانت معاركه كلها تعرضيّة ، وانه طبّق مبدأ (تحشيد القوة) قبل البدء بحركاته ، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء[1] ، وأنه طبق مبـدأ (الإقتصاد بالمجهود) فلم يفرّط بقواته دون مبرّر ، وأنه طبّق مبدأ (الأمن) فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة ، وأنّه طبّق مبدأ (المرونة) فكانت لقواته قابلية ممتازة على الحركة ؛ وأنه طبّق مبدأ (التعاون) فوحّد جهود رجاله لإحراز النصر ، وأنه طبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ومبدأ (الأمور الإدارية) بشكل ملحوظ .

لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً .

أبو المهاجر في التاريخ :

يذكر التاريخ لأبي المهاجر فتحه للمغرب الأوسط ونشره الإسلام في ربوعه .

ويذكر التاريخ لأبي المهاجر ، عمله الدائب المنظّم لنشر الإسلام بين قبائل البربر بالسياسة الحكيمة والحسنى والمنطق والحجة البالغة .

---

(١) رياض النفوس (٢١/١) .

ويذكر له ، أنه آثر الاستشهاد مع أبناء عقيدته ، على الحياة مع أصدقائه الشخصيين وأعداء عقيدته .

رضي الله عن التابعي الجليل ، الداعية الموهوب ، القائد الفاتح ، الإداري الحازم ، السياسي المحنّك، البطل الشهيد ، أبي المهاجر دينار .

زهير بن قيس البلوي[1]

فاتح منطقة مدينة تونس[2]

وقائد المعركة الحاسمة[3] في إفريقية على البربر

« إنما قدمت للجهاد ، ولم أقدم لحبِّ الدنيا »

(زهير بن قيس البلوي)

نسبه وأيامه الأولى :

هو زهير بن قيس البلوي[4]، يكنى أبا شدّاد[5]، يقال له صحبة[6]، وجزم بعضهم بصحبته ، فقال : « هو من الصحابة »[7] . شهد فتح مصر[8] وكان فتحها سنة عشرين الهجرية[9] ، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام

---

(١) بلى : بفتح الباء وكسر اللام . على بن ابي طالب وزن علي ، من قضاعة . انظر جمهرة أنساب العرب (٤٧٩) ، ومن بطون قضاعة بلي بن عمرو بن مالك بن إلحاف بن مالك بن قضاعة . انظر المنتخب في ذكر قبائل العرب (٤٠) .

(٢) تونس : بالضم ثم السكون والنون تضم وتفتح وتكسر . مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض قرطاجنة ، وكان اسم تونس في القديم : ترشيش وهي على ميلين من قرطاجنة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٣٢/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٣) وتقويم البلدان (١٤٢ – ١٤٣) والمسالك والممالك (٣٣) .

(٣) المعركة الحاسمة : هي معركة لسحق جيش العدو الذي هو هدف الحركات الخطير ، وبذلك تستسلم بلاده لعدم وجود قوة ضاربة تدافع عنها .

(٤) الاصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) وتهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .

(٥) الاصابة (١٧/٣) .

(٦) الإصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) والاستقصا (٧٦/١) .

(٧) تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .

(٨) الإصابة (١٧/٣) .

(٩) ابن الأثير (١٨/٢) والعبر (٢٣/١) وشذرات الذهب (٣١/١) وأبو الفدا (١٦٣/١)

الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو صحابي بالمولد .

روى زهير عن جماعة الصحابة وروى عنه جماعة من التابعين [١]، وقد عدّه بعضهم من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر [٢] ، فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

جهـــاده :

١ ـ شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، وغزا (إفريقية) ووليها [٣] ، وفي سنة اثنتين وستين الهجرية ردّ يزيد بن معاوية عُقبة بن نافع الفهري الى (إفريقية) [٤] فاستخلف على (القيروان) زهيراً [٥] وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة [٦] .

٢ ـ ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في (تَهُوْذَة) [٧] سنة ثلاث وستين الهجرية [٨] (٦٨٣ م) قصد (كسيلة بن لَمْزَم القـيروانَ في جمع كثير من الروم والبربر ، فعزم زهير على القتال، فخالفه حَنَش

---

(١) انظر التفاصيل في الإصابة (١٧/٣) وتهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .
(٢) رياض النفوس (٦٠/١) والاستقصا (٧٦/١) .
(٣) رياض النفوس (٦٠/١) .
(٤) رياض النفوس (٢٢/١) والاستقصا (٧٢/١) .
(٥) ابن الأثير (٤٣/٤) . وفي رياض النفوس (٢٢/١) وفتوح مصر والمغرب(٢٩٧) انه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي .
(٦) انظر تاريخ المغرب الكبير (٤٨/٢) .
(٧) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان (٤٣٨/٢) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) والبداية والنهاية (٢١٧/٨) وابن الأثـير (٤٣/٤) والإصابة (٨١/٥) .

الصنعاني وعاد[1] إلى مصر فتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير الى العودة معهم ، فسار الى (بَرْقَةَ)[2] وأقام بها[3] .

وقد زحف كسيلة البرنسي الى القيروان سنة أربع وستين الهجرية وانتزعها من يد المسلمين في المحرم[4] ، فعظم البلاء على المسلمين ، فقام زهير بن

(١) حنش الصنعاني : هو حنش بن عبدالله بن عمرو بن حنظلة أبو رشيد من صنعا دمشق . روى عن فضالة بن عبيد ورويفع بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد ، وروى عنه ابنه وقيس بن الحجاج وجماعة . غزا المغرب وسكن إفريقية وعداده في المصريين وهو تابعي كبير ثقة . دخل الأندلس وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة وقدم مصر بعد قتل علي وغزا المغرب والأندلس . كان حنش إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح وقرب المصحف وإناء فيه مـــاء ، فكان إذا وجد النعاس استنشق بالماء ، وإذا تعايا في آية نظر في المصحف ، وكان إذا جاءه سائل مستطعم لم يزل يصيح بأهله : « أطعموا السائل » ، حتى يطعم . نزل مصر ومات سنة مائة الهجرية ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأتى به عبد الملك في وثاق فعفا عنه ، وذلك لأن عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بإفريقيـــة سنة خمسين الهجرية ، فحفظ له ذلك . وكان حنش أول من ولي عشور إفريقية في الإسلام ، وكان له عقب بمصر . غزا الأندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : إن جامع سرقسطة من ثغور الأندلس من بنائه وأنه أول من اختطه . وفي رواية : أن أبا المهاجر دينار بعث حنش الصنعاني الى جزيرة شريك (في إفريقية) فافتتحها . أنظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٥/٩–١١) ومعجم البلدان (٥/٢٩٢–٢٩٣) والاستقصا (١/٧١) ، وقد جاء في ابن الأثير (٤/٤٣) ... فخالفه جيش الصنعاني .. انتهى ، والصحيح هو حنش لا جيش كما هو واضح .

(٢) برقة : إسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية واسم مدينتها : إنطابلس ، وتفسيره : الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٣٣).

(٣) ابن الأثير (٤/٤٣).

(٤) الاستقصا (١/١٧). وفي فتوح مصر والمغرب (٢٦٩): ثم زحف ابن الكاهنة (كسيلة) الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه . وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر لاجتماع ملأ البربر ، وأقام ضعفاء أصحابهما ومن كان خرج معهما من موالي إفريقية بأطرابلس ، وكان مقتل كسيلة في سنة أربع وستين الهجرية ... انتهى .

ومن الواضح ان هذه الرواية مرجوحة ، إذ أن كسيلة هو الذي جمع البربر والروم سنة أربع وستين الهجرية لقتال المسلمين في (القيروان) ، فاذا استطاع المسلمون قتله وقتل أصحابه ، فلماذا ينسحبون من (القيروان) ؟؟

قيس خطيباً في الناس ، فقال : « يا معشر المسلمين ! إن أصحابكم قد دخلوا الجنّة ، وقد من الله عليهم بالشهادة ؛ فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك » ؛ فقال حنش الصنعاني : « لا والله ، ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية ، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين الى مشرقهم » ، ثم قال : « يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القفول الى مشرقه فليتبعني » ، فأتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ؛ فنهض في أثره ولحق بقصره ؛ (برقة) ، فأقام بها مرابطاً الى دولة عبد الملك بن مروان . وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره ، فلما قرب من (القيروان) خرج من كان فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، فأمّن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله وعلى من فيه من المسلمين ، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان[1] . ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال ، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي بها من العرب . واضطرم المغرب ناراً ، وفشت الردة في البربر ، إلى أن استقلّ عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق ، فالتفت الى المغرب[2] ليصفي حسابه هناك .

وفي رواية ، أن زهيراً خليفة عقبة في القيروان ، لما بلغه ما جرى على عقبة ، رعب رعباً شديداً ، وأراد الإنصراف الى مصر ، فمنعه أحد أصحابه[3] وقال : « لا تفعل ، فإنها هزيمة الى مصر » ، ثم برز للعدو فكان أول من برز فضرب خباءه ، فلما رأى زهير عزمه ،

---

(١) الاستقصاء (١/١٨) ؛ وقد ورد في الاستقصا (١/٧٥) في خطاب زهير : « ... فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم » .

(٢) الاستقصا (١/٧٥) .

(٣) منهم ابن حيان الحضرمي . انظر رياض النفوس (١/٢٨) .

عزم معه ، وكان معه ستة آلاف رجل : ألفان من البربر ، وأربعة آلاف من العرب . وزحف زهير الى كسيلة وقاتله قتالاً شديداً ، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه مالا يحصى وتفرقوا[1] .

والظاهر أن الرواية الأولى هي أصح الروايات ، إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر ، وبعد أن ارتفعت معنوياتهم نتيجة لانتصارهم على عقبة بن نافع في (تهوذة) واستشهاده واستشهاد زهاء ثلاثمائة رجل من أصحابه معه ، خاصة وأن الرجال الذين كانوا مع زهير في القيروان على قلتهم ، لم يكونوا من المحاربين الممتازين ، إذ ليس هناك قائد يمكن أن يستغني عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ويبقيهم في الخلف وهم من محاربي الدرجة الأولى ؛ بل إن القادة يتركون في الخلف وراءهم محاربي الدرجة الثانية من كبار السن ، أو ذوي العاهات أو من غير الشجعان ... الخ ، ومثل هذا الجيش لا يستطيع صدّ جيش لجب كجيش كسيلة يتمتع بمعنويات عالية فائقة .

لذلك انسحب زهير من القيروان الى (برقة) ، وكان قراره هذا صحيحاً من الناحية العسكرية ، لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر ، يؤدي الى كارثة عسكرية تحل بجيشه دون مبرر ولا جدوى .

٣ ــ ولما استقلّ عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية كان زهير مرابطاً في (برقة) منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري[2] ، فذُكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم[3] من يد (كسيلة) وأن يُعزّ الإسلام بها كما كان في أيام عقبة ، فقال لهم عبد الملك : « من للأمر مثل عقبة ؟! » ،

---

(١) رياض النفوس (١/٢٨ – ٢٩) .

(٢) الاستقصا (١/٨١).

(٣) ابن الأثير (٤/٤٣).

فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير ، وكان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين ؛ فوجّه اليه عبد الملك ، وأمره بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية ، فسرّ ذلك زهيراً وسارع الى الجهاد[1] .

ولكن زهيراً كتب الى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر[2] ، وبقلّة من معه من الرجال والأموال ، فأرسل عبد الملك الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر ؛ فسارع الناس الى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير ؛ فلما وصلوا اليه خرج بهم الى (إفريقية) . فلما دنا من (القيروان) نزل بقرية يقال لها (قَلْشَانَة)[3] وذلك في سنة تسع وستين الهجرية ، فبلغ ذلك كسيلة — وكان في خلق عظيم من الروم والبربر ، فدعا كبارهم وأشرافهم ، وشاورهم وقال لهم : « أرى أن ننزل بـ (مَمِس)[4] لئلا يركبنا مَنْ بالقيروان فنهلك[5] ، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا ، فإذا نزلنا (ممس) أمناهم وقاتلنا زهيراً ، فإن ظفرنا بهم تبعناهم الى (طرابلس) وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا تعلّقنا بالجبال ونجونا[6] . كما أن الماء بـ (ممس) كثير » ، فأجابوه الى ذلك . ورحل الى (ممس) فبلغ ذلك زهيراً ، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح[7] .

---

(1) رياض النفوس (٢٩/١).
(2) الاستقصا (٨١/١).
(3) وردت في رياض النفوس (٣٠/١) : قرشانة ، ووردت في معجم البلدان (١٤٧/٧) قلشانة ، وهي مدينة بافريقية بضواحي القيروان . انظر معجم البلدان (١٤٧/٧) وهامش رياض النفوس (٣٠/١) ،
(4) وقد وردت في ابن الأثير (٤٣/٤) : ممش وهي في الهضبة في الجنوب الشرقي لجبال أوراس في الجزائر الآن.
(5) رياض النفوس (٣٠/١) وفي ابن خلدون (١٨٧/٤) : أن زهير أزحف سنة سبع وستين .
(6) ابن الأثير (٤٣/٤ — ٤٤).
(7) ابن الأثير (٤٤/٤) ورياض النفوس (٣٠/١) . والبيان المغرب (٢٠/١).

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة ، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس[1] وسائر البربر ولقيه بـ (ممس) من نواحي القيروان . وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول ؛ فلما أصبح زحف اليه . وأقبل كسيلة ومن معه ، فالتحم الفريقان ، ونزل الصبر وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة ، ولم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم ، وجدّوا في طلبهم الى وادي (مَلَويّة) واد بـ (طنجة) بالمغرب ، وفتح (شِقّبنّارِية)[2] وقلاعاً أخَر[3] ، وفتح مدينة (تُونس)[4] ؛ وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم[5] ، وقتل رجال البربر والروم ملوكهم وأشرافهم[6] ، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم ، فلجأوا الى الحصون والقلاع[7] واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر[8] . وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً ، وكسرت شوكة (أوربة)[9] من بينهم ، واستقرّ جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة (وَلِيلي) وكانت فيما بين (فاس) و (مكناسة) بجانب جبل (زَرْهُون) ، ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر[10] .

لقد كانت معركة (ممس) معركة حاسمة حقاً ، فقد قضى زهير على

(١) البرانس : قبيلة من البربر .

(٢) هي مدينة Sicca Vaneria الرومانية القديمة ، وتسمى الآن : الكف .

(٣) رياض النفوس (١/٣٠) وانظر ابن الأثير (٤/٤٤) والبيان المغرب (١/٢٠) والاستقصا (١/٨١).

(٤) البلاذري (٢٣١).

(٥) الاستقصا (١/٨١).

(٦) ابن الأثير (٤/٤٤).

(٧) البيان المغرب (١/٢٠).

(٨) الاستقصا (١/٨١) وقد وردت كلمة الفرنجة بديلا من كلمة الاسلام .

(٩) قبيلة من قبائل البربر .

(١٠) الاستقصا (١/٨١).

مقاومة البرانس ، فكان هذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح ؛ لأن بُتْر[1] البربر كانوا إلباً مع العرب أنصاراً لهم لانتشار الإسلام فيهم ، وأن البرانس من البربر حملوا لواء المقاومة يمدّهم الروم بالعون ؛ فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على العرب[2] .

٤ ـ وعاد زهير الى (القيروان) ، فرأى بإفريقية ملكاً عظيماً ، فأبى ان يقيم بهـا وقال : « إني ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن أميل الى الدنيا فأهلك » ، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين ؛ فترك القيروان آمنة ، وانصرف عنها ، وأقام بها كثير من أصحابه[3] .

ترك القيروان آمنة ، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة ، ورحل في جمع كثير الى مصر ، فبلغ الروم خروجه من (إفريقية) الى (برقة) ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة[4] من القسطنطينية وجزيرة صقلية[5] ، فأغاروا على برقة وأصابوا بها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير ، فأمر عسكره بالمسير الى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم . وأشرف على الروم ، فاذا هم في خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ؛ فنادى بأصحابه : «النزول» ، فنزلوا ، وكان أكثرهم من التابعين . ونزل الروم اليهم ، وتلقّوهم بعدد عظيم ، فالتحم القتال وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير وأشراف من كانوا معه مـن

---

(١) قبيلة من البربر .
(٢) فتح العرب للمغرب (٢٣٠).
(٣) انظر ابن الأثير (٤/٤٤) والبيـان المغرب (١/٢٠) والاستقصا (١/٨١) ورياض النفوس (١/٣١) .
(٤) البيان المغرب (١/٢١).
(٥) ابن الأثير (٤/٤٤).

العرب[1] ، ولم ينج منهم أحد ؛ وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية [2] .

وفي رواية ، أن الروم بالقسطنطينية عندما بلغهم مسير زهير من برقة الى إفريقية لقتال كسيلة ، اغتنموا خلوّها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة ، فأصابوا منها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم . ورحل هو ومن معه ، وكان الروم خلقاً كثيراً ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به ، فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال ، فاشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيراً وأصحابه ، ولم ينج منهم أحد ، فعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية[3]

ونحن جديرون أن نتأمل قليلاً هاتين الروايتين : الأولى أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من إفريقية الى برقة ، والثانية أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من برقة إلى إفريقية .

والفرق بين الروايتين كبير جداً من الناحية العسكرية ، فالرواية الأولى تدل على أن الروم استهدفوا من حملتهم جيش زهير بالدرجة الأولى ، لذلك جرى إنزالهم في برقة لا في الموانىء الإفريقية الأخرى وهي على طريق عودته من القيروان الى مصر ، لأجل سحق جيش زهير وهو الهدف السوقي (الاستراتيجي) الحيوي في الحرب ، لأن القضاء على الجيش معناه انتهاء كل مقاومة معادية .

ومما يدل على أن خطة الروم كانت ترمي الى القضاء على جيش زهير بالدرجة الأولى ، هو تحشيد جيش ضخم من القسطنطينية ومن صقلية في آن واحد وتوقيت إنزاله في برقة في وقت معين محدّد هو موعد وصول

---

(١) البيان المغرب (٢١/١).
(٢) ابن الأثير (٤٤/٤).
(٣) ابن الأثير (٤٤/٤).

جيش زهير الى تلك المنطقة ، ولو كانت نيّات الروم مجرّد غارة لما بذلوا كلّ هذه الاستعدادات الضخمة في إعداد الخطط الموقوتة وتحشيد الجيوش الكبيرة ، ولما اجروا إنزالهم في وقت وصول طلائع جيش زهير الى برقة أو قبله .

أما الرواية الثانية ، فتدل على أن خطة الروم كانت غارة لجمع الغنائم والأسلاب ، وهذه الغارة لا تحتاج إلى تلك الاستعدادات الدقيقة الموقوتة وتحشيد الجيوش الضخمة .

فمن الواضح إذاً ، أن الروم أجروا إنزالهم في برقة – مع كل ما ذكرنا من ضخامة الجيوش وضخامة الاستعدادات – للقضاء على جيش زهير ليفوّتوا عليه فرصة نجاحه الكبير في معركة (ممس) وليستعيدوا سلطتهم الكاملة على (إفريقية) ؛ لذلك فإن الرواية الأولى هي المقبولة ، لأنها تتفق مع والواقع الذي جرى فعلاً ، ولأن سير الحوادث يؤيدها من كل الوجوه .

لقد شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى ، لأن العرب المسلمين كانوا إذ ذاك يحاصرون القسطنطينية حصارهم الأول الذي بدأ سنة ثمان وأربعين الهجرية واستمر الى ما بعد سنة خمسين الهجرية ، ولبثت الدولة الرومانية بضعة أعوام بعد ذلك تقاسي عقابيل هذه المحنة التي كادت تودي بها ، فلم يعد إليها الهدوء الذي يسمح لها بالاهتمام بولاياتها إلا بعد سنة خمس وخمسين الهجرية[1] ؛ إذ نشط الروم بعدها نشاطاً مفاجئاً ترجع أسبابه إلى إسترجاع الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه الديني واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في (إفريقية) وغيرها[2] ، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة أستطاع فيها الروم أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم

---

(١) فتح العرب للمغرب (١٥٩).
(٢) فتح العرب للمغرب (٢١٣).

إستعداداً لصراع حاسم[1].

فلماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعاً لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في (ممس)؟ إن تعليل المراجع لذلك بقولها: إنه خشي الفتنة على نفسه، وكان من العباد المخبتين، فقال: «إنما جئت للجهاد في سبيل الله، وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا فأهلك[2]».. الخ تعليل ضعيف، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط في دار الحرب، فإذا فضّل على ذلك العودة الى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلاً على الورع أو بدافعه، بل دليل أمور أخرى وبدافعها[3]. فما أسباب عودته مسرعاً؟ الظاهر أن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة، لذلك سارع الى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولاً، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الاسلامية ثانياً؛ خاصة أنه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريباً، لعدم تيسّر قوات إسلامية كافية فيها تحميها من غارات الروم بجيوش ضخمة عليها، وليس معنى ذلك أن تلك المنطقة كانت محرومة تماماً من مدافعين عنها، إذ أن ذلك لا يمكن أن يحدث مطلقاً من الناحية العسكرية فلا بدّ أن يكون فيها عدد مناسب من الرجال لحمايتها من الغارات المحدودة أو من قوات معادية قليلة وذلك بمشاغلتهم مدة من الزمن حتى تردهم النجدات والإمداد، إذ لا يمكن أن يترك أي قائد أية منطقة على خطوط مواصلاته دون حماية كافية، ولكن القوة التي تركها في برقة لا ترقى أن تكون كافية في صد جيوش كبيرة، وهذا ليس خطأ زهير بتاتاً، إذ ليس بامكانه أن يوزع رجاله بأعداد كبيرة ليكوّنوا حاميات على طول خطوط مواصلاته التي تمتد الى قرابة ألفي ميل، وليس هناك قوة كافية لهذا الغرض، فلم

(1) فتح العرب للمغرب (٢١٥).
(2) الاستقصا (١/٨١).
(3) فتح العرب للمغرب (٢٢٧).

يكن له إلاّ أن يترك حاميات صغيرة في النقاط السوقية (الاستراتيجية) المهمة لحمايتها من قوات معادية محدودة ولفترة محدودة من الزمن.

ولكن المعلومات التي وردت عليه عن حشود الروم الضخمة باتجاه منطقة برقة، جعلته يقرّر فوراً العودة أدراجه الى تلك المنطقة لمواجهتها بقواته الضاربة، وفعلاً وصل الى تلك المنطقة في الوقت المناسب، ولكنه دُحر أمام الروم لأن قواته لم تكن كافية في إحراز الظفر عليها، بالرغم من إقدام زهير وإقدام رجاله على مقاتلة الروم بشجاعة وتضحية وفداء.

وهكذا سقط زهير وكثير من رجاله شهداء في ساحة الوغى، لأن القوتين العربية والرومية لم تكونا متكافئتين، ولأن العرب كانوا مجهدين من سفرهم الشاق الطويل آلاف الأميال، ولأن الوقت المتيسر لزهير لم يكن كافياً في إعداد الخطة العسكرية الدقيقة لمقاومة الغزو ولتلقّي الإمداد من المشرق، فاندفع زهير ودفع قواته بمثل تلك الظروف بحوافز عاطفية لتخليص الأسرى المسلمين من أيدي الروم، فوقعت الكارثة بزهير ورجاله، فخسروا كل شيء... إلا الشرف... ولم يكن بإمكانهم ولا بإمكان أي قائد آخر في مثل تلك الظروف والأحوال، أن يفعل غير ما فعله زهير وأصحابه فيلاقي نفس المصير الذي لاقوه.

الإنسان:

كان زهير صحابياً ولكننا لا نعلم عن أيامه الأولى شيئاً كثيراً، وكان ممن لزم عمرو بن العاص ودخل معه دمشق. وفي سنة أربع وستين الهجرية كان زهير بمصر فبعثه أميرها[1] إلى (أيْلَة)[2] ليمنع عبد العزيز بن

---

(١) كان أميرها حينذاك عبد الرحمن بن عتبة بن إياس الفهري. انظر الولاة والقضاة (٤١) وهو المعروف بابن جحدم.

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٩١).

مروان من المسير إليها ، وكان زهير حينذاك الى جانب عبد الله بن الزبير على بني أمية ، فهزم زهير ومن معه أمام عبد العزيز بن مروان[1] . ولعل هذا الحادث ترك أثره في نفس عبد العزيز بن مروان على زهير ، فقد ندب عبد العزيز زهيراً الى (برقة) وكان عبد العزيز أميراً على مصر ، فخاطب زهيراً بشيء ، فأجابه زهير : « أتقول هذا لرجل جمع ما أنزل الله على على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ »[2] .

كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين[3] صاحب فضل ودين[4] ، وكان من العباد المخبتين[5] ، وكان من العلماء المتفقهين .

شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية كما أسلفنا ، فاذا كان عمره يوم شهد فتح مصر زهاء عشرين عاماً ، واستشهد سنة إحدى وسبعين الهجرية[6] (٦٩٠ م) فليس من المعقول أن يكون عمره حينذاك اكثر من إحدى وسبعين سنة ، وإلا ما استطاع قيادة الجيوش ومعاناة أمور الحرب وتحمل أعبائها . لذلك كان من المحتمل أن يكون زهير قد ولد في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢ م) ، وقد دفن بـ(دَرْنَة)[7] قريباً من الشاطىء الذي استشهد فيه ، وقبره وقبور الشهداء الذين سقطوا معه معروفة هناك[8] .

وقد ورد في بعض المصادر أنه استشهد سنة ست وسبعين الهجرية[9] ، مع أن خليفته حسان بن النعمان تولى إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية[10] ،

---

(١) الولاة والقضاة (٤٣).

(٢) الاصابة (٣/٢٧) وانظر تهذيب ابن عساكر (٥/٣٩٣).

(٣) رياض النفوس (١/٢٩).

(٤) البيان المغرب (١/٢١).

(٥) الاستقصا (١/٨١) .

(٦) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٥) نقلا عن المؤنس .

(٧) درنة : مدينة في ليبيا على ساحل البحر شرقي بنغازي .

(٨) معجم البلدان (٤/٥٥).

(٩) الإصابة (٣/١٧) ومعجم البلدان (٤/٥٥).

(١٠) ابن الأثير (٤/١٤٣).

فلا بدّ أن حسان بن النعمان تولاها بعد استشهاد زهير لا قبله !

كما ورد في بعض المصادر ، أن زهيراً قُتِلَ سنة تسع وستين الهجرية[1]، وهذا مرجوح أيضاً ، لأنه ليس من المعقول أن يتولى زهير إفريقية وهو بـ(برقة) في هذه السنة ، ثم يُعِدّ جيشه ويتلقى الإمداد ويسير الى (القيروان) ويقاتل هناك ويطارد العدو ، ثم يعود أدراجه من القيروان الى (برقة) بعد مكوثه في (القيروان) ردحاً من الزمن ، ويتم كل ذلك خلال سنة واحدة ! !

ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير ، عظم عليه واشتد[2]، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة بن نافع قبله[3] لمكانة زهير السامية في نفوس العرب المسلمين .

لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح : شجاعة وبطولة وايماناً وورعـــاً .

القائـــد :

نشأ زهير في بيئة خالصة تتسم بالشجاعة والإقدام ، وترعرع في أيام الجهاد الاولى وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي ، وما كاد يشبّ إلا وانخرط في سلك المجاهدين الفاتحين ، فشهد فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، ثم شهد فتوح إفريقية ووليها أيضاً .

وحين أصبحت مصر بلداً إسلامياً وبدأ الفاتحون يتوغلون غرباً في إفريقية ، كان زهير مع أولئك الفاتحين . وفي سنة ست وأربعين الهجرية كان زهير في جيش عقبة بن نافع ، فاستخلفه عقبة على جيشه بـ (مغداش)[4]

---

(١) ابن الأثير (١٤٣/٤).
(٢) ابن الأثير (٤٤/٤).
(٣) البيان المغرب (٢١/١) ورياض النفوس (٣١/١).
(٤) مغداش : مدينة قريبة من سرت في طرابلس . انظر هامش فتوح مصر والمغرب (٢٦٢).

وسار بنفسه بمن خف معه لفتح (وَدّان)[1]، ثم عاد عقبة الى عسكره بعد خمسة أشهر[2]. وفي سنة اثنتين وستين الهجرية استخلفه عقبة على (القيروان) حين يمّم شطر المغرب الأقصى الى المحيط الأطلسي[3] كما مرّ بنا ذلك.

لقد كان زهير من أقرب المقرّبين الى عقبة وكان ساعده الأيمن في حروبه وغزواته، فلا عجب أن تجمع آراء ذوي الرأي من المسلمين على اختياره خلفاً لعقبة في فتح (إفريقية)[4] وأخذ ثارات شهداء (تَهوذّة): عقبـة وأصحابه، واستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من كسيلة المتغلب عليها[5].

هذه التجربة لزهير في إدارة الحروب ومعاناتها، أفادت المسلمين عندما أصبح قائداً لجيش إفريقية، فخاض معركة حاسمة في (ممس): ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم وقتل رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجأوا الى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر، وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً، وكسرت شوكة قبيلة (أوربة) القوية المتنفذة في إفريقية كما ذكرنا سابقاً.

وكان قرار زهير الخاص بمطاردة البربر بعد معركة (ممس) قراراً صائباً جداً يدعو الى التقدير والإعجاب، ولولا تلك المطاردة التي كانت بتماس شديد بالبربر لاستطاع البربر التسلل الى الجبال والتخلص

---

(١) ودان: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٧٦٩) كلم. انظر التفاصيل في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧).

(٢) انظر التفاصيل في فتوح مصر والمغرب (٢٦٢ – ٢٦٤) وفي ترجمة عقبة بن نافع الفهري في هذا الكتاب.

(٣) ابن الأثير (٤/٤٣ – ٤٤).

(٤) البيان المغرب (١/٢٩).

(٥) الاستقصا (١/٨١).

من الخسائر الفادحة التي لحقت بقواتهم ؛ وكان من نتائج تلك المطاردة الموفقة تفويت الفرصة على البربر للتملص من المعركة الخاسرة الى الجبال، وهم الذين تركوا القيروان الى (ممس) ليسهل عليهم الإفلات من العرب المسلمين في حالة دحرهم وذلك باللجوء الى الجبال المحيطة بالمنطقة لتقليل خسائرهم في الأرواح والمواد.

كما كان قرار زهير في البقاء خارج (القيروان) وعدم دخولها قراراً صائباً حقاً، لأن دخول المدينة يؤدي الى بعثرة قوات المسلمين للدفاع عنها، وبذلك تنقلب خطتهم الهجومية على جيش كسيلة الى خطة دفاعية، والهجوم وحده لا الدفاع هو الذي يؤدي الى إحراز الظفر.

أما استعداداته لإنجاز استحضارات جيشه عَدَداً وعُدَداً، فقد بلغت حدّ الروعة: أمره عبدالملك بن مروان بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية، فكتب الى عبدالملك يخبره بقلة من معه من الرجال والاموال. فأرسل عبد الملك الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر[1]، وبذلك طبّق زهير مبدئي (التحشد) و (الأمور الإدارية) على أحسن وجه.

ولكن زهيراً أخطأ في اصطدامه مع قوات الروم في منطقة (برقة) دون أن يتخذ كل الاجراءات اللازمة لضمان نجاح هذا الاصطدام، فمن الواضح أنه اصطدم مع الروم وهو بقوات قليلة هي قواته المتقدمة الخفيفة؛ فقد عدل هو الى الساحل في خيل يسيرة[2]، فوجد أسطول الروم من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين، فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه، فصمد اليهم فيمن معه وقاتل الروم حتى قتل، وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه[3]، فلما رآه المسلمون استغالوا

---

(1) رياض النفوس (1/29).
(2) معالم الايمان (1/54) وفي رياض النفوس (1/31): انه عدل الى الساحل بقوات كثيرة.
(3) الاستقصا (1/81).

به فلم يمكنه الرجوع ، وباشر القتال[1] ... وهذا يدل على أن الفرسان الذين معه كانوا قليلي العدد ، وأنهم جماعة متقدمة واجبها الاستطلاع فقط لا القتال ؛ ولكنه أنشب القتال خضوعاً لموجة عاطفية عارمة تورّط بتأثيرها هو وأصحابه في قتال غير متوقع في وقت ومكان غير مُناسبين ، وكان عليه أن يكبح جماح عاطفته ، إذ ليس في إعداد الخطط العسكرية مجال للأمور العاطفية ، ويجمع رجاله كافة ويستفيد من كل مقاتل متيسّر ، ويُعدّ الخطة المناسبة للقتال ، ويهيء الأمور الإدارية لقواته ، ثم يختار هو الوقت والمكان المناسبين لمهاجمة الروم ... عند ذاك تكون فرص نجاحه متهيئة ، ويكون قد أعدّ كل متطلبات القتال قبل نشوبه .

وعلى كل ، فإن العاطفة الدينية المتأججة حينذاك ، ورؤية الرجال والأطفال والنساء أسرى يقادون قسراً الى سفن الروم أدى الى تحمّس رجاله وإقدامهم دون تدبّر وتقدير الى مهاجمة الروم دون خطة مناسبة ولا قوات كافية ، وذلك مما أدى الى تورّط قواته وتورّطه هو نفسه في معركة خاسرة دفع هو ورجاله حياتهم الغالية ثمناً لها .

وربما يتبادر الى الأذهان ، السؤال الآتي : كيف نوفّق بين معرفة زهير بوجود قوات الروم في تلك المنطقة ، وكان ذلك من أهم أسباب عودته من (القيروان) الى (برقة) ، وبين إقدامه على التقدم الى تلك القوات على رأس ثلة من الفرسان فيتورّط في معركة خاسرة ؟ ولماذا لم يتدخل القسم الأكبر من جيشه في تلك المعركة في اثناء نشوبها لإنقاذ زهير وفرسانه ؟ ولماذا لم يأخذ ذلك الجيش بثأره — في الأقل — بعد استشهاده واستشهاد فرسانه معه ؟ ؟

وأبادر إلى الجواب ، بأن مثل هذا السؤال قد يتبادر الى غير العسكريين ، أما العسكريون الذين خاضوا غمار الحروب واصطلوا بنارها ، فيقدّرون

---

(١) ابن الأثير (٤/٤٤) .

أن ما حدث أمر طبيعي جداً بسبب ظروف الحرب غير الإعتيادية التي قدَ تفلت أحياناً من ايدي قادتها فتسير وتتطوّر على غير ما يشتهون .

والى أولئك الذين يتبادر الى أذهانهم مثل هذا السؤال من المدنيين ، والى العسكريين النظريين غير المجرّبين ، أسوق هذا الجواب .

لست أشك أن حامية منطقة (برقة) التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو ، ولحماية خطوط مواصلاته ، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيّات العدو المتربص بها ، فلا بد أن يكون لها مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر والروم : دوريات استطلاعية بريّة وبحرية ، ومراكب تمخر عباب البحر ، وعيون وأرصاد في مختلف الأماكن والاصقاع . بل إذا حصل كل عربي مسلم وكل مسلم مسؤولاً كان أو غير مسؤول على معلومات مفيدة عن العدو ، فإنه يرى نفسه مسؤولاً عند الله وعقيدته وقومه عن إيصال تلك المعلومات إلى المسؤولين بأسرع وقت وبإسرع وسيلة .

هذه الحامية الساهرة لمصالح المسلمين المرابطة دفاعاً عن أرواحهم وأرضهم وكرامتهم وعزّتهم ، أنذرت زهيراً — على اعتباره المسؤول الأول عن إفريقية — بتحركات الروم من القسطنطينية ومن صقلية ، وقد تكون هذه المعلومات — خاصة عن تحركات الروم من القسطنطينية — وصلت إليها من المشرق أو حصلت عليها بوسائلها الخاصة أو حصل عليها زهير بوسائله الخاصة ، فعاد زهير بقواته الضاربة لحماية منطقة برقة المهدّدة بقوات الروم ؛ ثم تقدّم زهير على رأس قطعاته الراكبة التي حرص على قيادتها بنفسه — وهذا من مميزات القائد الممتاز ، إذ يكون دائماً في الأمام قريباً من مواطن الخطر — تقدم بنفسه لاستطلاع مواضع إنزال الروم ، ومعرفة قوتهم وتسليحهم ، وذلك لإعداد الخطة المناسبة لمقاومتهم ، ولكنه — على ما يظهر — فوجىء بالمسلمين يقادون قسراً

وهم أسرى الى مراكب الروم ، فاستغاث به هولاء ، فتورطت جماعة من رجاله خضوعاً لعاطفتهم المتأججة في الاشتباك مع الروم دون خطة مدبرة ولا استعداد مسبّق لخوض المعركة ، فكانت الكارثة التي لحقت بزهير وبفرسانه الأبطال .

أما لماذا لم ينجدهم رجالهم الذين يتقدّمون باتجاه العدو . فمن المحتمل أن يكونوا بعيدين عن ساحة المعركة ، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا بعيدين ولكنهم وصلوا الى ساحة المعركة بعد فوات الوقت المناسب ، ففت استشهاد قائدهم في اعضادهم ، فأصبحوا بغير قيادة ، وانهارت معنوياتهم ، ولا قيمة لجيش بغير قيادة ولا معنويات .

ومن المعلوم أن المعارك الحربية في العصور القديمة قبل اختراع البارود وقبل اختراع الأسلحة الحديثة ، يتقرّر مصيرها خلال ساعات قليلة ، وقد يكون استشهاد القائد وحده هو العامل المهم في الهزيمة .

ترى ! هل نلقي اللّوم كله على زهير في تورّطه بالاشتباك بالروم دون استعداد كافٍ وفي وقت ومكان غير مناسبين ؟ !

إن ظروف الحرب ظروف غير اعتيادية ، وشتان ما بين من يجلس الى مكتبه ليدرس معركة من المعارك فيقرّر وهو آمن مستريح : هذا صحيح وهذا خطأ ، وهذا أصاب وهذا أخطأ ؛ وبين من يعاني ويلات الحرب ويصطلي بنارها .

إن سير الحوادث في الحرب قد يكون تياراً عارماً يجرف القائد دون إرادة منه ويجرف من معه من الرجال .

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاداً لا يقلّ روعة وجلالاً عن استشهاد عقبة بن نافع الفهري ، فأثار مصرعه ثائرة العرب المسلمين ، وحفّزهم الى مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه . وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم في مسير الفتوح ، إذ كان زهير

قد حسب – بعد قتله كسيلة – أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت ، وأن البلاد أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب الى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، وإلى ما يمكن أن يسببوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم ، ويستمدون العون من بيزنطة نفسها . وكما كان مصرع عقبة محدداً لمهمة زهير ، كان مقتل زهير محدداً لمهمة حسان بن النعمان – من بعده – فأنفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم ، حتى تمكن من ذلك تماماً[1].

وهكذا كانت حياة زهير الغالية بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة ؛ وكانت خاتمة حياته المشرّفة ، بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة ..

لقد كان من نتائج استشهاده تكامل الفتح الإسلامي في إفريقية ، فأصبحت تلك البلاد إسلامية كما هو الحال في مصر وأرض الشام والعراق وغيرها من البلاد ، وأصبح الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً مستداماً كما هو الحال في تلك الأقطار .

لقد كان زهير مجاهداً قائداً ، يتّسم بكل ما يتسم به المؤمن بالجهاد من مزايا التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة الله وهو كما قال : « إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا »[2] ، ولعلّ إيمانه العميق بالجهاد حبّب اليه الاستشهاد وجعله يستأثر بالخطر دون أصحابه ، فيكون دائماً قريباً من مواطن الخطر طلباً لما عند الله من أجر للشهداء ، وكان يحب رجاله ويحبونه ويثق بهم ويثقون به لما كان يتمتع به من ماض مجيد في الجهاد . وكان ذا تجربة طويلة عملية للحروب ، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده ، فكان مجاهداً من المهد الى اللحد كما يقولون .

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٢٩ – ٢٣٠) .
(٢) رياض النفوس (١/٣٠) .

وكان في حروبه يطبّق مبدأ (التحشد) ومبدأ (التعرض) ومبدأ (الأمور الإدارية)، فكانت استعداداته للقتال ممتازة حقاً.

لقد كان من أولئك الذين نذروا أنفسهم لعقيدتهم، فسقط أخيراً في ساحات القتال دون أن يسقط السيف من يده.

زهير في التاريخ:

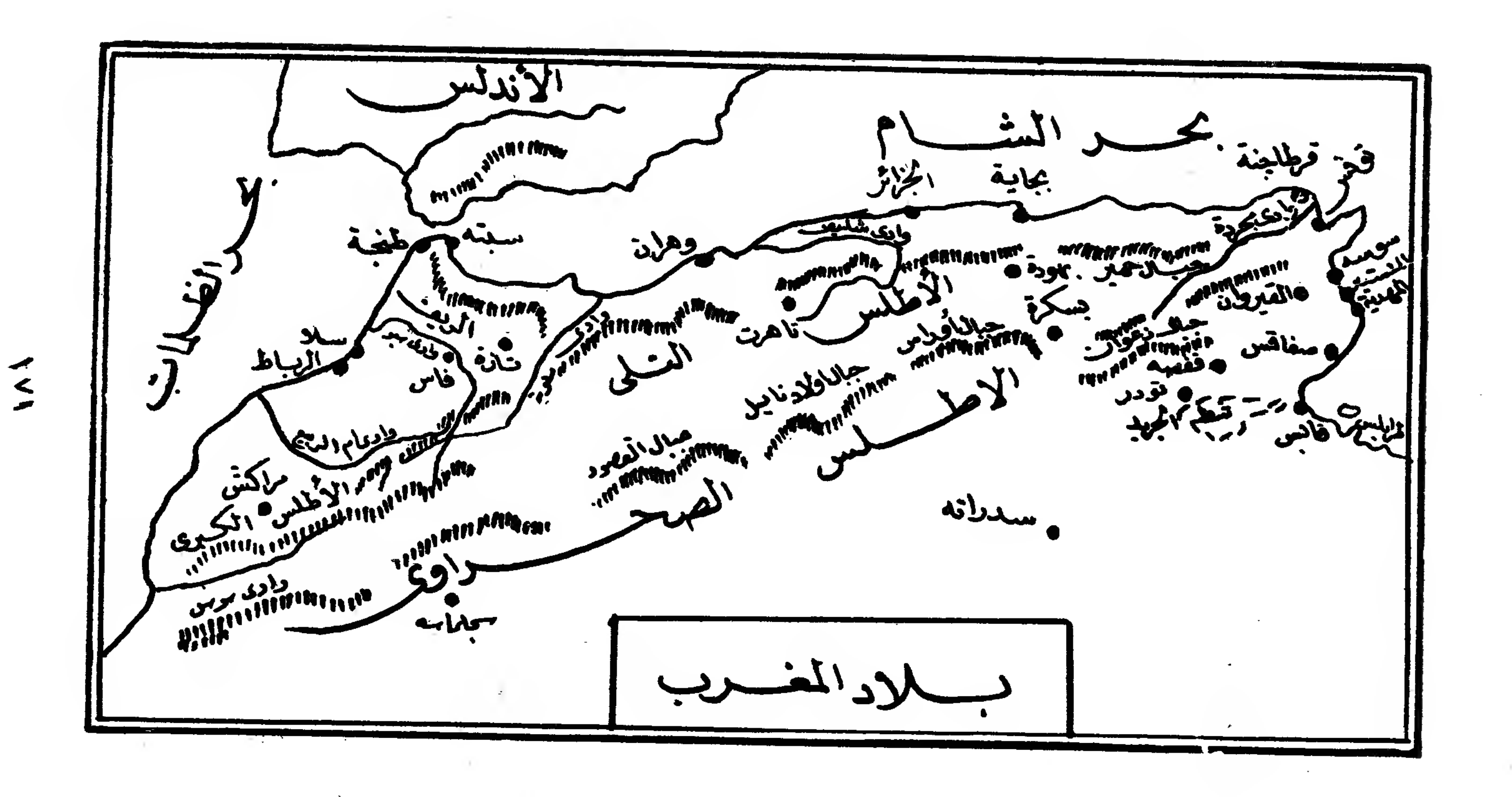
يذكر التاريخ لزهير استنقاذه القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها.

ويذكر له، أنه كان نعم المطالب بدم عقبة بن نافع الفهري، وهو الذي أخذ ثأر عقبة من قاتله كسيلة، فهو الذي قتل كسيلة وقتل عدداً ضخماً من رجاله وفرسانه ورجال حلفائه الروم وفرسانهم.

ويذكر له أنه انتصر في معركة حاسمة على البربر في (ممس)، ففزع منه أهل إفريقية واشتد خوفهم فلجأوا الى الحصون والقلاع.

ويذكر له، أنه ضحى بنفسه من أجل عقيدته ولم يضح بعقيدته من أجل نفسه.

رضي الله عن الصحابي الجليل، التقي النقي، المؤمن الورع، البطل الشهيد، القائد الفاتح زهير بن قيس البَلَوِي.



الأندلس
بحر الشام
قرطاجنة
بجاية
الجزائر
بحر الظلمات
سبتة
طنجة
وهران
سلا
الرباط
الريف
تازة
فاس
تاهرت
الأطلس
التل
بسكرة
جبال الأوراس
جبال أولاد نايل
القيروان
سفاقس
قفصة
توزر
قابس
طرابلس
المهدية
سوسة
مراكش
الأطلس الكبير
جبال المصمودة
الأطلس
الصحراء
سدراتة
سجلماسة
وادي سوس
وادي أم الربيع
بلاد المغرب

حسّان بن النُّعمان الأزدي الغسّاني(1)

فاتح قرطاجنّة وفاس
وقائد المعركة الحاسمة ضد الروم في إفريقية

« ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني »

(عبد الملك بن مروان)

نسبه وأيامه الأولى :

هو حَسّان بن النُّعْمان بن عديّ بن مغيث بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء[2] بن الأزد[3] .

أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للامبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي ، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً[4] ، فنشأ

---

(1) كل ولد عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد، يدعون غسان ، فغسان من الأزد . انظر جمهرة أنساب العرب (٣٣١) وانظر المنتخب في ذكر قبائل العرب (٦٣ — ٧٠) .

(2) عامر هو ماء السماء ، وكل أولاد عمرو بن عامر يدعون غسان ، وهم بنو الحارث ومالك وكعب بني عمرو مزيقياء فقط . انظر جمهرة أنساب العرب (٣٣١) ومزيقياء لقب عمرو المذكور ، وكان من ملوك اليمن ، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب ، فإذا أمسى مزقهما وخلعهما لأنه يكره أن يعوذ فيهما . وماء السماء لقب عامر لجوده وكثرة نفعه فشبه بالغيث . انظر وفيات الأعيان (٤/٤٣٩) .

(3) البيان المغرب (١/٢٣) .

(4) لا يزال أولاد الغساسنة في أرض الشام ، منهم مسلمون ومنهم نصارى حتى اليوم ، ومن المسلمين الأمير شكيب أرسلان .

وترعرع في بيت عريق له ماضٍ مجيد في القيادة والحكم . انتقل جدّه عمرو مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن الى أرض الشام[1] ، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني غسّان .

كان حسّان من التابعين ، وقد حدّث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2] ، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس ، حتى أطلق عليه لقب : الشيخ الأمين[3] .

جهـــاده :

١ ـ لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البَلَوِي[4] وأصحابه إشتدّ عليه وعلى المسلمين ذلك ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري وأصحابه . وسأل أشرافُ المسلمين عبد الملك أن ينظر إلى أهل (إفريقية) ويؤمّنهم من عدوّهم ويبعث الجيوش إليهم ، فقال عبد الملك : « ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني »[5] . ولما قتل عبدالله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية[6] أصبح عبدالملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش الى إفريقية ، اذ اجتمع المسلمون عليه ، فجهز جيشاً كثيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان ابن النعمان وسيرهم اليها في سنة أربع وسبعين الهجرية[7] . وفي رواية أن حسان بن النعمان قدم والياً على المغرب أقره عليها عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجرية[8] . وفي رواية أنه قدم إفريقية سنة ثمان وسبعين

---

(١) وفيات الاعيان (٤/٤٣٩) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦) .
(٣) الاستقصا (١/٨٢) .
(٤) انظر ترجمته في هذا الكتاب (١٥٠ - ١٧٠) .
(٥) رياض النفوس (١/٣١) .
(٦) العبر (١/٨١) وشذرات الذهب (١/٧٩) .
(٧) ابن الأثير (٤/١٤٣) .
(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩) .

الهجرية[1] . وفي رواية أنه قدمها خلال سنوات ست وسبعين أو سبع وسبعين أو ثمان وسبعين الهجرية[2] . وفي رواية أنه قدمها سنة تسع وسبعين الهجرية[3] . فما علّة هذا التباين الشديد ؟ ربما جاز تعليل ذلك بأن حسّان قام بحملتين لا حملة واحدة : فتح في الاولى (قَرْطَاجَنّة)[4] ثم اتّجه نحو الكاهنة[5] فانهزم ، واتّجه في الثانية نحو الكاهنة ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى ، فاختلط الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل في كلتيهما ، وتردّدوا بين كل السنوات التي انقضت بين مسيره الأول ومسيره الثاني[6] .

ومن الواضح أن الموقف العسكري لعبد الملك بعد مقتل زهير بن قيس البَلَوي سنة إحدى وسبعين الهجرية لم يكن ليساعد على الاستغناء عن جيوشه لاسترداد ما ضاع من (إفريقية) : ففي سنة اثنتين وسبعين الهجرية قضى عبد الملك على مصعب بن الزبير في العراق[7] ، وفي هذه السنة جهّز الحجّاج

(١) البيان المغرب (١/٢٢) .

(٢) المؤنس (٣١) .

(٣) الخلاصة النقية (١٠) .

(٤) قرطاجنة : ويسميها أهل تونس اليوم المعلقة . وكانت قرطاجنة مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها ، وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلا ، وكان بينهما قرى متصلة عامرة . وفي هذه المدينة آثار عظيمة وأبنية ضخمة وأعمدة قائمة ، وتونس عمرت من خراب قرطاجنة . انظر التفاصيل في البيان المغرب (١/٢٣) ومعجم البلدان (٧/٥٢) والمشترك وضعاً (٣٤٢) .

(٥) الكاهنة : امرأة بربرية قوية الشخصية ذكية الفؤاد ، احترفت السحر والكهانة . والكاهن في البربر كالكاهن عند العرب في الجاهلية ، هو عالم قومه ومستشار ناحيته والقاضي الذي يفصل في كثير من النوازل. واسم الكاهنة داهيا بنت ماتيا بن تيفان ، وكان زوجها ملكاً على جبال أوراس فترك لها ثلاثة أولاد - كما ذكر ابن عذارى المراكشي والسلاوي المغربي - صغار أوصى بالملك لهم ، فقامت أمهم مقامهم ، والكاهنة من قبيلة جراوة من زناتة القبيلة البربرية المشهورة التي كانت لها الزعامة والملك في جبال أوراس . انظر التفاصيل في تاريخ المغرب الكبير (٢/٧٢ - ٧٧) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٨ - ٨٩) وفتح العرب للمغرب (٢٤٢ - ٢٤٦) والبيان المغرب (١/٢٥) وتاريخ المغرب (١/٦٥) والاستقصا (١/٨٢ - ٨٣) .

(٦) فتح العرب للمغرب (٢٣٥) .

(٧) العبر (١/٨٠) .

ابن يوسف الثقفي الى مكة لحرب عبد الله بن الزبير [١] ، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية نازل الحجاجُ عبد الله بن الزبير وقضى عليه في جمادى الأولى ، فاستوثق الأمر لعبد الملك بمقتل ابن الزبير[٢] فحجّ سنة خمس وسبعين الهجرية[٣] ، مما يدل على استتاب الأمور وحلول الإستقرار .

وما كان لعبد الملك أن يصبر على ما يحدق بالمسلمين من خطر في (إفريقية) ولا أن يرضى بأقل من استعادتها وفتح ما استعصى فتحه على المسلمين منها بعد عام الجماعة وهو سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٤] ، لذلك كان أول عمل نفّذه هو إرسال حسّان إلى (إفريقية) بعد أن اجتمع أشراف العرب وسألوه أن ينظر لإفريقية من يسدّ ثغرها ويصلح أمرها[٥] ، وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٦] ، وهذا التاريخ هو أقرب التواريخ لسير الحوادث من الناحية العسكرية [٧].

٢ ـ ودأب حسّان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصر عدة لما يحدث . وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى (إفريقية) ويقول له : « إني أطلقت يدك في أموال مصر ، فاعط من معك ومن ورد عليك ، واعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة

---

(١) العبر (٨١/١).

(٢) العبر (٨١/١ - ٨٢).

(٣) العبر (٨٥/١).

(٤) تاريخ بغداد (٣٩٠/١٠).

(٥) البيان المغرب (٢١/١ - ٢٢).

(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩).

(٧) انظر ترجمة عبد الملك . وفي كتاب فتح العرب للمغرب (٢٢٦) ، أن حملة حسان سارت سنة ٧٦ ه أو سنة ٧٨ ه ، لأن عبد الملك ما كان ليستغني عن أربعين ألفاً من جنوده إلا بعد خمود الفتن واستقرار الأحوال ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ٧٥ ه ... انتهى ، والحق أن الفتن الداخلية لم تسكت حتى بعد ذلك التاريخ ، ولكنها كانت فتناً محلية عالجها الولاة المحليون ، فما كان منها في العراق - وهذه أهمها - عالجها الحجاج بن يوسف محلياً بمعاونة عبد الملك ، وهذه الفتن ليست بدرجة من الخطورة بحيث تهدد كيان الدولة في الشام .

الله وعونه »[1] .

كم من الوقت أمضى حسّان لإنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً ؟ إن الوقت الذي يستغرقه إنجاز استحضارات مثل هذا الجيش : تسليحه وتجهيزه وتأمين قضاياه الإدارية ... الخ لا يقلّ عن عام أو أكثر أو أقل من عام بشهور قليلة على كل حال ، لذلك سار هذا الجيش لاستعادة فتح إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية ، فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله[2] ، فكان حسّان أول من دخل إفريقية من أهل الشام في زمن بني أميّة[3] .

كانت المسافة بين (الفُسطاط) في مصر والقيروان في تُونس (١٥٣٠) ميلاً[4] ، يمكن قطعها بـ (٤٧) مرحلة[5] نظامية في أوقات السلم ولقوات قليلة كالمفارز الاستطلاعية أو موظفي البريد وبدون استراحة .

والقوات الجسيمة كجيش حسّان الذي قدم إفريقية في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قط إفريقية بمثل ما دخلها[6] ، لا يمكن أن تقطع هذه المسافة بمثل هذا الوقت ، كما أنه لا بد لها من إعطاء فترات من الإستراحة لجمع شمل القطعات المتحركة وجرد موجودها وإدامة تجهيزاتها ونقليتها ،

---

(١) البيان المغرب (٢٢/١).

(٢) ابن الأثير (١٤٣/٤) ، وابن خلدون (١٨٧/٤).

(٣) رياض النفوس (٣١/١) ، وحسان كما مر بنا غساني من أهل الشام الأصليين ، وكان من سبقه من قادة الجيوش من غير أهل الشام .

(٤) المسافة بالأميال القديمة ، والميل القديم أربعة آلاف ذراع . أنظر معجم البلدان (٣٥/١) ، وهذه المسافة استخلصتها من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، فمن الفسطاط الى الاسكندرية (١٨٧) ميلا ، ومن الاسكندرية الى برقة (٥٢٢) ميلا ، ومن برقة الى اجدابية (١٥٤) ميلا ، ومن (اجدابية) الى سرت ١٨٦ ميلا ، ومن سرت إلى طرابلس (٢١١) ميلا ، ومن طرابلس الى قابس (١٥٨) ميلا ، ومن قابس الى القيروان (١٢١) ميلا ، فيكون مجموع مسافة الطريق (١٥٣٠) ميلا . انظر المسالك والممالك (٨٤ — ٨٦).

(٥) انظر تفاصيل المراحل في الأعلاق النفيسة (٣٤٢ — ٣٤٧).

(٦) البيان المغرب (٢٣).

كما أن حركة مثل هذه القوات الجسيمة باتجاه العدو لا يكون مسيراً سلمياً، بل يجب إتخاذ تدابير تعبوية لحمايتها فيكون مسيرها مسيراً تعبوياً مما يؤدي إلى تأخير حركتها؛ فإذا أدخلنا في حسابنا كل ذلك، وأضفنا إليه، أن كل ستة مراحل تحتاج إلى يوم إستراحة للقطعات، وأنّ كل شهر من المسير -كمعدل- يحتاج إلى أسبوع واحد -كمعدّل أيضاً- استراحة القطعات ولتقليتها من الحيوانات، علمنا أن جيش حسّان هذا لا يمكن أن يصل من الفسطاط في مصر إلى مثابته في القيروان، قبل ثلاثة أشهر على أقل تقدير.

فإذا أضفنا إلى هذه المدة، الفترة التي قضاها حسّان في القيروان لتجهيز جيشه وإكمال إستعداداته الإدارية للحرب، وإنجاز إستطلاعاته الضرورية للحصول على المعلومات عن العدو: قوته وتسليحه والمنطقة التي سيقاتل عليها، أدركنا أنه قضى سنة أربع وستين الهجرية في تحشيد قواته وإعدادها للحرب، وأنه خاض معركة قرطاجنة سنة خمس وسبعين الهجرية أو ست وسبعين الهجرية (٦٩٥ م)، وهذا ما يتفق مع ما ذكره المؤرخان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور من أن حسّان هاجم قرطاجنّة هجومه الأول سنة (٦٩٥ م) أي سنة ست وسبعين الهجرية [(١)].

ومضى حسّان في جيشه الكبير، حتى نزل (طرابلس) الغرب، فاجتمع إليه بها من كان خرج معه من إفريقيّة وطرابلس، فأرسل مقدّمة جيشه إلى إفريقية وعليها محمد بن أبي بكير وهلال بن ثَرْوان اللّواتي وزهير ابن قيس، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة [(٢)]، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق

---

(١) انظر فتح العرب للمغرب (٢٣٦) وهذا يتفق مع ما ذكره القيرواني في المؤنس (١٨٧)، وهو يخالف ما ذكره صاحب معجم البلدان (٥٣/٧): أن قرطاجنة هدمها حسان حوالي سنة سبعين الهجرية.

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩ - ٢٧٠).

سكان تلك المنطقة من المسلمين به ، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على طريق جيش حسّان، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة . وإن تولي هلال بن ثروان اللواتي ، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين ، يدل على أن العرب المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب ، ويدل على أن بعض البربر اطمأنوا للعرب المسلمين . ولكن نلاحظ أن زهيراً كان في مقدمة جيش حسّان ، وهذا يخالف ما ذكرناه في ترجمته من أنه استشهد في رجوعه إلى المشرق بعد قتل كسيلة .

٢ ـ كان مقتل زهير بن قيس البلوي وأصحابه على يد الروم ببرقة ، قد ترك أثره العميق في نفوس المسلمين كافة ، فكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه[١] ، وكان من نتائج مقتله أن المسلمين عرفوا أنه لا تمام لفتح إفريقية إلا إذا أزيل من ربوعها الروم .

وما كاد حسّان ينجز إستحضارات جيشه من كل الوجوه ، إلا وسأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ » ، فقالوا : « صاحب قرطاجنة دار ملك إفريقية[٢] ، وقرطاجنة هي المدينة العظمى، قريعة رومة وضرّتها وإحدى عجائب الدنيا »، وكان يومئذ بها جموع من الروم أمم لا تحصى[٣]، ولم يكن المسلمون قط حاربوها[٤] وفتحوها عنوة ، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك[٥] كما ذكرنا سابقاً ويتركونها إلى أهداف أخرى .

---

(١) رياض النفوس (٣١/١).
(٢) البيان المغرب (٢٣/١).
(٣) الاستقصا (٨٢/١).
(٤) ابن الأثير (١٤٣/٤).
(٥) أنظر تفاصيل ذلك في ترجمة أبي المهاجر دينار كمثال على تصرف المسلين في حربهم لقرطاجنة .

فلما وصل حسّان إلى قرطاجنّة رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة ، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك إجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس[1] ، ففتحها عنوة[2] ، فسباها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمران ، فاجتمعوا إليه مسرعين ، فأمرهم بهدم قرطاجنّة وقطع القناة عنها[3] .

وانصرف حسّان عن قرطاجنّة عائداً إلى القيروان ، فعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب ملك قرطاجنّة عنها ، فبادروا إليها فدخلوها . ورحل إليها حسّان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف ، فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم ونهبهم . وأرسل لمن حواليها فاجتمعوا إليه مسارعين ، خوفاً من عظيم سطوته وشدّة بأسه ؛ فلما أتوه ولم يبق منهم أحد ، أمرهم بتخريب قرطاجنّة وهدمها ، فخرّبوها حتى صارت كأمس الغابر[4] .

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي بها المدافعون عنها مرة أخرى ، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة — وهذان العملان نفّذهما في فتحه الأول لقرطاجنة . ومن إجرائه هذا ، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية الحيوية فقط .

ولكنه في فتحها ثانية حاول أن يخرّب أكثر ما يمكن من مرافقها الحيوية ، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً ، ولكنه لم ينجح في تدمير مرافقها الحيوية كافة ، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً ، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ،

---

(١) ابن الأثير (٤/١٤٣).

(٢) الحلة السيراء (٢/٣٣١) وابن خلدون (٤/١٨٧) وابن الأثير (٤/١٤٣).

(٣) رياض النفوس (١/٣٢).

(٤) البيان المغرب (١/٢٤).

حتى أن الروم تحصّنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات[1] ، وهذا ما يفهم من قول النويري : « فهدم المسلمون ما أمكن منها »[2] ، ولم تصبح قرطاجنة عفاءً كأمس الغابر كما جاء في البيان المغرب في أخبار المغرب .

وتنبّه حسّان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة ، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون .. يحتمون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ؛ فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في (صَطْفُورَة)[3] و (بَنْزَرْت)[4] وهما مدينتان ، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة ، ولكن المسلمين صبروا لهم ، فانهزم الروم ، وكثر القتل فيهم ، فاستولى المسلمون على بلادهم ؛ ولم يترك حسّان موضعاً من بلادهم إلاّ وطئه . وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة (بَاجَة)[5] فتحصّنوا بها ، وتحصّن البربر بمدينة (بُونَة)[6] ؛ فعاد حسّان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه ، فأقام بها حتى صحوا [7] .

لقد كانت معركة (قرطاجنة) الأولى — تلك التي أدّت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس وإلى صقلية وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة ، معركة حاسمة ، أدّت إلى اندحار الروم اندحاراً حاسماً في إفريقيـــة ،

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٤٠).

(٢) نهاية الأرب ص (٧٤ ب).

(٣) صطفورة : بلدة من نواحي إفريقية . انظر معجم البلدان (٥/٣٠٦)

(٤) بنزرت . مدينة بافريقية (تونس) بينها وبين مدينة تونس يومان ، وهي مشرفة على البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٩٢) وتقويم البلدان (١٤٢ — ١٤٣) وآثار البلاد (١٥٩).

(٥) باجه : بلدة بإفريقية تعرف بـ (باجه القمح) لكثرة محصولاتها من القمح . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٥) والمشترك وضعاً (٣٣).

(٦) بونة : مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٠٩).

(٧) ابن الأثير (٤/١٤٣) والبيان المغرب (١/٢٤) ورياض النفوس (١/٣٢).

وكانت معركة قرطاجنّة الثانية ومعركة (صطفورة) و (بنزرت) تلك التي أدّت إلى تشتيت فلول قوّات الروم وبعض حلفائهم البربر، كانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، طهّر بها حسّان منطقة قرطاجنّة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم؛ وكان قرار حسّان في الإقدام على هذه المعارك الثانوية قراراً صائباً، لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطىء قدم ورأس جسر يهيء للروم العودة مرة أخرى إلى قرطاجنّة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية أو من الأندلس، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدّي إلاّ إلى خسائر فادحة في الأرواح والمواد؛ كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان، وإقامته فيها حتى برئت جراح أصحابه[1]، وأراح بها أياماً[2]، وأكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا صائباً أيضاً، إذ لا بد للجرحى أن يشفوا من جراحهم، ولا بد للجيش من راحه بعد ما نال من رجاله طول القتال، ولا بد للقضايا الإدارية من معالجة وإكمال

وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى

٣ ــ وسأل حسان أهل القيروان، عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يُسلم، فدلّوه على إمرأة بجبل (أوراس)[3]، يقال لها: الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها. فإن قتلتها دان لك المغرب كلّه ولم يبق لك فيه مضاد ولا

---

(١) رياض النفوس (٣٢/١).

(٢) البيان المغرب (٢٥/١) والاستقصا (٨٢/١).

(٣) أوراس: جبل بإفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٠/١) ويقع بالجزائر، وكان الثوار يلجأون اليه أيام الثورة الجزائرية على الفرنسيين.

معاند[1] . وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة ، وكانت بربرية ، وقد إجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة[2] ، وهي إذ ذاك ملكة (جراوة) من قبائل البربر الكبيرة ، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر[3] ، بل هي ملكة البربر[4] دون منازع . وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم ، وربُّوا في حجرها ، فاستبدّت عليهم ، واعتزّت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة ، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها[5] .

وعزم حسّان على قصدها ، فخرج إليها بجيوشه ، فلما بلغ موضعا يقال له : (مَجّانة)[6] نزل بها ، وكانت قلعة لم نفتح ، فتحصّن بها الروم ، فمضى حسّان وتركهم[7] . وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل (أوراس) في عدد لا يحصى ، فنزلت في مدينة (بَاغَايَة)[8] فأخرجت من بها وهدمتها ، إذ ظنّت أن حسّان يريد حصنها ليتحصّن به منها . وأقبل حسّان حين بلغه الخبر إلى وادي (مِكْنَاسَة)[9] ، فقيل له : « إنها

---

(1) البيان المغرب (1/25).

(2) ابن الأثير (4/143).

(3) ابن خلدون (4/187).

(4) فتح مصر والمغرب (270).

(5) الاستقصا (1/82).

(6) مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/386).

(7) رياض النفوس (1/32).

(8) باغاية : مدينة كبيرة بين مجانة وقسنطينة . انظر معجم البلدان (2/41).

(9) مكناسة : مدينة بالمغرب في بلاد البربر ، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق . وهناك مدينة مشهورة أخرى يقال لها : مكناسة الزيتون ، حصينة مكينة في طريق المار من فاس الى سلا على شاطىء البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (8/133) . ووردت : مكناسة في رياض النفوس (1/33) ، ووردت : سكتانة تصحيف في البيان المغرب (1/25) ولم أجد ذكراً لمثل هذا الاسم في معجم البلدان ، مما يدل على أن مكناسة أصح وأن سكتانة تصحيف . وسمي الوادي باسم هذه المدينة .

قد أقبلت في عدد لا يحصى » ، فقال لهم : « دلّوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه »[١] ، فمالوا الى نهل (نِينِي)[٢] فنزل عليه[٣] . وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه ، فكان حسّان يشرب هو وأصحابه من أعلاه وتشرب هي وأصحابها من أسفل النهر . ودنا الطرفان من بعضهما ، فأبى حسّان أن يقاتلها آخر النهار[٤] ، وأبى أن يقاتلها بالليل ، وبات الفريقان على مصافهم[٥] ؛ فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وعظم البلاء ، وظن المسلمون أنه الفناء ، فانهزم حسّان بعد بلاء عظيم ، وقتل من العرب خلق كثير ، فسمي ذلك اليوم : يوم البلاء[٦] ، وسمي النهر الذي التقوا عليه : نهر البلاء[٧] ، فاتبعته الكاهنة بمن معها ، حتى خرج من حد (قَابِس)[٨] ، فأسلم إفريقية ومضى على وجهه ، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي ، وكان رجلاً مذكوراً[٩] . فأحسنت[١٠] إسارهم ، إلا خالد بن يزيد وكان أذكر من كان مع حسّان ، فحبسته عندها ، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلوّ فأمرت به فَلُتَّ بزيت ، والبربر تسمي ذلك : (البسيسة)[١١] ، وقالت لخالد : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولديّ » ، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت ، وجعلته

---

(١) رياض النفوس (٣٢/١ - ٣٣) والبيان المغرب (٢٥/١).
(٢) نيني : نهر مشهور بإفريقية . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٩/٨).
(٣) ابن الأثير (١٤٣/٤) .
(٤) البيان المغرب (٢٥/١) .
(٥) أي على صفوفهم متهيئين للقتال .
(٦) رياض النفوس (٣٣/١) وانظر البلاذري (٢٣١) .
(٧) فتح مصر والمغرب (٢٧٠).
(٨) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان(٢/٧)
(٩) رياض النفوس (٣٣/١) .
(١٠) في معالم الايمان (٥٧/١) : أساءت
(١١) رياض النفوس (٣٣/١ - ٣٤) .

على ثدييها ، ودعت ولديها وقالت : «كلا معه على ثدييّ » ، ففعلا ؛ فقالت : « قد صرتم إخوة » ؛ وكانت الكاهنة من جماعة من البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم[1] .

لماذا انتصر البربر على المسلمين في هذه المعركة ؟ أكان ذلك من جراء قلّة جيوش المسلمين ؟ إن جيش المسلمين كانوا أربعين ألفاً أو يزيدون ، وقد انتصروا على أقوى معقل للروم في إفريقية وهو قرطاجنّة ، وطهّروا المنطقة المحيطة بها من الروم ، ولم يكن البربر بدرجة من القوة والمنعة يتفوقون بهما على الروم حينذاك . أكان اندحار المسلمين من جراء نقص في تدابيرهم الإدارية ؟ لقد أنجز حسّان تدابيره الإدارية بشكل يدعو إلى التقدير بالإعجاب — حتّى لقد اهتمّ بتفاصيل تلك التدابير ، فعـــاد إلى القيروان وبقي هناك مدة من الزمن إلى أن برئت جراح أصحابه[2] وأراح بالقيروان أياماً[3] ، لذلك لم يكن جند حسان مجهدين[4] حين خاضوا معركة (نيني) الحامية ، ولم تكن تدابيرهم الإدارية ناقصة !

هل كان فشل العرب المسلمين لضعف قيادتهم ورصانة قيادة البربر ؟ الحق أن الكاهنة كانت تتمتع بمزايا قيادية ممتازة ، فقد كانت مسيطرة على رجالها سيطرة مؤثرة واضحة ، فاستطاعت أن تثير البربر وتحفّزهم لقتال العرب المسلمين بحماسة وإقدام ، فلما انتهت المعركة طاردت المسلمين إلى حدود قابس ، مما يدل على صواب قراراتها وسيطرتها الكاملة على رجالها ، وأنها كانت تمتلك خطة مرسومة واضحة هي رد المسلمين عن منطقتها إلى

---

(١) البيان المغرب (١/٢٧) ولا تزال مثل هذه العادة موجودة عند بعض القبائل ، ومنها اليزيدية في العراق .

(٢) رياض النفوس (١/٣٢) وابن الأثير (٤/١٤٣) .

(٣) البيان المغرب (١/٢٥) .

(٤) ذلك ما جعله مؤلف كتاب : فتح العرب للمغرب (١٤٨) من أسباب فشل المسلمين ، وهذا غير وارد .

خارج حدودها ... ومع ذلك فكانت قيادة حسّان قيادة ممتازة أيضاً كما هو واضح من سير أعماله العسكرية، ولم يكن قائداً ضعيفاً بحيث يكون وجوده على رأس جيشه من مصلحة العدو.

لعلّ من أسباب فشل المسلمين في هذه المرّة، أنهم قاتلوا بدواً مثلهم يجيدون النزال في الميدان طال عهدهم بنزال البيزنطيين[1]، وأن المسلمين أعجبتهم كثرتهم فاستهانوا بعدوهم، فلم يبذلوا قصارى جهدهم في القتال: احتقروا البربر، واحتقروا قيادتهم المتمثلة بالكاهنة وهي إمرأة، فظنوا أن الإنتصار على البربر —وهم في كثرة كاثرة— وعدّة كاملة، سهل، وأن نتائج هذه المعركة مضمونة، فوقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه جيش الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة (حُنَيْن) إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً ...

فلماذا أحسنت الكاهنة إلى الأسرى من المسلمين؟ يبدو أنها أدخلت في حسابها احتمال إنتقام البربر المسلمين —وكان الإسلام قد تغلغل في صفوفهم— إذا هي أساءت معاملتهم، كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة، إذ أنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة (نيني)؟ وقد يكون لتقرّب خالد بن يزيد منها أثر كبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جداً أن خالداً بذل جهوده بعد أن أصبح أثيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى، فكان له ما أراد.

ولكن، لماذا اكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في قلب الأوراس، ثم تتبعت حسّان حتى أخرجته من حدود إفريقية، ولم تسر إلى القيروان فتقضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل (كسيلة) من قبل؟؟

لقد استخلف حسّان أبا صالح علي إفريقية[2]، وقد كانت القيروان

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٤٨).
(٢) فتح مصر والمغرب (٢٧٠).

عامرة بالمسلمين ، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان ؟؟.

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في الأوراس ، فاكتفت بابعاد القوة الضاربة من المسلمين عنها ، تلك القوة التي كانت تهدّد سلامة الأوراس وسكانها[1] ، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين ، فلا خطر على الكاهنة منهم . كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها غير المحاربين بالفناء ، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرّر .

وإذا علمنا أن قوم الكاهنة هم من البدو ، وأن هؤلاء يحتاجون الى كثير مما تنتجه المدن من مواد غذائية وصناعية ، وأن المسلمين كانوا أقرب إلى نفوس البربر من الروم لرحمتهم والتزامهم بمبادىء الحق والعدل والإنصاف ، علمنا أن المحافظة على القيروان وسكانها الذين لا يشكلون خطراً على سلامة منطقة الكاهنة وأمنها ، كان من صالح قبائل الكاهنة التي تفتقر إلى ما ينتجه المسلمون من مواد زراعية وصناعية .

ومهما يكن من شيء ، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسسها الكاهنة بسوء ، فأقام من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح ، ولم تحفل الكاهنة لهم وإنما عادت إلى (الأوراس)، وبهذا لا نخطىء إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتقاض تام ، وكان حسّان يفهم هذه الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك[2] .

٤ ـ أ ـ طفق حسّان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا

---

(١) انظر : فتح العرب للمغرب (٢٤٩).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٤٩).

به[1] ، وذلك أثناء انسحابه من معركة (نيني) ، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في إلقيروان كانوا غير محاربين ، فلما فصل من (قابس) كتب إلى أمير المؤمنين يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة ؛ فكتب إليه أمير المؤمنين : « قد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابي هذا ، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري » ، فلقيه الكتاب وهو نازل بمكان يقال له اليوم : قصور حسّان ، فبنى هناك قصراً لنفسه[2] ونزل قصوراً من حيز (برقة) فسميت : قصور حسّان[3] ، وكانت (أنْطابُلُس[4]) و (لُوبْيِة[5]) و (مَرَاقِية[6]) الى حد (أجْدابِيَة[7]) من عمل حسان[8] ، فأقام بعمل (برقة) خمس سنوات[9] .

وتوافت على حسّان فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك ، فدعا حسّان عند ذاك برجل يثق به ، وبعثه الى خالد بن يزيد[10] ، فأتاه فقال له : « إن حسان يقول لك ، ما يمنعك من الكتابة إلينا ؟ »[11] ، وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور ، فكتب خالد

---

(1) معالم الإيمان (1/57) ورياض النفوس (1/33).

(2) رياض النفوس (1/33).

(3) قصور حسان : قصور بناها حسان في منطقة برقة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (7/114).

(4) انطابلس : معناه بالرومية : الخمس مدن ، وهي مدينة بناحية برقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (1/353).

(5) لوبية : هي ليبيا ، وهي المنطقة التي تقع غربي مصر وجنوبي البحر الأبيض المتوسط الى حدود تونس .

(6) مراقية : أول بلد يلقي القاصد من الاسكندرية الى إفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (8/6). وهي بلدة في ليبيا .

(7) أجدابية : بلد بين برقة وطرابلس الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (1/121).

(8) فتوح مصر والمغرب (270).

(9) ابن الأثير (4/143). وفي رياض النفوس (1/33) : إنه أقام ثلاث سنين .

(10) البيان المغرب (1/28).

(11) فتوح مصر والمغرب (270).

في ظهر كتاب حسّان : « إن البربر متفرقون ، لا نظام لهم ولا رأي عندهم ؛ فاطوِ المراحل وجدَّ في السير » ، وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجّهه بها إلى حسّان[1] . وكان خالد قد أنضج الخبزة[2] فاحترق الكتاب بالنار[3] ، فلما كسر حسّان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه اليه خالد وجده قد أفسدته النار ؛ فقال له حسّان : « إرجع اليه » . وعاد الرجل إلى خالد ، فكتب إلى حسّان بما كتب أولاً وأودعه قربوس[4] السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتّى استوى وخفي مكانه[5] .

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا ، فقد بذل حسّان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيّمة عن تفرّق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم ، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حدّ الروعة والإتقان ، فهو يخفي رسالته الى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه بالنار حتّى لا يشك في أمره أحد ، وهو تارة يخفيها في قربوس السرج ويطبق عليه حتّى يستوي ويخفي مكانه ، ولن يستطيع ضابط إستخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق كتماناً مما فعله خالد في تدابيره تلك ، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسّان علم ما يحتاج إليه[6] .

ب ـ فماذا كان يجري في الجانب الآخر ... عند الكاهنة وأتباعها ؛؟؟

ملكت الكاهنة إفريقية كلها، وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم[7]،

---

(١) البيان المغرب (٢٨/١) وابن الأثير (١٤٣/٤) وانظر رياض النفوس (٣٤/١).
(٢) رياض النفوس (٣٤/١).
(٣) ابن الأثير (١٤٣/٤) والبيان المغرب (٢٨/١).
(٤) القربوس : حنو السرج .
(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) وانظر ابن الأثير (١٤٣/٤).
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) .
(٧) ابن الأثير (١٤٣/٤).

أي ان الإضطرابات سادت البلاد طوال الفترة التي نغيب العرب عنها خلالها ، وذلك طبيعي لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع لقوم منهم ؛ فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء هجوم العرب، عارضها نفر منهم ، فاضطرّت الى اصطناع الشدة معهم فثاروا بها ، فانتشر الاضطراب في البلاد ، بل فكر بعضهم في الاستنجاد بالعرب واستدعائهم كما سترى[1] .

ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات ، فلمـــا رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : « إن العرب إنما يطلبون من إفريقيّة المدائن والذهب والفضّة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ! » ، فوجّهت قومها إلى كل ناحية : يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ؛ فذكروا أن افريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى (طَنْجة)[2] وقرى متّصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألفي ميل في مثله ؛ فخربت الكاهنة ذلك كلّه ... وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير ، مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، فتفرّقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية[3] ...

وفي رواية ، أن الكاهنة لما علمت بمسير حسّان إليها قالت « إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، ولا أرى إلا أن أخرّب إفريقية حتى ييأسوا منها » ، وفرّقت أصحابهـــا ليخربوا البلاد ، فخرّبوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال . وهذا هو التخريب الأول لإفريقية[4] .

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٥٠).

(٢) طنجة : مدينة قديمة على البحر ، بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٦٢) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢).

(٣) البيان المغرب (١/٢٦) ، وفي وصف حالة افريقية حينذاك مبالغة كما يبدو .

(٤) ابن الأثير (٤/١٤٣ – ١٤٤).

كان تخريب إفريقية سياسة طائشة بلا شك ، فكان عمل الكاهنة هذا من أهم العوامل لتقويض ملكها وزوال سلطانها ، إذ استاء الروم والبربر على حد سواء مما فعلت ، واضطر كثير منهم إلى الجلاء عن إفريقية ، كما فترت عزائمهم في الدفاع عن بلادهم ، لأنهم إنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وموارد رزقهم ، فلما أتت الكاهنة على ما في بلادهم من موارد الثروة وجمال العمران تركتهم ضحية للفقر والجوع ، فليس من سبب يدعوهم إلى بذل أرواحهم من أجل أرض أصبحت خراباً بلقعاً[1] .

لقد أضرّ هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً ، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيّدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها . لهذا لم يلبث الإستياء أن عمّ البلاد من تصرّف الكاهنة ، وأسرع بعض أهلها فاستغاث بحسّان واستقدمه ، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها ، وزادت البلاد سوءاً على سوء[2] .

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة في بلادها : إدارة سيئة ، وظلم للناس ، وتخريب للبلاد ، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية .

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لهدف العرب المسلمين من الفتح ، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها ؛ فلم تكن همّتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع ، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسّان ولا في سياسته ، ولم تجن الكاهنة من أعمالها تلك إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب العرب[3] .

---

(١) أنظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٩٠ - ٩١).
(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٣)
(٣) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٢).

جـ ـ فماذا عن الروم وحركاتهم في إفريقية بعد إندحار حسّان أمام الكاهنة ، وفي أثناء بقائه متحفزاً في قصور حسّان من أرض برقة بـ (سُرْت)[1].

وجد الروم في خروج حسّان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد ـ ليونتيوس ـ الذي خلف جستنيان الثاني سنة ٦٩٥ م (٧٤ هـ) قد أهمّهُ سقوط قرطاجنّة في يد العرب وتخريب حسّان لها ، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية ـ دون مقاومة ـ أمراً سهلاً على نفسه ، كما يقول ديل ، فلم تكد أخبار هزيمة حسّان على نهر نيني ترد إليه ، حتّى عجّل بالعمل . فقد أعدّ حملة كبيرة لإفريقية ، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً ، لأنه تخيّر لقيادتها قائداً من أشهر قوّاد الدولة وأقدرهم هو البطريق[2] يوحنا (Patricius Jean) وأعدّ أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية .

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنّة في سنة ٦٩٧ م (٧٨ هـ) ، وتمكّن من الاستيلاء على المدينة بيسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها (الذين كان على رأسهم أبو صالح) ، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة ، حتّى أنه كان ليقتل الكفّار بيده ـ كما يقول تيوفانس ونقفور ـ ؛ فلما تمّ له ذلك ، اكتفى به وأراح في قرطاجنّة طيلة شتاء هذه السنة ، غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر[3] .

وعلم حسّان بما فعله الروم بالمسلمين ، فأرسل أربعين رجلاً من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب اليه بما نال المسلمين من البلاء ،

---

(١) انظر تاريخ المغرب الكبير (٨٧/١) الذي يذكر أن قصور حسان تقع بسرت . وسرت مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٥).

(٢) البطريق : الشريف .

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٥٤).

وأقام هناك مرابطاً ينتظر رأي عبد الملك[1].

يبدو أن حركة الروم كانت حركة إنتقامية ليس إلاّ، قتلوا المسلمين وأسروا منهم، ولو كان هدف الروم من حركتهم هذه إستعادة إفريقية لعملوا على الإتجاه شرقاً نحو منطقـــة برقة لمحاربة حسّان وإجباره على الإنسحاب من تلك المنطقة؛ ولكنهم اكتفوا باستعادة قرطاجنّة والمدن المجاورة لها واستقروا فيها محتمين بأسوارها؛ وربما كان استقرارهم هناك يعود إلى ضعف إمكاناتهم العسكرية، فلم تكن قوتهم بدرجة من المقدرة على محاربة المسلمين في أنحاء إفريقية الأخرى.

و ــ بهاتين الحركتين: حركة الكاهنة، وحركة البطريق يوحنا، تمّ انتقاض إفريقيـــة على العرب، وخرجت من يدهم جملة، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يــلي (قابس) غرباً. وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه: أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي، بينما اهتمّ يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتـــدّ من (سُوسَة [2]) الى (شِقَبّنارية) [3].

كان حسّان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة إفريقية وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها.

بينما كانت الكاهنة وكان الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى ــ كل ذلك يسّر لحسّان إستعادة فتح إفريقية وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها.

هـ ــ أقام حسّان خمس سنوات على مقربة من (سرت) في المكان المسمى: قصور حسان، يلحّ على عبد الملك بن مزوان لإرسال الإمدادات

---

(١) وصف إفريقية للبكري (٣٧ – ٣٨) نقلا عن فتح العرب للمغرب (٢٥٥).

(٢) سوسة: بلد بالمغرب بينها وبين سفاقس يومان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٣/٥).

(٣) شقبنارية: بلد بإفريقية. انظر معجم البلدان (٥٧/٥ – ٢٨١).

إليه ، فلماذا تأخّر عبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسّان الملحّة المشروعة ؟؟

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية : ففي سنة ست وسبعين الهجرية وجّه الحجاج زائدة بن قدامة الثقفي ابن عم المختار الثقفي لحرب شبيب بن قيس الخارجي الشيباني ، فاستظهر شبيب وقتل زائدة وهزم العساكر مرات ، واستفحل أمر شبيب[1] . وفي سنة سبع وسبعين الهجرية بعث الحجاج لحرب شبيب عتّاب بن ورْقاء الخزاعي الرياحي ، فلقي شبيباً بسواد الكوفة فقتل شبيب عتاباً وهزم جيشه ؛ فبعث الحجاج لقتاله الحارث بن معاوية الثقفي ، فقتل الحارث أيضاً ؛ فوجه الحجاج إليه أبا الورد النضري فقتل ، فوجه إليه طهمان مولى عثمان بن عفان فقتل أيضاً ؛ فسار إليه الحجاج بنفسه فاستطاع القضاء على فتنته[2] . وفي هذه السنة خرج مطرّف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان، ولحق بالجبال فقتل هناك[3] . وفي سنة تسع وسبعين الهجرية أصاب أهل الشام الطاعون حتّى كادوا يفنون من شدّته ، فلم يغز في تلك السنة أحد[4] . وفي سنة ثمانين بعث الحجاج على (سِجِسْتَان)[5] عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث الكندي ، فلما استقرّ بها خلع الحجاج وخرج ، فكانت بينهما حروب طاحنة يطول شرحها[6] . وفي سنة إحدى وثمانين الهجرية اشتدت الحرب بين الحجاج وبين ابن الأشعث ، فقام مع ابن الأشعث عامة أهل

(١) شذرات الذهب (١/٨٣) والعبر (١/٨٦) وانظر التفاصيل في الطبري (٥/٥٧ - ٨٤).

(٢) شذرات الذهب (١/٨٣) والعبر (١/٨٧) وانظر التفاصيل في الطبري (٥/٨٤ - ١٠٦).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٥/١٠٦ - ١١٩).

(٤) الطبري (٥/١٢٦) والعبر (١/٩٠) وشذرات الذهب (١/٨٧).

(٥) سجستان : اسم منطقة واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام أو ثمانون فرسخاً، وهي جنوبي هراة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٧) وانظر حدودها في المسالك والممالك (١٣٨) وآثار البلاد (٢٠١).

(٦) شذرات الذهب (١/٨٧) والعبر (١/٩٠).

البصرة من العلماء والعباد ، فاجتمع له جيش عظيم لقوا الحجاج يوم الأضحى ، فانكشف عسكر الحجاج وانهزم هو ، وتمّت بينهما عدّة وقعات ، قيل : كان بينهما أربع وثمانون وقعة في مائة يوم ، ثلاث وثمانون على الحجاج ، والآخرة له[1] . وكانت ثورة ابن الأشعث ثورة خطيرة جداً ، حتى كاد ابن الأشعث أن يغلب على أهل العراق[2] ، واستمرت ثورته هذه حتى سنة أربع وثمانين الهجرية ، حيث قتل ابن الأشعث بـ (سجستان) [3].

هكذا مرّت هذه الفترة الحافلة : ثورات داخلية لا بد من تحشيد الجيوش للقضاء عليها ، وغزوات للروم في سنة سبع وسبعين الهجرية[4] وثمانين الهجرية[5] ، وهذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية ، وذلك ، حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام ، لأن الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظامات الحروب ... وطاعون ذريع في أرض الشام لا يبقي ولا يذر ... كل ذلك منع عبد الملك بن مروان تلبية طلبات حسّان الملحّة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها ...

٥ ــ وسيّر عبد الملك إلى حسّان الجنود والأموال[6] ، وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها[7] ، حتى إذا أكمل إستحضاراته للقتال وتهيئة جيشه مادياً ومعنوياً ، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة[8] ، فرحل

---

(١) العبر (١/٩٢) وشذرات الذهب (١/٨٨) وانظر التفاصيل في الطبري (٥/١٤٥ – ١٥١).
(٢) العبر (١/٩٤) وشذرات الذهب (١/٩٠).
(٣) العبر (١/٩٧) وشذرات الذهب (١/٩٤).
(٤) العبر (١/٨٨).
(٥) العبر (١/٩٢).
(٦) ابن الأثير (٤/١٤٣).
(٧) البيان المغرب (١/٢٨).
(٨) ابن الأثير (٤/١٤٣).

حسان إليها[1] في أواخر سنة إحدى وثمانين الهجرية[2]. وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال (أوراس) في خلق عظيم[3].

ولما اقترب حسّان من الكاهنة، خرجت ناشرة شعرها، فقالت: «يا بنيّ! انظروا ماذا ترون في السماء؟»، فقالوا: «نرى شيئاً من سحاب أحمر»، فقالت: «لا وإلهي، ولكنها رَهْبَج[4]، خيل العرب». ثم قالت لخالد بن يزيد: «إني إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم. أنا مقتولة، فأوصيك بأخويك هذين خيراً فانطلق فخذ لهما أماناً!»... فانطلق خالد فلقي حسّان، فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها أماناً[5].

وفي رواية: إن حسان لما رحل إلى الكاهنة وبلغها خبر رحيله، رحلت من جبل أوراس، في خلق عظيم. فلما كان في الليل قالت لابنيها: «إني مقتولة»، وأعلمتهم أنهـا رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يـدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسّان. فقال لها خالد بن يزيد: «فارحلي بنا وخلي له عن البلاد»، فامتنعت ورأته عاراً لقومها. فقال لها خالـد وأولادها: «فما نحن صانعون بعدك»؟! ، فقالت: «أما أنت يا خالد، فتدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم. وأما أولادي، فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للـبربر عزاً». ثم قالت: اركبوا واستأمنوا إليه»، فركب خالد وأولادها في الليل، وتوجّهوا إلى حسّان، فأخبره خالد بخبرها، وأنها علمت قتلها، وقد وجّهت إليك أولادها. فوكل بهما من يحفظهما، وقدّم خالداً على أعنّة الخيل. وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها، فقالت: «انظروا ما دهمكم! فإني مقتولة»... ثم التحم

---

(١) البيان المغرب (١/٢٨).
(٢) فتح العرب للمغرب (٢٥٦).
(٣) البيان المغرب (١/٢٨).
(٤) الرهج: الغبار.
(٥) فتوح مصر والمغرب (١٧١) ورياض النفوس (١/٣٤ - ٣٥).

القتال واشتدّ الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة ، فأتبعها حسّان حتى قتلها [1].

ورواية الحوادث على هذا النسق أدخل في باب القصص منها في التاريخ ، ولكن (جوتييه) يؤكد أنه لا يبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه دون زيادة أو اختراع ، ويورد مثلاً حياً حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصّة الكاهنة إذ استأمن زعيم بربري لأولاده عند القائد الفرنسي ، وأقام هو على الحرب ، فكان أولاده يقاتلونه في الميدان في الموقعة التي مات فيهـا [2].

وكان مع حسّان جماعة من البربر استأمنوا اليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه إثني عشر ألفاً من قبائلهم يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه ، فعقد لولديّ الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر[3].

وفي رواية ، أنه كان مع حسّان جماعة من البتْر (قبيلة من البربر) ، فولّى عليهم حسّان الأكبر من ابني الكاهنة وقرّبه . ومضى حسّان ومن معه ، فلقي الكاهنة في أصل جبل فقتلت وعامة من معها ، فسميت :

---

(١) البيان المغرب (١/٢٨ – ٢٩).

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٨). قال جوتييه في التعليق على هذه القصة : « هذه القصة في الواقع بربرية لحماً ودماً سببها تقسيمهم إلى برانس وبتر ، ويجد الإنسان شبيهاً لها في مراكش في القرن العشرين ، فقد حدث ذلك للقائد الفرنسي . إذ استطاع رئيس قبيلة جبلية يسكن منطقة (زيان) واسمه : موحا أوحمو ، أن ينتصر على القائد الفرنسي انتصاراً حاسماً . وبعد إنقضاء سبع سنوات أيقن أن جانبه قد ضعف وأن المقاومة مستحيلة ، فماذا يعمل؟ لجأ إلى حل خاص جداً ، هو بعينه ما فعلت الكاهنة ، وهو عمل يدهشنا كما أدهش العرب قبل خمسمائة وألف سنة ، هل يدع القتال ؟ لا ! كما فعلت الكاهنة ، فقد رأى ذلك عاراً عليه . ولكنه أمر أولاده أن يستأمنوا عند القائد ويسلموا له ! وأطاع هؤلاء دون تفكير واشتركوا في الموقعة الفاصلة الأخيرة التي قتل فيها أبوهم ، أي أنهم اشتركوا في قتله ، ثم أصبحوا بعد ذلك أنصاراً أعزاء ليوطي خليفة حسان البعيد .

(٣) البيان المغرب (١/٢٩).

بتر الكاهنة [1] .

كيف استطاعت الكاهنة أن تتنبــأ بقتلها ؟ يبــدو أن الروم والبرانس ونفراً من البتر سئموا حكم الكاهنة ، فنفضوا أيديهم منها ــ خاصة بعد تخريب إفريقية ــ ولظلمها وتعسّفها ، يدلنا على ذلك أن حسّان عندما قرب من بلادها لقيه جميع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها ، فسرّه ذلك . وسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء ، وجعل فيها عاملاً . وسار إلى (قَفْصَة) [2] ليتقرّب الطريق ، فأطاعه من بها واستولى عليها وعــلى (قَسْطِيْلِيَة) [3] و (نَفْزَاوَة) [4] ، وبلغ الكاهنة قدومه [5] ، وهذا دليل على أن أهل البلاد سارعوا إلى لقاء العرب وانضموا تحت لوائهم ، فكان مع حسّان جماعة من البربر يستأمنون اليه [6] ، وكان معه جماعة من البربر البُتْر [7] .

وماذا يكون مصير من انقلب عليه أعوانه فأصبحوا أعداءه ، وتخلّى عنه مناصروه فأصبحوا في صفوف خصومه ؟

لقد التفّ حول الكاهنة أعداء العرب من الروم ومن قومها ، فصاولوا جيش المسلمين في معركة (نيني) وانتصروا عليهم . وبدلاً من أن توطّد الكاهنة أركان ملكها بالعدل والعمران ، زعزعته بالظلم والتخريب ، وبدلاً

---

(1) فتوح مصر والمغرب (171) .

(2) قفصة : بلدة صغيرة في طرف (إفريقية) من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/138) .

(3) قسطيلية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/88) .

(4) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (8/303) .

(5) ابن الأثير (4/144) .

(6) البيان المغرب (1/29) .

(7) فتوح مصر والمغرب (171) .

من أن يكون شعارها : كل يوم صديق أو أصدقاء جُدد ، كان شعارها : كل يوم عدو أو أعداء جدد ... ودار الزمن دورته خلال خمس سنوات ، كان المسلمون يتهيأون ليلاً ونهاراً للقضاء على ملكها ، وكانت هي تعمل ليلاً ونهاراً بصورة غير مباشرة لمعاونة المسلمين في تحقيق هدفهم ، وذلك بتصرفاتها الظالمة ، فلما حان وقت معركة الجولة الثانية ، تخلى عنها حلفاؤها من الروم والبربر ، فقاتلت بمعاونة رجال قبيلتها، ولكنها توقعت مصيرها المحتوم ... مصير كل ظالم مخرّب .. وتنبأت سلفاً بمصيرها ... هذا المصير الذي لا يحتاج توقعه إلى كهانة أو معرفة بالغيب .

وكانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين الهجرية[1] (٧٠١ م) ، وبعد قتل الكاهنة أخلد البربر الى الطاعة واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام[2] ، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم تبق أمام العرب غير مقاومات طفيفة من بعض قبائل البربر .

٦ ــ وعاد حسّان إلى (القيروان) بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية[3]، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية ، فلما استراح جيشه وأنجز حسّان إستحضاراته إتّجه إلى شمال القيروان ، إذ لا زالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر ، وكانت جبال (زَغْوَان)[4] في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنّة لا تزال موطناً لمقاومة البربر والروم ، ولعل قربها من قرطاجنة

---

(١) البيان المغرب (٢٩/١).
(٢) الفتح العربي في ليبيا (٩٢).
(٣) البيان المغرب (٢٩/١).
(٤) جبل زغوان : هو جبل بإفريقية ، بالقرب من مدينة تونس ، وهو جبل منيف مشرف، وفيه قرى كثيرة آهلة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩٤/٤).

جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة ؛ فأرسل إليها حسّان مولاه (أبا صالح) فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى ، فأسرع إليها حسّان بنفسه ففتحها صلحاً .

ولم يبق على حسّان إلاّ استعادة فتح قرطاجنّة ، وكان (يوحنّا) ورجاله من الروم قد حصّنوها وأعادوا ما تهدّم من أسوارها ، وكانوا يرقبون حركات حسّان ؛ فسار إليهم ، فتحصّنوا بها . وحاصرهم حسّان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة ، فالتجأ إلى قرطاجنّة محتمياً بها[1] . وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنّة في يد حسّان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنّا ، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة، ليعود منها مرة أخرى بعدّة أقوى، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنّة قط[2] .

كانت للروم سفن بباب النساء ، فحملوا نساءهم وأولادهم ليلاً ، وأسلموا المدينة ، ولم يبق بها إلا الملك المسمى ب (مرياف) وأهله وولده ، فكتب إلى حسّان : « هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشترط لنفسي ما شئته من المنـــازل ، وأسلم لك المدينة ؟ » . ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها ، فأجابه حسّان إلى ذلك ، فاشترط الأرض المسماة بمرياف ، وهي إذ ذاك قرى كثيرة ، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير ولده وأهله ، فوفى له حسّان بما أعطاه من العهد ، وأقام مرياف مالكاً لهـــذه الأرض ، وهي الناحية المسماة اليوم بمرياف في تونس[3] .

ولما فتح حسّان قرطاجنّة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ، ففتحها ... وكان قد استمد عبد الملك بن مروان ، فأمدّه بأسطول تحت

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٤ – ١٠٥).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٦٠).

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٥) نقلا عن المسالك والممالك للبكري (٣٧) ونزهة الأنظار لابن مقديش الصفاقسي (٧٩).

قيادة عبد الملك بن قطن[1] ، فطهّر الجزر التي كانت مكمناً للأعداء ، كما بعث إلى (فاس)[2] خيلاً فافتتحها[3].

بهذا خلصت إفريقيّة لحسّان ، ولم تعد هناك قوّة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد . نعم ، بقيت بضع نواحٍ لم يصل إليها العرب المسلمون بعد ، وبضع قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربيّ قد تمّ ، وأن واجب حسّان الآن هو رفع السيف والإهتمام بناحية أخرى ، وهي نشر الإسلام في البلاد وتقرير أمورها وخراجها وشؤونها وما إلى ذلك[5].

لقد استقامت بلاد إفريقية لحسان في سنة اثنتين وثمانين الهجرية[6] (٧٠١ م) .

٧ ـ أدرك حسّان بثاقب فكره وبعد نظره ، أن استعادة فتح قرطاجنّة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً مرة أخرى والتحصّن فيها من جديد ما لم ينشىء ميناء جديدة ويكون له اسطول بحري قوي .

لقد أدرك عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه قبل حسّان ، ضرورة إنشاء قاعدة متقدمة تكون مستقراً للمدافعين عن إفريقية في الحروب البرية ، ولكن إفريقية كما مرّ بنا ، كانت مهددة دائماً من قوات برية من الروم والبربر ، ومن قوات بحرية من الروم ، فلا بد من ميناء بحرية تكون قاعدة متقدمة للدفاع عن إفريقية ضد الروم ، وللهجوم على الروم في عقر دارهم

---

(١) انظر ترجمته في رياض النفوس وتهذيب ابن عساكر .

(٢) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٢٩ - ٣٣١) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦) .

(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٦) .

(٥) فتح العرب للمغرب (٢٦٠) .

(٦) البيان المغرب (١/٢٩) .

في جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولتكون مستقراً للأسطول العربي الإسلامي تنطلق منها في حالتي الدفاع والهجوم ، فيغير بهذا الاسطول على ساحل الروم فيشغلهم بأنفسهم عن الإغارة على إفريقية[1] .

وبدأ حسّان يبحث عن موضع مناسب على البحر يستطيع أن ينشيء فيه ميناءه الجديدة ، فوجد إلى جنوب قرطاجنّة بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، فاسترعى هذا الموضع انتباهه ، لأن وقوعه على شاطيء السبخة أي إلى الداخل قليلاً يحبّب العرب في سكنى المدينة التي تنشأ عنده ، لأنهم لم يكونوا إذذاك يطمئنون كثيراً إلى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة . فيكفي حراسة مدخل السبخة لكي ينذر الحراس أهل الميناء الجديدة إلى الخطر قبل وقوعه ، كما أن الأرض السبخة هي مراعٍ طبيعية للإبل سفن الصحراء[2] .

كان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ، فأصبحت قبل الإسلام قرية صغيرة في جنوب قرطاجنة تدعى : (تُرْشِيش)[3] ، وكان يسكنها البربر والروم ، وهي على سفح جبل ، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعي هو كالحصن لها والسور الذي يمنع الأعداء عنها . وفي شرقيها بحيرة جميلة تلطّف جوّها وتزيد في سحرها وجمالها ، وحواليها سهول للزراعة . وقد نزلها حسان بجيشه في حصاره لقرطاجنّة فأعجب بمناعة موقعها وجمال مكانها[4].

ولم يلبث حسّان أن وقــع اختياره على (ترشيش) ، فبدأ يخطط المدينة من جديد . ويبدو أن المدينة اليونانية (ترشيش) كان قد اضمحل

---

(١) رحلة التيجاني (٢٣ أ).

(٢) انظر رياض النفوس (١/٦ – ٧) عن فائدة السبخة للمراعي . وانظر فتح العرب للمغرب (٢٦١).

(٣) ترشيش : اسم مدينة تونس التي بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٧٦).

(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٥).

أمرها حين بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، فقد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم ، فيتأنسون بهم ، فقالوا : هذه البقعة تؤنس[1] وقيل : إن المسلمين سمّوها : تونس ، لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب[2] .

وكان على حسّان أن يبدأ بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر وأن يحفر في ماء البحيرة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر ، وتصبح : تونس ، ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من أمواج البحر ؛ ثم يعقب ذلك بإنشاء ميناء بحرية (دار صناعة) للبلد الجديد حتى تستطيع السفن أن ترسو فيها وتقلع منها في أمان ، فخرق حسّان البحر إلى تونس[3] . وأراد حسّان أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء ، فأرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه نفراً ممن لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن ، فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس ، وكتب إلى حسّان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوّة وعدّة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جرّ الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغير منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم ؛ فوصل القبط إلى حسّان وهو مقيم بتونس ، فأجرى البحر من مرسى (رَادِس)[4] إلى دار الصناعة ، وجرّ البربر الخشب ، وجعل فيها المراكب الكثيرة . وأمر

---

(1) المؤنس (٨).

(2) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٥).

(3) المؤنس (٣٣).

(4) رادس : البحر الذي على ساحله تونس بإفريقية يقال له: رادس ، وبذلك سمي ميناها =

القبط بعمارتها [1] .

بهذا استطاع حسّان أن ينشىء مدينة ثانية بإفريقية ، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً برياً ومعسكراً للجند الإسلامي ؛ فقد أصبحت تونس كذلك رباطاً يحمي القيروان ومحرساً بحرياً وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام قرطاجنّة ؛ ولو قد أوتي حسّان من فراغ الوقت أكثر من ذلك ، لتعهّد المدينة بالرعـــاية وأكمل إنشاءها ، فأقام فيهـــا مسجداً وخطّط دورها وما إلى ذلك ؛ ولكن العزل عاجله ، فبقي إنشاء المدينة ناقصاً حتى بدأ إكماله عبيد الله بن الحَبْحَاب[2] مولى بني سلول والي إفريقية لهشام بن عبد الملك[3] بعد ثلاثين سنة ، فأنشأ المدينة وبدأ يخططها وينظم أمورها واتخذ لها دار الصناعة لانشاء المراكب البحرية[4] .

بقيام هذه المدينة ، حيل بين الروم وبين إفريقيّة ، فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها ، فأمن العرب المسلمون شرّهم ، وأصبح جهدهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام ، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين [5].

= ميناراديس . ورادس اسم موضع كالقرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٠٣-٢٠٤) . وهي فرضة صغيرة على البحيرة تسمى (آدس Ades) وهذا الميناء هو الذي جعله جغرافيو العرب : آدس . انظر فتح العرب للمغرب (٢٦١) .

(١) وصف إفريقية للبكري (٣٨ – ٣٩) .

(٢) عبيد الله بن الحبحاب : هو مولى بني سلول ، وكان رئيساً نبيلا وأميراً جليلا ، بارعاً في الفصاحة والخطابة ، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها . وهو الذي بنى المسجد الجامع بتونس . وكان أول الأمر كاتباً ، ثم تناهت به الحال الى ولاية مصر وإفريقية والأندلس والمغرب كله . عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٢٣ هـ . أنظر التفاصيل في البيان المغرب (١/ ٥١-٥٥) وانظر ما جاء عنه في الولاة والقضاة (٧٣ – ٧٦) وابن خلدون (٤/١٨٨ – ١٨٩) .

(٣) معجم البلدان (٢/٤٣٤) .

(٤) ابن خلدون (٤ / ١٨٨ – ١٨٩) .

(٥) فتح العرب للمغرب (٢٦٣) .

وأقام حسّان لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد[1] ، وبذلك عاد من الجهاد الأصغر وهو قتال الأعداء ، إلى الجهاد الأكبر وهو الإصلاح، فوطد أركان دولة الإسلام في المغرب ونشر الإسلام في ربوعه ، فأصبح الفتح الإسلامي هناك بحق فتحاً مستداماً .

الإنسان :

١ – حياته الخاصة :

لا نعرف عن حياة حسّان الخاصة غير أنه كان من التابعين من بيت عريق في الحكم والقيادة هو بيت الغساسنة أمراء الشام وملوكها الذين كانوا موالين للروم ، وأنه قد حدّث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان له بدمشق دار[2] .

كان حسان رجلاً عاقلاً رزيناً مخلصاً وفيّاً صادقاً تقيّاً ورعاً ، وكان أميناً فكان يسمى : الشيخ الأمين[3] . وحين عاد إلى الشام معزولاً قال حسّان لمن معه : « إئتوني بقِرَب الماء ! » ، ففرّغ منها ما جاء به من الفضّة والذهب والجوهر ، فقال له الوليد بن عبد الملك : « جزاك الله خيراً يا حسان » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة » ، فقال الوليد : « أنا أردّك إلى عملك ، وأحسن إليك ، وأنوّه بك ! » ، فحلف حسّان : « لا ألي لبني أميّة أبداً »[4] .

« ليس مثلي يخون الله ولا الخليفة » ، هكذا كان يثق بنفسه نزيهاً فوق الشبهات ، فهو ربيب بيت عريق لو لم يمنعه دينه من الخيانة لمنعه حسبه ، فكيف به وهو من هو نسباً ، وهو من هو ديناً ورعاً !

---

(١) البيان المغرب (١/٣٠).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٣) البيان المغرب (١/٣١).
(٤) البيان المغرب (١/٣٠).

«ولا ألي لبني أميّة أبداً» ، فهو قد اقتنع بأنه لا جدوى من جهوده التي قوبلت بالعقوق ، ولن يرضى التعاون رجل يعرف قيمة نفسه ، مع وجود بعض المسؤولين لا يقدّرون أقيام الرجال.

ولسنا نعرف تفاصيل كافية عن حياته الشخصية : متى ولد ، وكيف أمضى حياته قبل تولي إفريقية. وكان عُقْبَة بن نافـع الفِهْري أول من بنى جامع القيروانَ ، فلما وَلِيَ حسّان إفريقية هدمه – حاشى المحراب – وبناه بالطوب [1].

وقد لزم حسّان بيته بعد عزله [2] ، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك [3].

فمتى توفي حسّان؟ في رواية : إنه توفي سنة ثمانين الهجرية غازياً في أرض الروم [4] ، وهذا مرجوح لأنه كان في مدينة القيروان في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية [5] ، وسير الحوادث التي مرّت بنا تؤيد ذلك.

كما أن عبد العزيز بن مروان هو الذي عزل حسّان [6] ، وقد مات عبد العزيز سنة خمس وثمانين الهجرية [7] ، فتولى بعده مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين الهجرية [8] ، فاستخلف حسّان على المغرب رجلاً من جنده اسمه أبو صالح ، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبي ونفيس الذخيرة ؛ فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله بن عبد الملك مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر. ولما قدم على الخليفة بدمشق ، وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنعه

---

(١) الحلة السيراء (١/١٦٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٧).

(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٧) والعبر (٢/٩٢) وشذرات الذهب (١/٨٨).

(٥) البيان المغرب (١/٢٩).

(٦) البيان المغرب (١/٣١) وتهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).

(٧) ابن الأثير (٤/١٩٧) وشذرات الذهب (١/٩٥).

(٨) الولاة والقضاة (٥٨) وانظر البيان المغرب (١/٣٤).

به عمّه عبد العزيز فغاظه ذلك وأنكره[1] ، وهذا معناه أن حسّان قدم مصر خلال سنة ست وثمانين الهجرية ، لأنه قدمها أيام عبد الله بن عبد الملك ، ولأنه وصل إلى دمشق في أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان عبد الملك قد توفي سنة ست وثمانين الهجرية[2] في منتصف شوال من هذه السنة[3] ، فشكره الوليد ووعده بردّه إلى عمله ، فحلف حسّان ألا يلي لبني أمية عملاً[4] ، ولزم بيته[5] .

وأصرّ حسّان على ابتعاده عن تولي المناصب القيادية ، ولكنه بقي مجاهداً في ساحات الوغى ، فإذا صحّ أنه توفي غازياً في أرض الروم كما أسلفنا[6] ، فمن المحتمل أنه خرج غازياً سنة سبع وثمانين الهجرية الى أرض الروم للجهاد تحت لواء مسلمة بن عبد الملك ، فمات هناك ، أي أنه من المحتمل أن تكون وفاته في تلك السنة (٧٠٥ م) ، إذ ليس من المحتمل خروجه إلى أرض الروم في سنة ست وثمانين الهجرية وهو قد عاد تواً من سفر قاصد وجهاد طويل في إفريقية[7] .

٢ ــ حياته العامة :

أ ــ في إفريقية :

كان حسّان بمصر لما قتل زهير بن قيس البَلَوي[8] ، فقال عبد الملك :

---

(١) الاستقصا (١/٨٤).

(٢) تاريخ بغداد (١/٢٩١) وتاريخ الخميس (٢/٣١١).

(٣) ابن الأثير (٤/١٩٨).

(٤) الاستقصا (١/٨٤).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).

(٦) انظر غزو الروم في تلك السنة في ابن الأثير (٤/٢٠٢).

(٧) ذهب إلى ذلك صاحب الأعلام في (٢/١٩٠). وهناك رواية ، أن حسان قدم دمشق وعبد الملك مريض . انظر الحلة السيراء (٢/٣٣٢) ، وهناك روايات أخرى في مصادر أخرى ؛ أثبتنا في أعلاه ما يتفق مع سير الحوادث .

(٨) الحلة السيراء (٢/٣٣١).

«ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسّان بن النعمان الغسّاني»، فبعثه أميراً إلى إفريقية[1] وأمره بغزو إفريقية[2]، وذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية[3].

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية عزله عبد العزيز بن مروان، وبذلك مكث حسّان أميراً على إفريقية اثنتي عشرة سنة.

فلماذا عزله عبد العزيز؟

كان عبد العزيز قد ولّى على (برقة) عبداً له يقال له: (تليد)، وكان بها أشراف الناس، فكبرت عليهم إمامة (تليد)، فأعتقه عبد العزيز. ثم إنه سأل حسّان أن يترك ولاية (برقة) لتليد، فلم يتركها له، فعزله عبد العزيز[4]. ورجع حسّان من مصر إلى عبد الملك شاكياً بأخيه عبد العزيز لتقديمه على برقة غلامه تليداً وخلّف ثقله بمصر، فقدم على عبد الملك في الشام وهو مريض[5]، والظاهر أنّ عبد الملك كان في مرض موته، لذلك قدم على الوليد[6] الذي تولى الخلافة بعد أبيه عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية[7]، فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز، فغضب الوليد لذلك[8].

سبب عزله إذاً، أنه كان معتدّاً بنفسه غاية الإعتداد، فكان لا يسمح بالتدخّل في شؤون ولايته إفريقية، فرأى في تدخل عبد العزيز بن مروان في شؤون إفريقيّة وتعيينه أحد رجاله ما يمسّ باستقلال ولايته أولاً،

---

(١) رياض النفوس (١/٣١).
(٢) الحلة السيراء (٢/٣٣١).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٥) الحلة السيراء (٢/٣٣٢) وانظر فتوح مصر والمغرب (٢٧٤).
(٦) البيان المغرب (١/٣٠).
(٧) شذرات الذهب (١/٩٧) وأبو الفدا (١/١٩٨) والمعارف (٣٥٩).
(٨) البيان المغرب (١/٣٠).

وما يمس بكرامته وكرامة أشراف الناس في (برقة) ثانياً ، لذلك آثر التخلّي عن منصبه ، وعاد أدراجه إلى دمشق .

وفي رواية ، أن عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر — وكان الوالي على مصر يولّي على إفريقية ، عزله وأمره بالقدوم عليه ؛ فعلم حسّان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك ، فعمد إلى الجوهر والذهب والفضّة ، فجعله في قِرَب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة ، وأنواع الدوّاب ، والرقيق ، وسائر أنواع الأموال ، فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان ، أهدى إليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر [1] . فكان أبو محجن نُصَيْب الشاعر يقول : « لقد حضرت عند عبد العزيز سبياً من البربر ما رأيت قط وجوهاً أحسن من وجوههم [2] » . وكان نُصَيب يقول : « حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسّان مائتي جارية ، منها ما يقام بألف دينار » [3] . ولكن عبد العزيز سلبه جميع ما معه من الخيل والأمتعة والوصائف والوصفان . ورحل حسّان بالأثقال التي بقيت له ، حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ، ثم قال حسّان لمن معه : « إئتوني بقِرَب الماء ! » ، ففرّغ منها من الذهب والفضّة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسّان ، فقال له الوليد : « جزاك الله خيراً ياحسّان ! » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة ! » ، فقال له الوليد: « أنا أردّك إلى عملك وأحسن إليك وأنوّه بك » ، فحلف حسان: « لا أولي لبني أميّة أبداً » ، فغضب الوليد بن عبد الملك على عمه عبد العزيز ! وكان عزل حسّان من قبل عبد العزيز دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته » [4]

(١) البيان المغرب (١/٣٠).
(٢) البلاذري (٢٣١).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٧٢).
(٤) البيان المغرب (١/٣٠ – ٣١).

وعلى الرغم من اضطراب ما في هذه الرواية من أخبار ، خاصة الأخبار التي ذكرت أن حسّان قدم على عبد العزيز في مصر ، وقدم على الوليد في دمشق ، بينما عبد العزيز مات في أيام عبد الملك كما ذكرنا ؛ إلا أنه يمكن أن نتبين مما ورد في هذه الرواية ، أن عبد العزيز كان مركزي السيطرة ، وكان يتدخل في شؤون أمراء إفريقية كما فعل مع زهير بن قيس البلوي قبل حسّان[1] ، وأنه كان حريصاً على جمع المال واقتناص الغنائم ، فأمر حسّان بالقدوم عليه – ومنها يشم رائحة الشك في نزاهة حسّان – ولكن حسان حين وصل إلى مصر كان عبد العزيز قد قضى نحبه ، لذلك فقد أهدى عبد الله ابن عبد الملك الذي خلف عبد العزيز على مصر مائتي جارية – وهي التي وصفها نصيب الشاعر كما ذكرنا – ، فقال حسان قولته للوليد : « إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي من يخون الله ولا الخليفة » ، في معرض الدفاع عن نزاهته المجروحة ، وكان رد الفعل الذي ظهر على حسان ، عزمه على ألا يلي لبني أمية عملا ! !

ولعلّ الرواية التالية عن عزله تؤيد ما ذهبنا اليه ، فقد ذكرت هذه الرواية : « واستمرّ حسان على المغرب الى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر ، وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه ، فاستخلف حسّان على المغرب رجلاً من جنده اسمه أبو صالح ، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال وروائع السبي ، ونفيس الذخيرة ؛ فلما انتهى الى مصر أهدى الى عبد الله (وهذا يدل على أنه حين قدم مصر كان عبد العزيز قد توفي) مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج (يقصد الروم) والبربر ، فلم يقنعه ذلك ، وانتزع كثيراً مما بيده . ولما قدم على الخليفة بدمشق ، وهو يومئذ الوليد ابن عبد الملك ، شكا اليه ما صنع به عمّه عبد العزيز ، فغاظه ذلك وأنكره ثم أهدى اليه حسّان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليدوشكره عليه ، ووعده بردّه إلى عمله ، فحلف حسّان أن لا يلي لبني

---

(١) انظر فتوح مصر والمغرب (٢٧٢).

أمية عملاً أبداً .

من حق حسّان أن يحلف أن لا يلي لبني أمية ، فما مثله يتّهم بنزاهته من قريب أو بعيـد ، ومن حقّه ألا يتعاون أبـداً مع مَن اتهمه بأعزّ ما يملك في الدنيا : استقامته ونزاهته . ومن حقّه أن يغضب لاقتطاع قسم من ولايته دون مبرر وتحكيم عبد لا يراه أهلاً للتحكّم في رقاب أشراف الناس من أهل الحسب والأيام .

ب – إصلاحاته :

أولاً – مجمل الإصلاحات :

في سنة اثنتين وثمانين استقامت بلاد إفريقية لحسان ، فدوّن الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية [١] من البربر [٢]. ثم أوعز إليه عبد الملك باتخاذ دار الصناعة لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد [٣] . ونزل موضع القيروان وبنى مسجد جماعتها [٤]، وخطط مدينة تونس وبدأ ببنائها ، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر كما ذكرنا .

تلك إصلاحات مهمة جداً ، منها إدارية ، مثل بناء تونس وحفر قناتها وبناء مسجد القيروان ، أما باقي اصلاحاته فسنذكرها وشيكاً .

ومنها إصلاحات عسكرية ، كتجنيد جيش من البربر ، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي ، وسنذكر إصلاحاته العسكرية وشيكاً أيضاً .

ثانياً – تدوين الدواوين والاصلاحات الادارية :

دوّن حسّان الدواوين ، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى

---

(١) البيان المغرب (١/٣٠).
(٢) الاستقصا (١/٨٤).
(٣) الاستقصا (١/٨٤).
(٤) فتوح مصر والمغرب (١٧١).

ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسؤولون ، ونظم الجيش وقسّمه على الثغور ، وفرض له العطاء من بيت المال[1] . وأقام العمال على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند وما الى ذلك مما كان في غير إفريقية من بلاد العرب إذ ذاك[2] .

وأنشأ حسّان المساجد في المدن والقرى وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد وللفتوى في مسائل الدين[3] ، وأقام المدارس الإبتدائية بجانب كل مسجد لتعلّم أبناء المسلمين دينهم وتحفّظهم القرآن الكريم وتطبـع ألسنتهم بلغته . واختار حنش بن عبد الله الصنعاني[4] عاملاً على الزكاة . وفرض حسّان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، وعيّن القضاة للنواحي ، وأقام الحرّاس في الأنهج والطرقات لحفظ الأمن[5] . وقسّم الأراضي بين قبائل البربر ، فعيّن لكل قبيلة خطّتها ، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين [6] . وقد عدّ حسّان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً ، لذلك أقرّ الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم . واعتنى حسّان بالمدن والقرى ، فمهّد الطرق للسابلة ، وأصلح القنوات للري ، وجدّد بناء مسجد القيروان ووسّعه ، هدمه كلّه إلا المحراب ، وحمل اليه المسلمون الساريتين الحمراوين الموشيتين بصفرة ، اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول [7] .

واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية ، وأنشأ مرفأها

---

(1) تاريخ المغرب الكبير (111/2).

(2) فتح العرب للمغرب (276).

(3) تاريخ المغرب الكبير (111/2).

(4) انظر ترجمته المختصرة في هامش ترجمة زهير بن قيس البلوي .

(5) تاريخ المغرب الكبير (112/2 - 113).

(6) تاريخ المغرب الكبير (113/2).

(7) تاريخ المغرب الكبير (114/2).

ودار الصناعة [1] . وكان أهل المغرب في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يرون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها [2]، فجدّ حسّان كل الجد في تعليم العربية للبربر لأنها أصل الدين [3] .

وضرب حسّان السكّة للمغرب دنانير ودراهم وفلوساً ، وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزانطيين ، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم . فقد كان الدينار القرطاجني أيام حكم البيزنطيين يطبع على الوجهين ، فعلى أحدهما صورة القيصر وولي عهده أو القيصرة ، وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه ، وعلى الوجه الثاني صليب في الوسط قائم على ثلاث درج ، وهو المعروف بالصليب القرطاجني ، ومكتوب على دائرته باللاتينية : ضرب هذا بإفريقية ، ثم ذكر السنة بحسب عقدٍ ذات عشر سنوات من اعتلاء ذلك القيصر حكم بلاده .

أما دينار حسّان اللاتيني العربي ، فهو عين الدينار القرطاجني المتقدم وزناً وشكلاً ، وإنما حذف من الصليب العمود الأفقي وعوضه برسم الكرة في أعلى العمود الرأسي ، وحذف الدرج الأسفل من السلم ، ووضع صورتي عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ابنه بدلاً من قيصر البيزانطيين وولي عهده ، وكتب حسّان في سكّته باللغة اللاتينية كلمة التوحيد [4] .

---

(١) Arsenal : دار لاختزان الأسلحة أو انتاجه ، مذخر حربي . اسبانية : D'arsener ثم في القرن الثامن عشر (Atarzana) ومنها أخذ المصريون تعبير : الترسانة ، ونسي الأصل . ثم Arsenal . إيطالية :Arsenale كتبت في القرن الرابع عشر Arzona . فرنسية Arsenal ي وهي دار صناعة العربية . انظر مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث الجزء الثاني (١٣٧٤ هـ) ص (٣٩٤ب) وانظر تاريخ التمدن الإسلامي (١/١٩٩) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٩٨) .

(٦)تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٨).

(٧)محاضرات الشيخ عبد العزيز الثعالبي التي نشرتها جريدة الضياء المصرية في ٢٧ مارس ١٩٣١ – نقلا عن تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٨–١١٨) وجاء فيها : وزاد في الكتابة اللاتينية بطريقة =

وكان حسّان قد قضى على الروم سياسيّاً وعسكرياً ، وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزانطة ، وهي العلاقات الكنيسية، فقطعها خوفاً من أن يتذرّع البيزانطيون فيتصلون بالمغرب، فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الأورثوذوكسية في مصر ، وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وبيزانطة [1] ، وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، إذ وقف الأهلون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين او حضارة . بل أخذ بعضهم يهاجم الاديرة والكنائس[2] . كما أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال تبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة : إذ تلاشى النظام الكنسي واقترف القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد ، وكان قساوسة الولاية الداخلية يعارضون أسقفهم الأكبر فيما يصدر إليهم من أوامر ، وكان آخرون يبذرون الشقاق في الأديرة بإثارة الرهبان على رؤسائهم ، وكانت الكنيسة كلها في اضطراب داهم وتدهور مستمر ، إذ كانت وظائفها تباع جهاراً ، ولم يكن كبار القساوسة يتأخرون عن معاقبة صغار الرهبان بعقوبات بدنيـــة . فأدّت سياسة الروم في إفريقيـــة ، وسياسة الكنيسة الإفريقية . وغير ذلك ، الى أن البلاد لم يكن فيها إلا أقل آثار من المسيحية

- إختصار الأحرف ما يأتي :

أ – الوجه الأول : In Nadnimisr Cunds in Nmine Domi Miseri Cordis Unius

وتعريبها : بسم الله الرحمن الإله الأوحد .

ب – وفي الوجه الثاني : Unus Deus Nisi Socius Alis Similis

وتعريبها : وحده لا شريك ولا مثيل له .

كما كتب على هذا الوجه أيضاً : Fe Risi in Afries in Dietione

وتعريبها : ضرب بإفريقية في العشرة الثالثة ويساوي (٨٥ ه).

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٢٠).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٨٠).

بعيد تمام الفتح الإسلامي[1] ، فارتبطت الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة الأورثوذوكسية في مصر كما ذكرنا .

جـ - مؤسس ولاية المغرب :

بهذا اكتملت الأسباب ليكون المغرب بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل لخليفة المسلمين ويدين أهلها بالاسلام ، ويتخذون العربية لغة . وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن ، فان المغرب القديم إختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الواهنة ، وحلّ محله المغرب الإسلامي ؛ أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة ، وحضارة واحدة ، ووجهة واحدة[2] ... وكان لحسّان أثر بالغ على كل ذلك .

لهذا غضب كثير من رؤساء البربر لعزل حسّان ، فانفصلوا عن القيروان ، واستقلوا عن الدولة ، ورجعوا إلى ما يؤثره البربر من الإستقلال واللامركزية في الحكم ، فانفصلت كثير من النواحي منها جبال زغوان في شمال القيروان ونواحي أخرى من المغرب الأوسط والأقصى[3] .

وكان عزله خيبة أمل للعرب المسلمين أيضاً ، فغضب من أجله كثير منهم، ولعل ما قاله شعراؤهم في استهجان عزله خير دليل على تقييم جهود حسّان من العرب المسلمين والبربر المسلمين على حد سواء .

قال أبو عتيك :

أقول لأصحابي عشية جاءنا	بغير الذي نهوى البريد المبشّرُ
ألا ما الذي غال ابن نعمان دوننا	فقلْ متاح الخير والخير يقدر
فقلت ولم أملك سوابق عبرة	فنعم الفتى المعزول والمتنظر

---

(1) فتح العرب للمغرب (٢٨٢ - ٢٨٤).

(2) فتح العرب للمغرب (٢٩٩).

(3) تاريخ المغرب الكبير (١٢٣/٢).

فإن يك هذا الدهر جاء بعزلــه عليه ، فإن الدهر بالمرء يعثر[1]

لقد كان حسّان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الاسلامي العربي ،

القـائد :

« ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسّان بن النعمان الغساني »[2]، ذلك ما قاله عبد الملك بن مروان عن حسّان حين عزم على توليته أمر إفريقية .

والحق أن العرب المسلمين عانوا ما عانوا من صعوبات في فتح المغرب ، فقد مضى على المسلمين ستون سنة من (٢٢ هـ - ٨٢ هـ) وهم يبذلون قصارى جهدهم لفتح المغرب حتى تكلّلت مساعيهم بالنجاح على يد حسّان ، إذ انتصروا في معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم في قرطاجنّة ، وانتصروا في معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد سكان إفريقية المحليين بقيادة الكاهنة ، فما أسباب صعوبات فتح المغرب ؟؟ .

إن المغرب ليس قطراً واحداً يتمّ خضوعه بمعاهدة شاملة أو بموقعة حاسمة ، « فإن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلّما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم » ، كما قال حسّان[3] ، وربما كان هذا الاضطراب الذي يسود تكوين المغرب السياسي والإجتماعي والطبيعي هو السبب الأول في طول مدة الفتح واختلاط سبيله على الفاتحين .

ومن تلك الصعوبات ، ظروف العرب المسلمين أنفسهم ، وما نزل بهم من الأحداث التي شغلتهم عن الفتح أو حالت بينهم وبين أن يتعهّدوه بما ينبغي له من العناية والإهتمام ، كالفتن الداخلية الكثيرة التي كانت تحول بين أولي الأمر من العرب المسلمين وبين إرسال الحملات الى إفريقية ،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦ - ١٤٧).
(٢) رياض النفوس (١/٣١).
(٣) البيان المغرب (١/٢٦).

وبُعْدِ المغرب الذي جعل إرسال الحملات والبعوث إليه أمراً يتطلّب العدة العظيمة والنفقة البالغة[1] . ومن تلك الصعوبات كره البربر للأجنبي ونفورهم من كلّ شيء يأتيهم من خارج وطنهم . ومنها وجود الروم الذين لم يألوا جهداً في إبعاد البربر عن المسلمين وإعداد العدّة لقتال الفاتحين[2] . ومنها النزاع بين ولاة مصر وقواد إفريقيّة ، ورغبة الأولين في السيطرة على هذه البلاد والتصرّف في مالها وغنائمها ، مما رأينا أثره في تعطيل الفتح ومنع الفاتحين من إنفاذ براجهم وإدراك الغايات التي سعوا إليها بعد أن بذلوا الجهد العظيم لإدراكها ، كما رأينا في عدوان مسلمة بن مُخَلّد على عقبة بن نافع وعزله إياه وحرمانه من ثمرة جهوده ومنعه من تنفيذ براجه ، وعداء عبد العزيز ابن مروان لزهير بن قيس وحسّان بن النعمان مما انتهى بعزل الثاني وحرمان البلاد من خبرته واقتداره[3] .

وعظمة حسّان قائداً تتلخّص في تشخيصه أهم تلك الصعوبات : القضاء على قوة الروم ، وتفتيت قوة البربر ، ففتح قرطاجنّة عاصمة الروم في إفريقية ، وضيّق الخناق على قوات الروم حتّى قواتها الضاربة ... ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة ، ثم بذل قصارى جهده لنشر الاسلام بين البربر ، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان — هم في الحقيقة زبدة مقاتلي البربر — بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه !

ولم يكن عبد الملك بن مروان ، بما عرف عنه من دهاء وحنكة سياسية وخبرة عميقة بأقيام الرجال ، ليجهل الصعوبات التي تكتنف فتح إفريقيّة ، فعجم عود رجاله واختار أصلبهم عوداً وأكثرهم تجربة وأقواهم على تحمل مثل هذه المسؤولية الضخمة : فتح إفريقيّة ... كل ذلك يدل على أن حسّان لم يكن مجهول المكانة ولا خامل الذكر، بل كان معروفاً بقابلياته الفذّة

(١) فتح العرب للمغرب (٢٦٨).
(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٨).
(٣) فتح العرب للمغرب (٢٦٨ — ٢٦٩).

وتجربته الطويلة في الإدارة والحرب .

وكان حسّان عند حسن ظنّ عبد الملك به بعد اختياره ، فبقي موضع ثقته حتّى بعد اندحار قواته أمام الكاهنة ، فلم يفرّط عبد الملك بحسّان بعد هذا الاندحار ، بل أبقاه على رأس قوات المسلمين في (برقة) وعمل على إمداده بالرجال والعتاد والمال عندما تحسّنت ظروفه السياسية ؛ وهذا دليل على أن قابليات حسّان كانت فوق الشبهات ، وأن اندحاره لم يؤثر على سمعته الممتازة ومكانته السامية عند عبد الملك والناس .

فأي نوع من القادة كان حسّان ؟

مفتاح مزايا قيادته ، ما كان يتمتع به من بعد نظر ، وهذه المزيّة هي أول مزاياه قائداً .

لقد قدّر أن إفريقية لا يمكن أن يتمّ فتحها إلاّ بقوات ضاربة متفوقة من جهة ، وبأفكار سياسية حصيفة من جهة أخرى : القوات الضاربة تقضي على العدو ، والسياسة الحصيفة توطد أركان الفتح .

ودأب طيلة بقائه على إفريقيّة أن يسير سيفه وعقله معاً متكاملين متعاونين ، فلا يضع السيف في موضع العقل ، ولا يضع العقل في موضع السيف ، وبذلك نجح في إفريقية نجاحاً باهراً ، حتّى ليمكن أن يعدّ حسّان بحق هو الفاتح الحقيقي لإفريقية ، فهو الذي استثمر جهود من سبقه من قادة الفتح ، ولولا جهوده لذهبت أكثر جهودهم أدراج الرياح .

وكان حريصاً على جمع المعلومات عن العدو ، فحرص على الاتصال بخالد بن يزيد ، وحصّل على معلومات قيّمة جداً عن تفرّق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم ، وبذلك سار إليهم وهو قرير البال مطمئن الفكر ، يعرف أن العدو الذي سيقاتله منهار المعنويات .

ومن سير معارك حسّان يتّضح أنه كانت له قابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وكان شجاعاً مقداماً ، ذكياً فطناً متيقظاً ، ذا إرادة

قوية نافذة يتحمّل المسؤولية بلا تردّد ، يعرف مبادىء الحرب ويطبّقها بكفاية نادرة ، له نفسيّة لا تتبدّل في حالتي النصر والاندحار ، يتمتع بمزية سبق النظر بشكل ملحوظ ، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ويعطي كل واحد منهم ما يستحقه من مكانة بالنسبة لقابلياته ، يثق رجاله به ويثق بهم ويحبونه ويحبهم ، له شخصية قوية نافذة ، وله قابلية بدنية ممتازة تعينه على تحمل مشاق الحرب ، غير متهوّر ولا متردّد ، له ماض ناصع مجيد .

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادىء الحرب ، نجد أنه طبّق مبدأ : (اختيار المقصد وإدامته) ، فكان مقصده واضحاً هو : القضاء نهائياً على الروم وقاعدتهم قرطاجنة ، وضرب قوات البربر المناوئة له ، ونشر الاسلام في ربوع إفريقية ، وتوطيد أركان الفتح الإسلامي في ربوعها وجعله فتحاً (مستداماً) كما هو الحال في مصر وفي أرض الشام وفي العراق وفي المشرق وغيرها من نواحي الدولة الإسلامية .

كما طبّق مبدأ (التعرض) ، فكانت غزواته كلها تعرّضيّة ، انتصر فيها جميعاً عدا معركة الكاهنة الأولى ، الذي اندحر فيها نتيجة لإعجاب أصحابه بكثرتهم واستهانتهم بعدوّهم ، فلم تغن عنهم كثرتهم من الاندحار شيئاً .

كما طبّق مبدأ (المباغتة) بضخامة ما أعدّه من قوات أولاً ، وبحصوله على المعلومات التفصيلية عن عدوه ، وعودته اليهم في وقت لا يتوقعونه وهو على هدى وبصيرة من أمره .

كما طبّق مبدأ (تحشيد القوة) ، فسار بجيش تعداده أربعون ألفاً لم يدخل إفريقية جيش مثله من قبل .

كما طبّق مبدأ (الإقتصاد بالمجهود) ، فلم يبذر بقواته ولم يعمل على تشتيتها لمصاولة أهداف ثانوية ، بل كانت قواته مجموعة بيديه يقاتل بها أهدافه السوقية (الاستراتيجية) ولا يحيد عن تلك الأهداف مطلقاً .

كما طبّق مبدأ (الأمن)، فحرص على جمع المعلومات عن عدوه ، وحرم العدو من الحصول على معلومات عن قطعاته ، وبذلك لم يستطع العدو مباغتة قواته أبداً .

كما طبّق مبدأ (المرونة) ، فكانت لقواته قابلية ممتازة على الحركة ، فقطعت مسافات شاسعة من (الفسطاط) الى (قرطاجنة) والى جبال (الأوراس) بكل كفاية ومقدرة .

كما طبّق مبدأ (التعاون) بين صنوف قطعاته من جهة ، وبينها وبين البربر من جهة أخرى ، وبذلك استفاد من القوات البربرية التي قاتلت مع رجاله جنباً إلى جنب .

كما طبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ، فكان لا يفتأ يريح قطعاته في المراحل وبعد كل معركة ، ويواسي الجرحى ، ويعدل بين الناس ويؤمّن لهم أعطياتهم بمساواة تامة .

كما طبق مبدأ (الأمور الإدارية) ، فبقي ردحاً من الزمن في مصر لإنجاز استحضارات جيشه الإدارية ، ومكث في القيروان بعد وصوله الى هناك ردحاً من الزمن لإنجاز تلك الاستحضارات ، وكانت قواته مجهزة بكل ما تحتاج إليه في المعركة من سلاح وعتاد ومال وأرزاق وقضايا صحية وبيطرية .

لقد كان حسّان قائداً ممتازاً بكل ما في هذه الكلمة من معاني .

حسان في التاريخ :

يذكر التاريخ لحسّان ، أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء بإفريقية .

ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد البربر ، فأصبحوا بعدها مع العرب المسلمين لا عليهم .

ويذكر له أنه فتح (قرطاجنّة) وخرّبها ، فحرم الروم من عاصمتهم التي كانت بنفس الوقت القاعدة الأمينة لهم في إفريقية .

ويذكر له أنه فتح مدينة (فاس) .

ويذكر له ، أنه أنشأ مدينة (تونس) لتكون القاعدة المتقدمة البحرية للمسلمين في إفريقية .

ويذكر له ، أنه نشر في ربوع إفريقية الإسلام بين البربر .

ويذكر له ، أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقية ، كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد عربية إسلامية .

ويذكر له ، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً (مستداماً) : صمد أمام الغزو العسكري الغربي وأمام الغزو الفكري الغربي ، وتحمل من أجل الحفاظ على عروبته وإسلامه كثيراً من التضحيات بالأرواح والأموال .

رضي الله عن التابعي الجليل ، السياسي المحنّك ، الإداري الحازم ، الداعية الحصيف ، البطل الشجاع ، المفكر الفذ ، القائد الفاتح ، حسّان ابن النعمان الغسّاني .

موسى بن نُصَيْر اللّخمي[1]

فاتح المغرب الأوسط[2] ثانية والمغرب الأقصى[3] والأندلس

« أما والله ، لو انقادوا إليّ لقدتهم إلى رومية »

(موسى بن نصير)

نسبه وأيامه الأولى :

١ — هو موسى بن نُصَيْر بن عبد الرحمن بن زيد[4]، يكنى : أبا عبد الرحمن[5] من بني لَخْم[6] ، ويقال : إنه مولى لَخْم[7] . وقيل : إنه

---

(١) ورد اسمه : موسى بن نصير اللخمي في المعارف (٥٧٠) واليعقوبي (٣/٢٢) والبداية والنهاية (١٧١/٩) ورياض النفوس (٧٧/١). ولخم هو مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد . انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٢) وهم من بني سعد العشيرة بن مذحج من سبأ . انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٠ — ٤٢٢) وانظر بطون لخم في جمهرة أنساب العرب (٤٧٧).

(٢) المغرب الأوسط : من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية؛ انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ — ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ — ٣٥٣) والمسالك والممالك لا بن خرداذبة (٨٥ — ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ — ٨٨) وصفة المغرب (٢ — ٢٩) والمسالك والممالك للا صطخري (٣٣—٣٨) ؛ وهي جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر . أنظر تاريخ المغرب العربي (١٢).

(٣) المغرب الأقصى : من ساحل البحر المحيط غرباً الى (تلمسان) شرقاً، ومن (سبتة) الى (مراكش) ثم إلى (سجلماسة) وما في سمتها شمالا وجنوباً . انظر تقويم البلدان (١٢٢) والمصادر المنوه عنها في المادة (٢) أعلاه ؛ وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر ، والتي كانت تعرف إلى عهد قريب باسم : مراكش عاصمتها السياسية ، انظر : تاريخ المغرب العربي (١٢).

(٤) البيان المغرب (٣٢/١).

(٥) نفح الطيب (٢٣٤/١) و (٢٥٤/١) والبيان المغرب (٣٢/١) .

(٦) بغية الملتمس (٢٤٢) ونفح الطيب (٢٥٤/١) وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس —

من أراشة من بَلِيّ[1] ، وقيل : من بكر بن وائل[2] ، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل ، وغيرهم يقول : إنه مولى[3] .

إنه عربي[4] ، أبوه نُصير كان اسمه : نصراً فصغّر[5] ، كان من بين سبايا (عَيْن التمر)[6] الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة الهجرية ، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلّمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم وقال : «وما أنتم ؟!» ، فقالوا : «رُهُن !» ، منهم نصير أبو موسى بن نصير ، وكان نصير ينسب إلى بني (يَشْكُر)[7] ، فقسّمهم خالد في أهل البلاد[8] ، فأصل موسى من (عين التمر)[9] . وقد أعتق نصيراً بعض بني أمية فرجع إلى الشام[10] ، ثم أصبح من حرس معاوية بن أبي سفيان[11] ، ثم أصبح على حرس معاوية[12] وعلى جيوشه[13] ،

= (١١٤/٢) والنجوم الزاهرة (٢٢٥/١) .

(٧) بغية الملتمس (٤٤٢) وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجذوة المقتبس (٣١٧) ووفيات الأعيان (٤٠٢/٤) والولاة والقضاة (٥٢) .

(١) البلاذري (٢٤٨) . وأراشة بن عبيلة بن قسميل بن فران بن بلي من قضاعة انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٤٢) .

(٢) نفح الطيب (٢٣٤/١) والبيان المغرب (٣٢/١) .

(٣) جمل فتوح الاسلام – ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٤٤) .

(٤) البلاذري (٢٤٨) والنجوم الزاهرة (٢٢٥/١) .

(٥) البلاذري (٢٤٨) .

(٦) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار (الفلوجة) غربي الكوفة ، بقربها موضع يقال له : شفاثا. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٣/٦) .

(٧) بنو يشكر بن بكر بن وائل . انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨) .

(٨) الطبري (٥٧٧/٢) وانظر ابن الأثير (١٥١/٢) .

(٩) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(١٠) البلاذري (٢٤٨) ومعجم البلدان (٢٦٧٧) .

(١١) ابن خلدون (١٨٧/٤) .

(١٢) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٢٤/١) .

(١٣) نفح الطيب (٢٢٤/١) .

وكانت منزلته عنده مكينة . ولما خرج معاوية لقتال علي بن أبي طالب لم يخرج معه نصير ، فقال له معاوية : « ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها ؟؟ » ، فقال : « لم يمكني أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك ! » ، فقال : « ومن هو ؟! » ، فقال : « الله عزّ وجل » ، فأطرق معاوية ملياً ثم قال : « أستغفر الله » ورضي عنه[1] .

٢ ــ ولد موسى سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠ م) في خلافة عمر ابن الخطاب[2] رضي الله عنه بقرية يقال لها : (كَفَرمُتْرى)[3] ، ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجندية قريباً من قادة الفتح الإسلامي وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة وبتماس شديد بمعاوية بن أبي سفيان ومن حوله من قادة الفتح والفكر ، بكنف أبيه نُصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع ، فكان لكل ذلك أثره البالغ على حياة موسى قائداً وإنساناً .

وعندما اشتدّ عوده ، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية ، وأكسبه الزمان تجربة وعلماً ، ولاّه معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر ، فغزا (قُبْرُس)[4] وبنى هناك حصوناً مثل (الماعوصة) [5] و (بانس) وغير

---

(١) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٢٤/١ ــ ٢٢٥).

(٢) نفح الطيب (٢٦٤/١) والبداية والنهاية (١٧١/٩) والبيان المغرب (٤٣/١)، وانظر النجوم الزاهرة (٢٣٥/١).

(٣) كفرمترى : وردت في البلاذري (٢٤٨) باسم : كفرمرى ، وهو تصحيف ، والصحيح أن اسم القرية : كفرمترى ، وهي قرية من قرى أرض الشام في جبل الجليل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦٧/٧). وفي النجوم الزاهرة (٢٣٥/١): إنه ولد بقرية : (كفرتوثا) ، وهي قرية كبيرة من قرى الجزيرة بينها وبين (دارا) خمسة فراسخ وهي بين (دارا) و (رأس عين) ، وهي ايضاً من قرى فلسطين . انظر معجم البلدان (٢٦٣/٧).

(٤) قبرس : جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٧). ومن الأخطاء الشائعة أن بعض الجغرافيين يكتبونها (قبرص) وهو الصحيح ، هو قبرس : انظر الطبري (٣١٥/٣) وابن الأثير (٣٦/٣) وأبي الفدا (١٦٧/١). وقد وردت (قبرص) في ابن خلدون (١٣٠/٢)

(٥) الماعوصة : لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان ، كما لم أجد ذكراً لبانس أيضاً .

ذلك من الحصون التي بناها في (قُبْرُس) ، وكان نائب معاوية عليها[1] ؛ وكان معاوية قد فتح (قبرس) سنة ثمان وعشرين الهجرية[2] .

وبذلك ظهر موسى لأول مرة على مسرح الحوادث العامة .

٣ – وفي سنة أربع وستين الهجرية[3] شهـــد موسى معركة (مَرْج رَاهِـط)[4] مع الضحاك بن قيس الفِـهْري[5] الذي كان يدعو سراً إلى عبد الله بن الزبـــير[6] ثم دعا الى نفسه ، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان[7] فحماه عبد العزيز وأنقذ حياته من خطر داهم ، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز ابن مروان وبين موسى بن نصير .

٤ – وفي سنة خمس وستين الهجرية توجّه مروان بن الحكم إلى مصر فتملكها واستعمل عليها ابنه عبد العزيز[8] ، وجعل له موسى بن نصير وزيراً ومشيراً[9] ، وكان موسى مع مروان بن الحكم حين دخوله مصر[10] ، وهذا يدل على أن موسى عاون مروان معاونة كبيرة في تملك مصر ، وأنه

---

(١) البداية والنهاية (١٧١/٩) ، وانظر النجوم الزاهرة (٢٣٥/١) . وفيه : إنه غزا غير قبرس أيضاً .

(٢) الطبري (٣١٥/٣) وابن الأثير (٣٦/٣) والبداية والنهاية (١٧١/٩) ، والعبر (٢٩/١) . وفي البلاذري (١٥٨) : إن معاوية فتح قبرس سنة ثمان وعشرين وقيل سنة تسع وعشرين وقيل سنة ثلاث وثلاثين الهجرية .

(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥٨/٤) ، وانظر العبر (٧٠/١) وشذرات الذهب (٧٢/١) .

(٤) مرج راهط : بنواحي دمشق ، وهو أشهر المروج في الشعر ، فاذا قالوه مفرداً فإياه يعنون . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦/٨) .

(٥) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٦) ابن الأثير (٥٧/٤) .

(٧) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٨) العبر (٧١/١) وشذرات الذهب (٧٣/١) .

(٩) الولاة والقضاة (٤٧) .

(١٠) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

كان موضع ثقة مروان وثقة ابنه عبد العزيز على حد سواء.

٥ - وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان الكوفة[١]، ثم ولاّه البصرة سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٢]، فاجتمع له المصران: الكوفة والبصرة[٣]؛ وكان بشر يومئذ حديث السن، فجعل عبد الملك معه موسى وزيراً ومشيراً[٤]، وجعله المسؤول الأول عن كل خلل وتقصير يقع في ديوان العراق، فدفع بشر إلى موسى خاتمه وتخلّى له عن جميع العمل[٥].

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية توفي بشر بن مروان أمير العراقين[٦] بالبصرة، وهو أول أمير مات بها[٧]، فولى عبد الملك بن مروان الحجاج ابن يوسف الثقفي العراق[٨]، وأوصاه: ألاّ يفوته موسى لأنه احتجن

---

(١) ابن الأثير (٤/١٣٣).

(٢) ابن الأثير (٤/١٤٠) وابن خلدون (٣/١٥١).

(٣) البداية والنهاية (٩/١٧١) وابن الأثير (٤/١٤٠).

(٤) البداية والنهاية (٩/١٧١).

(٥) الإمامة والسياسة (٢/٥٩)، وسأعتمد في هذا البحث على هذا المصدر - خاصة إذا اتفقت المعلومات الواردة فيه مع المعلومات الواردة في المصادر العربية الأخرى، وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في هذا الكتاب مستقى من مراجع صحيحة، فالتشابه بينه وبين ابن عذارى ظاهر جداً يصل الى الحرفية في بعض الأحيان، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن (دوزي) شك في صحة الكتاب كله. وقد ناقش رأي (دوزي) وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الامامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود علي مكي في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب ابن قتيبة الدينوري مأخوذ من كتاب ضاع لمارك النصيري، انظر فجر الأندلس (٤٦).

وقد اعتبر هذا الكتاب المستشرق الاسباني (جاينجوس **Gayangos**) قديماً وصحيحاً وإن كان يشك في نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة، وانتفع به المستشرق الألماني (فايل **Weil**) والمستشرق الايطالي (أماري **Amari**)، انظر كتاب دولة الاسلام في الأندلس (٢٤).

(٦) العبر (١/٨٦) وشذرات الذهب (١/٨٣).

(٧) المعارف (٣٥٥).

(٨) ابن الأثير (٤/١٤٤) والطبري (٥/٤٠) وأبو الفدا (١/١٩٦).

الأموال لنفسه حين كان على خراج البصرة ، فخاف موسى الحجاجَ وقصد إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مصر ، لانقطاع كان منه اليه ، فتوجّه عبد العزيز مع موسى إلى الشام ، ووفدا على عبد الملك ، فأغرمه عبد الملك مائة ألف دينار ، فغرم عنه عبد العزيز نصفها ، وعاد موسى مع عبد العزيز إلى مصر [1].

هل احتجن موسى الأموال لنفسه حقاً ؟ أم شحّت موارد البلاد لظروف طبيعية قاهرة لقلّة هطول الأمطار مثلاً فلم يصل بيت المال الدخل المقرّر [2] ؟ أم أن بشر بن مروان لم يقم بواجبه أو بذّر في أموال الدولة فكان له الغنم ووقع الغرم على موسى ؟

إن اتّهام موسى باحتجان الأموال لنفسه ، يكتنفه شك واضح نظراً لاستقامته ، ولم يكن من أولئك الذين لا يقدّرون مسؤولياتهم حق قدرها ولا يحرصون على أمانتهم ونزاهتهم ، ليقع في مثل هذا العمل الذي لا يقع في مثله أمثاله من الرجال .

جهـــاده :

١ - توليتـــه :

هناك اختلاف كبير بين المؤرخين في تاريخ تولية موسى إفريقيّة والمغرب.

فقد ذكر بعض المؤرخين أنه تولّى إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين الهجرية [3] ، أو سنة ثمانٍ وسبعين الهجرية [4]، أو سنة تسع وسبعين الهجرية [5]،

---

(١) البيان المغرب (١/٣٢) ، وانظر تفاصيل ذلك في الامامة والسياسة (٢/٥٩ - ٦٠).

(٢) انظر مثلا المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢٣٧ - ٢٣٩) عن معدل واردات بعض النواحي ، مما يدل على وجود إحصائيات دقيقة عن معدل الواردات

(٣) اليعقوبي (٣/٢٢) ونفح الطيب (١/٢٢٣).

(٤) الحلة السيراء (٢/٣٣٢) وتهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦) والعبر (١/٨٨) وشذرات الذهب (١/٨٤) والولاة والقضاة (٥٢) والنجوم الزاهرة (١/١٩٨).

(٥) البداية والنهاية (٩/١٧١) والبلاذري (٢٣٢) والامامة والسياسة (٢/٦١) وبغية =

أو سنة ست وثمانين الهجرية[1] ، أو ثمان وثمانين الهجرية[2] ، أو تسع وثمانين الهجرية[3] .

لقد استقامت بلاد إفريقيّة لحسّان بن النعمان الغسّاني[4] سلف موسى على إفريقيّة والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية ، فانصرف إلى (القيروان) بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان من تلك السنة[5] . وفي القيروان أمر حسان بتجديد بناء المسجد الجامع ، فبناه بناءً حسناً وجدّده في رمضان من سنة أربع وثمانين الهجرية[6] ؛ وهذا يدلّ على أن موسى تولى إفريقيّة والمغرب بعد هذا التاريخ .

وقد عزل عبد العزيز بن مروان الذي كان على مصر حسّان بن النعمان وولّى مكانه موسى[7] ، فلما قدم حسّان على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية ورحل إلى الشام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك[8] . وفي رواية أخرى ، أن حسّان لما ارتحل الى المشرق عن (القيروان) كان على مصر عبد الله بن عبد الملك[9] ، وقد توفي عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين الهجرية[10] ، وعبد الله بن عبد الملك تولى مصر في جمادى الآخرة

= الملتمس (٢٤٤) وجلوة المقتبس (٣١٧).

(١) البيان المغرب (٣٥/١).

(٢) نفح الطيب (٢١٤/١) و (٢٣٤/١).

(٣) ابن الأثير (١٤٤/٤) و (٢٠٩/٤).

(٤) انظر ترجمته الكاملة في هذا الكتاب (١٧٢-٢٢٠) .

(٥) البيان المغرب (٢٩/١).

(٦) رياض النفوس (٣٧/١).

(٧) الحلة السيراء (٣٣٢/٢) والولاة والقضاة (٥٢) والبلاذري (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٤) والامامة والسياسة (٦١/٢) وتهذيب ابن عساكر (١٦٤/٤).

(٨) البيان المغرب (٣٠/١).

(٩) الاستقصا (٨٤/١).

(١٠) العبر (٩٦/١) وشذرات الذهب (٩٥/١). وفي الولاة والقضاة (٥٥): إنه توفي سنة ست وثمانين الهجرية .

سنة ست وثمانين الهجرية[1] ، وعبد الملك بن مروان توفي سنة ست وثمانين الهجرية[2]، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك. وهذا يدلّ على أن موسى تولى إفريقية والمغرب في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية ، إذ من المستبعد أن يُتْرَكَ أمرُ المغرب كلّه على صالح أو أبي صالح الذي استخلفه حسّان على المغرب بعد عزله[3] بدون والٍ أصلي مسؤول لمدة طويلة ، الى سنة ثمان وثمانين أو تسع وثمانين الهجرية ، أي لمدة ثلاث سنوات أو أربع سنوات من وفاة عبد العزيز بن مروان الذي عزل حسّان بن النعمان وولّى مكانه موسى بن نصير .

٢ ـ جهاده في المغرب :

أ ـ أعماله التمهيدية :

أولاً : عندما توافت الجيوش ، قام خطيباً ، فكان مما قاله : «... وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى مني حسنة ، فليحمد الله ، وليحضّ على مثلها ؛ ومن رأى مني سيئة ، فلينكرها ، فإني أخطىء كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون ؛ وقد أمر الأمير أكرمه الله[4] لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً ، فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله » [5].

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقيّة حشد جيشه وأكمل إستحضاراته الإدارية ، وساوى نفسه برجاله ، وأعطاهم ما يستحقونه من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً ، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها ... الخ .

---

(١) الولاة والقضاة (٥٨).
(٢) تاريخ بغداد (٣٩١/١) وتاريخ الخميس (٣١١/٢).
(٣) الاستقصا (٨٤/١).
(٤) يريد : عبد العزيز بن مروان بن الحكم .
(٥) انظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (٦١/٢ – ٦٢).

لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في تحمّل مسؤوليته الجسيمة .

ثانياً : وسار موسى متوجهـاً إلى المغرب ، وكان الأمن هناك غير مستتب[1] ، فلما وصل الى إفريقية وبها صالح [2] الذى استخلفه حسّان ابن النعمان على إفريقية ، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسّان[3] ، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بيّن فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح[4] : قتال العدو القريب أولاً ، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد .

ثالثاً : وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة ، بدأ باستعادة جبل (زَغْوَان)[5]

---

(١) ورد في الامامة والسياسة (٢/٦٢) : وكان قدوم موسى إفريقية وما حولها مخوفاً بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في الميدين ، لقرب العدو منهم .

(٢) في الامامة والسياسة (٢/٦٢) : إنه أبو صالح الفهري وقد غرمه موسى عشرة آلاف دينار ووجهه بالحديد إلى دمشق عاصمة الدولة .

(٣) ابن الأثير (٤/٢٠٦) .

(٤) في الامامة والسياسة (٢/٦٢ – ٦٣) نص خطاب موسى وهو : « أيها الناس ! إنما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين : مسالم يحب العافية ، ويرضى بالدون من العطية ، ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوينى ، وليس أخو الحرب إلا مـن اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم . ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا في حزمه ، جازماً في عزمه ، مستزيداً في علمه ، مستشيراً لأهـل الرأي في إحكام رأيه ، متحنكاً بتجاربه ، ليس بالمتجابن إقحاماً ، ولا بالمتخاذل إحجاماً ؛ إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً ، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً ، راجياً من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ، ورجاهم إياها لقول الله تعالى : (إن العاقبة للمتقين) ، أي الحذرين .

« وبعد . فان كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ؛ وأيم الله ، لا أريم هذه القلاع ، والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » .

(٥) زغوان : جبل بإفريقية بالقرب من تونس ، وهو جبل منيف مشرف ، يرى على مسيرة الأيام الكثيرة ، فيه قرى كثيرة آهلة كثيرة المياه والثمار . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٩٤) .

البحر الابيض المتوسط
اسبانيا
المحيط الاطلسي
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
مدينة الجزائر
تونس
تلمسان
تاهوت
تسنطينه
باغاية
زغوان
القيروان
جبال الاطلس
سبطلة
جبال أوراس
مراكش
اغادير
السوس
نهر درعة

خط سير موسى بن نصير اثناء استكمال فتح المغرب

وما حوله ، وبينه وبين (القيروان) مسيرة يوم كامل ، وبنواحي (زغوان) قبائل من البربر ؛ فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس[1] ، فاستعاد فتح (زغوان) وسبى منهم ، فكان ذلك السبي أول سبي دخل (القيروان)[2] . كما وجّه ابنه عبد الله بن موسى[3] إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بمائة ألف رأس من السبي ، ثم وجّه ابنه مروان فأتى بمثلها ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفاً[4] ، وكان هؤلاء من البربر الخارجين عن الطاعة[5] .

ومن الواضح أن هناك مبالغة شديدة في عدد الأسرى ، فاذا كان الخمس ستين ألفاً ، فإن السبي يكون مقداره ثلاثمائة ألف ، فاذا كان سبي زغوان عشرة آلاف رأس وسبي عبد الله مائة ألف وسبي مروان مائة ألف ، فيكون مجموع السبي عشرة آلاف ومائتي ألف لا ثلاثمائة ألف[6] !

ولكنّ أعمال موسى هذه لها دلالة واضحة على أنه استطاع القضاء على جيوب المقاومة في إفريقية ، وأنه استطاع إخضاع قبائل

---

(١) في الامامة والسياسة (٢/٦٣) : إن موسى بعث على رأس تلك القوة رجلا من (خشين) يقال له عبد الملك ... انتهى . وخشين هو خشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة . انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٥٤ - ٤٥٥).

(٢) البيان المغرب (١/٣٢) والامامة والسياسة (٢/٦٣) ، وفيهما : أن سبي زغوان بلغ عشرة آلاف ، وهذا لا يخلو من مبالغة .

(٣) ورد اسمه : عبد الرحمن بن موسى في الامامة والسياسة (٢/٦٣) ، بينما ورد اسمه في البيان المغرب (١/٣٢) : عبد الله بن موسى وكذلك في ابن الأثير (٤/٢٠٦)... الخ

(٤) البيان المغرب (١/٣٢) والامامة والسياسة (٢/٦٢) .

(٥) ابن الأثير (٤/٢٠٦).

(٦) في البيان المغرب (١/٣٢ - ٣٣) والامامة والسياسة (١/٦٣) : إن موسى بن نصير كتب إلى عبد العزيز بن مروان يعلمه بالفتح ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً ، وكان ذلك وهماً من الكاتب : كتب ثلاثين ألفاً بدلا من ستين ألفاً ، فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب ، وأن الخمس من السبي ثلاثون ألفاً ، استكثر ذلك ، ورأى أنه وهم من الكاتب لكثرته ، فكتب إلى موسى يقول له : « إنه قد بلغني كتابك تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس ، فاستكثرت ذلك ، وظننته وهماً من الكاتب ، فاكتب بالحقيقة ! » ، فكتب إليه موسى : « قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً بلا وهم ! » . فلما بلغه الكتاب امتلأ سروراً ».

البربر التي خرجت على الطاعة بعد مسير حسّان إلى المشرق ، وأن موسى أراد أن يحلّ قضايا القبائل المتمرّدة حلاً جذرياً ، فعاقب الخارجين عليه ، عقاباً صارماً .

وبذلك استطاع موسى أن يجعل من منطقة (القيروان) وما حولها قاعدة أمينة ينطلق منها موسى بن نصير وهو أمين على خطوط مواصلاته ، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلاً في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

ب – استعادة المغرب الأوسط وفتح المغرب الأقصى :

أولاً : أرسل موسى ألف فارس[١] إلى هوارة و زناتة (من قبائل البربر) فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا[٢]، فعرضوا الصلح ، فصالحهم المسلمون ، وكانت (كتامة) وهي قبيلة من البربر أيضاً قد قدمت على موسى فصالحته، فولّى عليهم رجلاً منهم وأخذ منهم رهونهم . وحاولت رهون كتامة الفرار إلى قبيلتهم ، فوجّه الخيول في طلبهم وأتى بهم ، فأراد صلبهم فقالوا : « لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتّى يتبين أمرنا ، فان آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً ، ونحن في يدك ، وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل » ، فأوقرهم حديداً ، وأخرجهم معه إلى كتامة ، وخرج هو بنفسه ؛ فلما بلغهم خروج موسى ، تلقّاه وجوه كتامة معتذرين ، فقبل منهم ، وتبينت له براءتهم ، واستحيا رهونهم[٣] ، وقد كانت كتامة بوادي (دَرْعَة)[٤] .

ثانياً : وأخبر الجواسيس موسى ، أن صِنْهَاجَة وهي من قبائل البربر أيضاً ، بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ؛ فأغار

---

(١) على رأسهم عياش بن أخيل . انظر الامامة والسياسة (٢/٦٦) .

(٢) في الإمامة والسياسة (٢/٦٦) : إن سبيهم بلغ خمسة آلاف رأس .

(٣) الإمامة والسياسة (٢/٦٦) وانظر البيان المغرب (١/٣٤) .

(٤) درعة : مدينة بالمغرب بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ انظر معجم البلدان (٤/٥٣) .

عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المتطوعة ، ومن قبائل البربر[1] . وسار موسى حتّى غشي صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون، فقتلهم قتل الفناء وسبى منهم سبياً كثيراً[2]، ثم انصرف قافلاً الى (القيروان) . ولقد لقي موسى صنهاجة في وادي (مَلْويّة) في المغرب الأوسط[3] .

ثالثاً : وغزا موسى (سجومة) في المغرب الأوسط في عشرة آلاف من المسلمين[4] . وأعطى اللواء ابنه مروان بن موسى ، حتّى إذا كان بمكان يقال له : سجن الملوك ، خلّف الأثقال[5] وتجرّد في الخيول ، حتّى انتهى إلى نهر يقال له نهر (ملوية) ، فوجده في حالة فيضان، فكره طول المقام عليه خوفاً من نفاد الزاد ، وأن يبلغ العدو مخرجه ومكانه . لذلك أحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع التي كره أن يجوز عليها[6] . فلما أجاز وانتهى إليهم ، وجدهم قد أنذروا وتأهبوا وأعدوا للحرب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً في جبل شديد لا يصل اليهم إلاّ من أبواب معلومة . وبعد قتال استمر ثلاثة أيام انهزم أهل (سجومة)[7]، ففتح المدينة وقتل ملوكها وأمر أولاد عقبة بن نافع : عياضاً وعثمان وأبا عبيدة ، أن يأخذوا حقّهم من قاتل أبيهم ، فقتلوا من أهل (سجومة) ستمائة رجل من كبارهم ، ثم قال لهم موسى : «كفّوا» ،

---

(١) كان على مقدمته عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى ميمنته المغيرة بن أبي بردة، وعلى ميسرته زرعة بن أبي مدرك . انظر الامامة والسياسة (٢/٦٧)..

(٢) في الامامة والسياسة (٢/٦٦) : إن السبي بلغ يومئذ مائة ألف رأس .

(٣) انظر تاريخ المغرب (٢١٠ – ٢١١) نقلا عن النص الجديد لعبيد الله .

(٤) على مقدمته عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى ميمنته زرعة بن أبي مدرك ، وعلى ميسرته المغيرة ابن بردة القرشي ، وعلى ساقته نجدة بن مقسم . انظر الامامة والسياسة (٢/٦٧).

(٥) ترك على الأثقال عمرو بن أوس في ألف . انظر الامامة والسياسة (٢/٦٧).

(٦) من المحتمل أن يكون سبب ذلك وجود تلك المخاضة تحت رصد العدو أو أنها قريبة من تجمعاته فاذا عبر منها فسيكشف حركات جيشه لعدوه .

(٧) الامامة والسياسة (٢/٦٧ – ٦٨).

فكفوا[1]، فقال عياض بن عقبة : «أما والله لو تركني ما أمسكت عنهم ، ومنهم عين تطرف[2] » ، لأن البرانس وعلى رأسهم كسيلة بن لمزم هم الذين قتلوا عقبة بن نافع في معركة (تَهُوْذَة)[3] .

وهكذا أخضع موسى قبائل البربر التي شقّت عصا الطاعة بعد مسير حسّان بن النعمان الى المشرق[4] ، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين ، فخرج من إفريقيّة نحو المغرب الأوسط وولاية (طَنْجَة)[5] ، فتبدّدت القبائل أمامه نحو الغرب خوفاً من العرب[6] ، فتتبعها عبر (السوس) الادنى[7] حتّى بلاد (سِجِلْمَاسَة)[8] ووادي (درعة) .

وكان من الطبيعي وقد حقّق موسى هذا النجاح الباهر أن يوسّع دائرة نشاطه في بقيّة أنحاء المغرب ، فسيّر ابنه مروان[9] على رأس قوة من خمسة

---

(1) البيان المغرب (1/34).

(2) الإمامة والسياسة (2/68) وفيه : إن كسيلة بن لمزم قتل في هذه المعركة ، بينما كسيلة قتله زهير بن قيس البلوي ، وكسيلة هذا هو الذي قتل عقبة بن نافع . انظر ترجمتي عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوي في هذا الكتاب .

(3) تهوذة : اسم قبيلة من البربر بناحية افريقية لهم أرض تعرف بهم . أنظر معجم البلدان (2/438) وانظر ابن الاثير (4/43) والاستقصا (1/74).

(4) ابن الأثير (4/206).

(5) طنجة : مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (6/62) والمسالك والممالك (34) وتقويم البلدان (132).

(6) البيان المغرب (1/36).

(7) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي . انظر التفاصيل في معجم البلدان (5/172) والمشترك وضعاً (259).

(8) سجلماسة : مدينة في جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (5/41).

(9) في ابن الأثير (4/206) ، ورد اسمه : هرون ، وهو تصحيف بدون شك ، استبدل الناسخ ميم مروان بهاء هرون .

آلاف رجل الى (السوس الأقصى)[1]، كما سيّر قائده زُرْعَة بن أبي مدرك الى بربر (مَصْمُودَة)[2] في (أطلس العليا)[3]. ونجحت الحملتان، فعاد مروان بسبي كثير[4]. أما زرعة فلم يلق حرباً من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم، وقدّموا إليه رهائنهم، كما قدّمت غير مصمودة الرهائن[5]، وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها خيل العرب أرض مصمودة بعد دخول عقبة بن نافع لأول مرة، وتأكد انتشار الإسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعاً[6].

ج ـ فتح طنجة:

وهكذا بعد أن تمّ لموسى إخضاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى من صحراء (درعة) الى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلّع موسى نحو (طنجة) التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان (جوليان) منذ أيام عقبة بن نافع. والمقصود بطنجة هنا، هو الولاية التي كانت تتسع في القديم لمسيرة شهر، وليس المدينة فقط[7].

خرج موسى من القيروان لفتح (طنجة)، وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة (طنجة) وهي قصبة بلادهم وأمّ مدائنهم[8]؛ فلما دنا موسى من (طنجة) بثّ

(١) السوس الأقصى: أقصى بلاد البربر على المحيط. والسوس الأقصى إسم مدينة اطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ذات المدن والقرى الكثيرة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩).

(٢) مصمودة: هي قبيلة مصمودة بن برنس من قبائل البربر البرانس. انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٠).

(٣) النص الجديد (٢٢٤) نقلا عن تاريخ المغرب العربي (٢١٢).

(٤) أنظر التفاصيل في البيان المغرب (٣٦/١).

(٥) البيان المغرب (٣٦/١).

(٦) البيان المغرب (٣٦/١ ـ ٣٨).

(٧) انظر تاريخ المغرب العربي (٢١٢).

(٨) نفح الطيب (٣١٥/١) و (٢٣٤/١).

السرايا ، فانتهت خيله إلى (السوس الأدنى) ، فوطئهم وسباهم ، وأدوا إليه الطاعة ، وولىّ عليهم والياً أحسن فيهم السير[1].

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها[2] ونزلها ، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين[3] ، فأسلم أهلها وخطّها موسى قيرواناً للمسلمين[4].

وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن (سَبْتَة)[5] وعليها يليان (جوليان) ، فقاتله موسى ، فألفاه في نجْدة وقوة وعدّة فلم يُطِقْه ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف اليهم بالميرة والامداد من الأندلس من قبل ملكها (غَيْطشَة) ، فهم يذبّون عن (سبتَة) ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة[6] ، وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس[7]، مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين.

كان بـ (طنجة) من البربر بطون (البُتْر) و (البرانس) ممن لم يكن دخل في الطاعة[8] ، فوضع موسى على ساحل (طنجة) حامية للرباط مؤلفة من الف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكن مروان انصرف وخلّف على جيشه طارق بن زياد[9]. وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلاّ إقليم (سبتة)

---

(١) فتح مصر والمغرب (٢٧٦).
(٢) نفح الطيب (١/٢١٥) و (١/٢٣٤).
(٣) البلاذري (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٦).
(٤) نفح الطيب (١/٢٣٤).
(٥) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٦).
(٦) نفح الطيب (١/٢٣٤).
(٧) معجم البلدان (٥/٢٦).
(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٧٦). انظر ما جاء عن ذلك مختصراً في كتاب الإسلام والعرب (١٤٥).
(٩) فتوح مصر والمغرب (٢٧٥).

وانتشر الإسلام فيه .

وعاد موسى إلى (القيروان) بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام [١].

وفي الطريق إلى القيروان ، فتح موسى مدينة (مَجّانة)[٢] على مسيرة خمسة أيام من القيروان[٣]، على الحدود الجزائرية — التونسية الحالية[٤] على يد بشر بن فلان ، وكانت (مجانة) قلعة تحصّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان [٥] ، فاستعاد بشر هذا فتحها ، لأنها سبق أن فتحها بسر بن أبي أرطاة[٦] .

لقد افتتح موسى بلاد المغرب وغنم منها أموالاً لا تعدّ ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة[٧] ، وأسلم أهل المغرب على يديه وبثّ فيهم الدين والقرآن[٨] ، فكان يأمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين[٩] ، فلم يبق في إفريقيّة من ينازعه[١٠]، غير منطقة(سبتة) كما ذكرنا.

---

(١) نفح الطيب (١/٢٢٤).
(٢) مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧).
(٣) معجم البلدان (٣٨٦/٧).
(٤) تاريخ المغرب العربي (٢١٤).
(٥) ابن الأثير (٢٠٦/٤).
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٣٨٦/٧) وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطاة . في الجزء الثاني من هذا الكتاب .
(٧) البداية والنهاية (١٧١/٩).
(٨) البداية والنهاية (١٧٢/٩).
(٩) البيان المغرب (٣٦/١).
(١٠) ابن الأثير (٢٠٦/٤).

٣ - جهاده في البحر :

أ - مهّد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة (تونس) وتوسيع دار الصناعة بها ، وشق القناة التي توصل بين الميناء (رادس)[١] وبين المدينة على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة ، فصارت مشتّى للمراكب إذا هبّت الأنواء والأرياح ؛ ثم أمر بصناعة مائة مركب[٢] .

ب - وأمر موسى بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنه راكب بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا ، فلم يبق شريف ممن كان معه إلاّ وقد ركب الفلك ، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم وأمّره ، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه . وإنما أراد موسى بما أشار من مسيره ، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسميت هذه الغزوة : غزوة الأشراف . وسار عبد الله بن موسى في مراكبه ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية (البحر الأبيض المتوسط) . فأصاب في غزوته تلك (صِقِلّيّة) ، وافتتح مدينة فيها ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف الى التسعمائة ، ثم انصرف قافلاً سالماً ، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين الهجرية[٣].

جـ - وبعث موسى عيّاش بن أخيل على مراكب أهل إفريقيّة ، فشتا في البحر ، وأصاب مدينة يقال لها : (سَرَقُوسَة)[٤] ، ثم قفل في سنة ست وثمانين الهجرية[٥] .

---

(١) رادس : البحر الذي على ساحل تونس بإفريقية يقال له : رادس ، وبذلك سمي ميناها : ميناء رادس . ورادس اسم موضع كالقرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٠٣ - ٢٠٤) .

(٢) الامامة والسياسة (٢/٧٠) .

(٣) الامامة والسياسة (٢/٧٠ - ٧١) .

(٤) سرقوسة : أكبر مدينة بجزيرة صقلية ، وكان بها سرير ملك الروم قديماً . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٧٤) .

(٥) الإمامة والسياسة (٢/٧١) .



د ــ وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر الى (سَرْدانيَة)[1] فأرسى بـ (سُوسَة)[2]، فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية (أرزاق وسلاح وتجهيزات)

(١) سردانية: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية أكبر منها. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٦٦).

(٢) سوسة: مدينة بالمغرب بينها وبين سفاقس يومان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧٣)

وكتب اليه « إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فأقم لا تغرِّر بنفسك ، فإنك في تشرين الآخر ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر » ، فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى ، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه[1] . وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة[2] ، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف ، فغرق عطاء وأصحابه[3] .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية عقد موسى لعبد الله بن مرّة على بحر إفريقية ، فأصاب (سَرْدَانِيَة) وافتتح مدائنها ، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى[4] .

هـ — وفي سنة تسع وثمانين الهجرية جهّز موسى ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي : (مَيُوُرْقَة)[5] و (مَنُوُرْقَة)[6] وهما جزيرتان في البحر بين (صِقِلِّيَة) وجزيرة الأندلس[7] .

---

(١) الامامة والسياسة (٧٠/٢).
(٢) انظر التفاصيل في فتوح مصر والمغرب (٢٨٢ — ٢٨٣).
(٣) الامامة والسياسة (٧٠/٢).
(٤) الامامة والسياسة (٧١/٢).. وفي معجم البلدان (٦٦/٥) : إن عسكر موسى بن نصير فتح سردانية سنة اثنتين وتسعين الهجرية . وكذلك في ابن الأثير (٢١٦/٤) والنجوم الزاهرة (٢٢٥/١). والأقرب إلى المنطق أن يكون غزو سردانية قد تم من القواعد البحرية المغربية وليس من الأندلس ، ففتح الأندلس كان في بدايته، ولم يكن العرب المسلمون في سنة ٩٢ هـ قد وصلوا إلى سواحله الشرقية، فمن المرجح إذاً أن تلك الغارات البحرية قد وقعت قبل فتح الأندلس مباشرة ، ويمكننا القول : إنها التي شجعت على القيام بالمغامرة الكبرى فيما وراء بحر الزقاق . انظر تاريخ المغرب العربي (٢١٩).
(٥) ميورقة : جزيرة في شرقي الأندلس ، بالقرب منها جزيرة يقال لها : منورقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٩/٨).
(٦) منورقة : جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٥/٨).
(٧) النجوم الزاهرة (٢١٦/١) وانظر العبر (١٠٤/١) وشذرات الذهب (٩٨/١) والبداية والنهاية (٧٧/٩).

٤ ـ جهاده في الأندلس :

أ ـ مقدمات الفتح :

أولاً ـ كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب ، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب[١] ، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام ، وبوجود القوة الضاربة في جانب العرب المسلمين .

ولم تستعص على موسى غير مدينة (سَبْتَة)[٢] لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل (القوط) في اسبانيا[٣] حاكم اسمه (خوليان Julian) ويسميه العرب (يليان)[٤] أو (إليان)[٥] أو (بوليان)[٦] . وقد اختلفت المصادر في شخصية (يوليان) هذا ، فبعضها يذكر أنه قوطي ، وبعضها يزعم أنه رومي ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة[٧] . والواقع أن يوليان كان حاكماً عاماً على إقليم (موريطانية الطنجية) ، وكانت تابعة لموريطانية القيصرية ـ إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية ، فلما عجزت الدولة البيزنطية

---

(١) أنظر المسالك والممالك للاصطخري (٣٣).

(٢) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرساها أجود مرسى على البحر ، وهي على بر البربر ، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة ، وهي مدينة حصينة ضاربة في البحر ، بينها وبين (فاس) عشرة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٦) وتقويم البلدان (١٣٢ ـ ١٣٣).

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار الى مداين تقع على شاطىء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس على رأسها سبتة . (انظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس نشره: E. Lafuen tente Alcantara ، مدريد ١٨٦٧ ص٤) .

(٤) البيان المغرب (٢/٦).

(٥) صفة المغرب للبكري (١٠٤).

(٦) ابن الأثير (٤/٢١٣).

(٧) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢ ـ ٥٣).

عن حمايتها ، ولّت (سبتة) وجهها شطر إسبانيا القوطية [1] . وقد بدأ يوليان ولايته لهذا الإقليم في سن مبكرة ، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتّى توثّقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتّى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنّوه بربرياً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنه كان يتوجّه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة في تلك الآونة [2] .

ثانياً – وكان (يوليان) حليفاً للملك اسبانيا (غيطشة Witiza) الذي تولى عرش البلاد في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (٧٠٠ م) بعد وفاة أبيه (إخيكا Egica) . وقد خُلع غيطشة من العرش على أثر ثورة قام بها نفر من أنصار (لذريق [3] Rodrigo) . وأثار اغتصاب لذريق للعرش نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبّوا ضد هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشرعي ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلّت مستمرة حتّى دخول المسلمين أرض الأندلس .

وفرّ ابن غيطشة المدعو (وقلة Achila) الذي تولى العرش بعد أبيه الى إفريقية، وأقام عند (يوليان) حاكم (سبتة) الذي كان لا يزال على ولائه للملك (غيطشة) وأولاده ، بينما استبقى (لذريق) ولدي (غيطشة)

---

(١) ذكر الحميري أن يوليان هذا كان عاملاً للذريق على سبتة. (انظر ابن عبد المنعم الحميري – صفة جزيرة الأندلس – نشره ليفي بروفنسال – القاهرة – ١٩٣٧) .

(٢) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ – ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣ – ٥٤).

(٣) ورد اسمه في الطبري (٥/٢٤٥): ادرينوق ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩)، لذريق ، وفي ابن الأثير (٤/٢١٣) : رذريق ، وفي ابن خلدون (٤/١١٧) : لزريق ، وفي اليعقوبي (٣/٢٩) أدريق ... الخ ...

الآخرين وهما (أرطباس Artavasdes) و (المند Olmundo) إلى جواره حتى يستوثق من إخلاصهما له، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة. وساءت حال البلاد في عهد لذريق، إذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة لحاجته إلى المال اللازم لمواجهة أعدائه، ويبدو أنه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطية ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيستي (سان بدرو) و (سان بابلو) في (طُلَيْطُلَة)[1] فنصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك، فلم يصغ لنصحهم، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب، وهي أسطورة بيت الحكمة[2].

ب ـ غزوة طريف :

وكان موسى يتوق الى افتتاح الأندلس، وكان عامله على (طنجة) وهو طارق بن زياد يتطلّع الى الأندلس أيضاً. وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءته رسالة من يوليان يعرض فيها تسليم معقله (سبتة) ويدعوه إلى فتح إسبانيا. وجرت بينهما المفاوضة في هذا

---

(١) طليطلة : مدينة كبيرة في الأندلس على شاطىء نهر تاجه. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٥٦) وتقويم البلدان (١٧٦ - ١٧٧).

(٢) خلاصة هذه الأسطورة، أنه كان في طليطلة، دار ملك القوط، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط، وكانت العادة، أنه إذا تولى من القوط ملك، زاد على البيت قفلا، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت، فأعظم ذلك أكابرهم، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك، فأبى وظن أنه بيت مال، ففض الأقفال عنه ودخله، فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان، وتابوت عليه قفل، فأمر بفتح التابوت، فألفاه فارغاً ليس فيه غير شقة مدرجة، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم، متقلدي السيوف، متنكبي القسي، رافعي الرايات على الرماح، وفي أعلاها كتابة بالعجمية، فقرئت فاذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح التابوت، فظهر ما فيه من هذه الصورة، فان الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها. انظر تفاصيل هذه القصة في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (٣٢ - ٣٣) والبيان المغرب (٢/٤) ونفح الطيب (١/٢٣١ - ٢٣٢) و (١/٢٣٥).

المشروع الخطير ، وهنا تختلف الرواية في أمر هذا الإتصال ، فيقال : إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل : إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية وأن يوليان استدعى موسى الى (سبتة) وهناك جرت المفاوضات بينهما ؛ وقيل : إنهما إجتمعا في سفينة في البحر[1] . وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان[2]، واهتم بمشروعه اهتماماً كبيراً ، فكتب إلى الوليد ابن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع[3] ، فكتب إليه الوليد : بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرّر بالمسلمين » ، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من البربر يسمى : طريفاً ، ويكنى بأبي زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل ؛ فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر بالأندلس فيما يحاذي (طنجة) ، وهو المعروف اليوم بـ (جزيرة طريف)[4] ، سميت باسمه لنزوله هناك[5] ،

---

(١) ابن الأثير (٢١٣/٤) والبيان المغرب (٦/٢).

(٢) تجعل بعض المصادر العربية أن أسباب اتصال يوليان بموسى ودعوته لغزو الأندلس وكشفه له عوراتها ، وتهوين أمرها لموسى ، أن يوليان كان قد أرسل إبنته الى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ فية أسوة بغيرها من بنات سروات القوط في ذلك الزمان . وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتبت إلى أبيها بخبرها ، فأحفظه ذلك على لذريق ، ودفعه إلى التفكير في الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه ، حتى وُفّق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها . انظر ابن خلدون (١١٧/٤) والمعجب في تاريخ المغرب (٧) ونفح الطيب (٢٣٥/١ — ٢٣٦) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٧) ... الخ . أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة (١١١٠) م ، إذ ورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو : تاريخ راهب سيلوس ، ذكرها بجملة على صورة قريبة الشبه بما تذكره الروايات العربية . انظر التفاصيل في كتاب فجر الأندلس (٥٩ — ٦٠).

(٣) في البيان المغرب (٦/٢) : أن موسى استشار الوليد بن عبد الملك ، إما مراسلة وإما نهض بنفسه إليه ، على خلاف في ذلك ... انتهى . ولعل ظروف موسى حينذاك لم تكن لتتيح له السفر الى دمشق لمفاتحة الوليد بن عبد الملك بذلك ، إذ كانت أعباء الجسام تحول دون سفره .

(٤) جزيرة طريف : تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية ، التي سميت باسمه لنزوله فيها ، وتعرف هذه الجزيرة باسم : لاس بالوماس (Isla de Las Palomas) . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٠).

(٥) يسمي الحميدي طريفاً : طريف بن ملوك المعافري ، ويسميه الرازي : طريف بن مالك =

فأغار منها على ما يليها الى جهة (الجزيرة الخضراء[1])، وأصاب سبياً ومالاً كثيراً، ورجع سالماً، وكانت إجازته في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين الهجرية[2] (٧١٠ م).

جـ ــ فتح طارق :

أولاً : وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان ــ إبريل ٧١١ م)، جهّز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق ابن زياد الّليثي[3]، فعبر البحر من (سبتة) بجيشه تباعاً في سفن (يوليان)، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة الّتي لا تزال تحمل اسمه حتّى اليوم أعني : (جبل طارق)[4].

=المعافري، ويسميه ابن خلدون: طريف بن مالك النخعي . ويسميه المقري في نفح الطيب (١/٢١٤): طريف البربري . وانظر ما جاء عن طريف في نفح الطيب (١/٢١٤ و ٢١٧ و ٢٣٧ و ٢٣٨).

(١) الجزيرة الخضراء : مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي، وهي مدينة طيبة لنزهة توسطت مدن الساحل وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها أحسن المراسي للجواز، وأرضها أرض زرع وضرع، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ - ١٧٤).

(٢) البيان المغرب (٦/٢) ونفح الطيب (١/٢١٤) وانظر الطبري (٥/٢٣٥)، ونص ما جاء في الطبري : غزا موسى بن نصير الأندلس، ففتح على يديه أيضاً مدائن وحصون .. انتهى . وقد نسب فعل طريف إلى موسى بن نصير نسبة فعل المأمور الى الآمر، فصدق عليه إضافته لموسى، فيكون قول الطبري صادقاً . انظر البيان المغرب (٦/٢).

(٣) هكذا ورد اسمه في ابن خلدون (٤/١١٧) ونفح الطيب (١/٢١٧).

(٤) نفح الطيب (٢/٢١٦) والبيان المغرب (٨/٢). وهناك خلاف على الشهر الذي عبر فيه طارق، فمن المراجع من يذكر أن عبور المسلمين كان في ربيع الثاني سنة ٩٢ هـ (٧١١ م). فلو أخذنا بنظر اعتبار من أن طارقاً نفسه وصل إلى الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور في الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ، لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدأوا العبور في آخر ربيع الثاني . انظر البيان المغرب (٧/٢).

كما أن بعض المصادر تذكر أن طارقاً كان معه (١٢) ألف جندي عند عبوره لفتح الأندلس . انظر البداية والنهاية (٩/٨٣) ونفح الطيب (١/٢٤١).

وتوالت انتصارات طارق ، ففتح مدينة (قرطاجنة الجزيرة[1] Carteya) ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل (الجزيرة الخضراء)، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد.

وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح (الجزيرة الخضراء) وسيطروا على المجاز إلى الأندلس ، فزحف لذريق لصدّ المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف اليه بما لا قبل له به ، فأرسل اليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين[2] ، وعلى رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان ، وبهم كملت عدّة من مع طارق اثني عشر ألفاً[3] .

والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز – يوليو سنة ٧١١ م) على وادي (بَرْبَاط)[4] أو وادي (لكة)[5] قرب مدينة (شَذُونَة)[6] ، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة[7] ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين .

ثانياً : أحدث انتصار طارق في وادي (لكة) دوياً هائلاً في المشرق

---

(١) قرطاجنة الجزيرة : مدينة بالأندلس تعرف بـ (قرطاجنة الخلفاء) قريبة من آلش من أعمال (تدمير) ، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥٣) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٤٢) . وانظر ما جاء عن هذا الفتح في البيان المغرب (٢/٣) ونفح الطيب (١/٢١٨).

(٢) نفح الطيب (١/٢١٦).

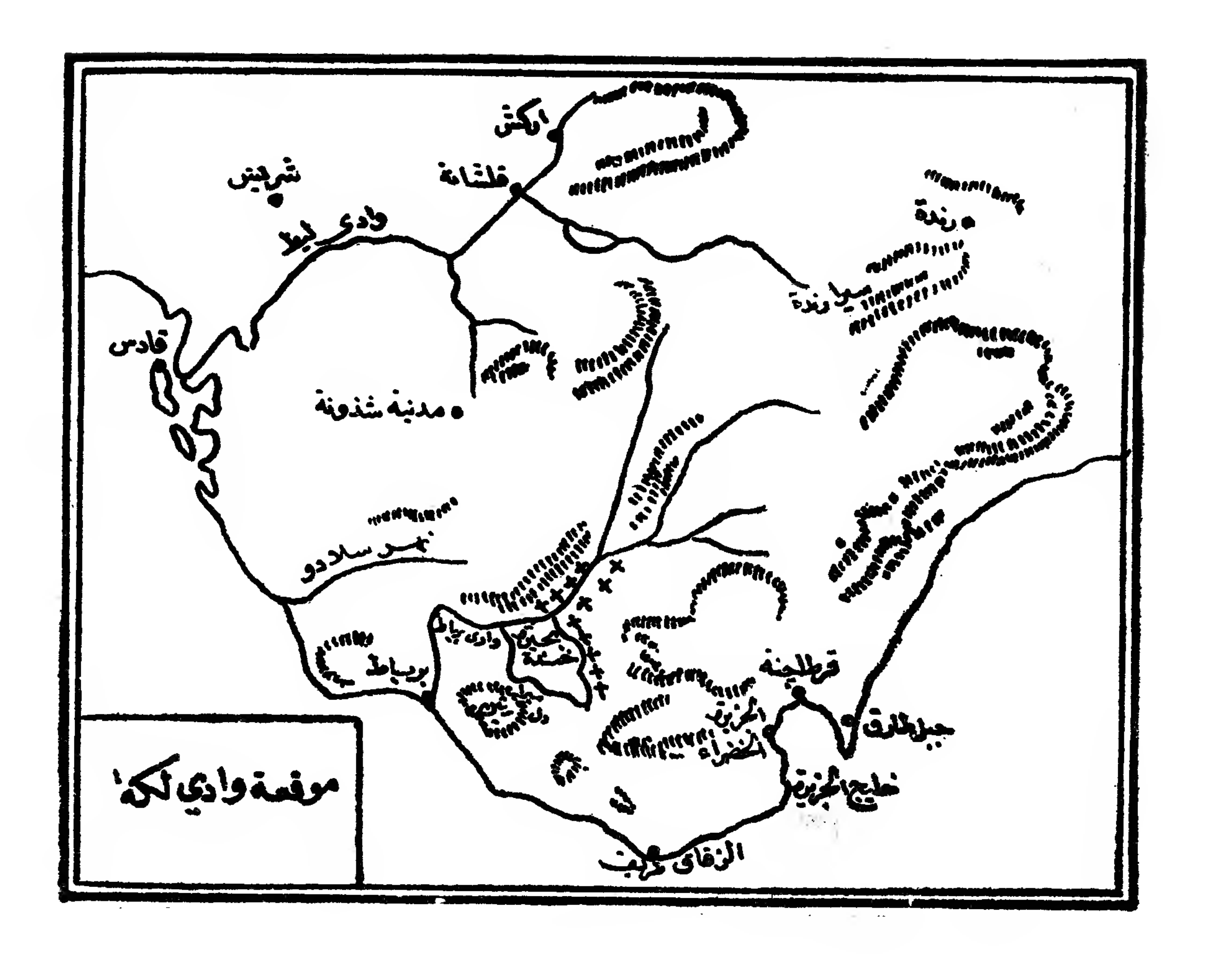
(٣) أخبار مجموعة (٧) ونفح الطيب (١/٢٤١).

(٤) وادي برباط : واد بالأندلس من أعمال شذونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٠٣).

(٥) وادي لكة : ورد اسمه في البيان المغرب (٢/١٠) : وادي الطين . وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، ورد اسمه : وادي أم حكيم .

(٦) شذونة : مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٤٤). وفي ابن خلدون (٤/١١٧) ، أن الجيشين التقوا بفحص شريش . والصحيح أنها وقعت في فحص شذونة ، لأن شريش بعيدة عن ميدان المعركة .

(٧) ابن خلدون (٤/١١٧) والبيان المغرب (٢/١٠).



موقعة وادي لكة
اركش
قلشانة
شريش
وادي لبط
قادس
مدينة شذونة
نهر سلادو
ريندة
سيلا رندة
بورباط
وادي بياط
قرطاجنة
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
خليج الجزيرة
الزقاق طريف

والمغرب ، وتسامع الناس من أهل برّ العُدوَة بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرّقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشْر[1] ، فلحقوا بطارق[2] .

وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة ، ففتح (شذونة) عنوة ، ثم مضى الى (المُدُور[3] Almodovar) ثم عطف على (قَرْمُونَة[4] Carmona) ، ثم اتّجه إلى (إشْبِيلِية[5] Sevilla) فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى (إسْتِجَة[6] Ecija) وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة ؛ إذ كانت فلول القوط قد تجمّعت هنــاك[7] ، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليهم الجزية[8] .

وفرّق طارق جيوشه من (إستجة) ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد ابن عبد الملك الى (قُرْطُبَة)[9] في سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر

---

(١) القشر في الأصل : السمكة قدر شبر ، ويراد بها هنا الزورق الصغير .

(٢) نفح الطيب (٢٤٣/١).

(٣) المدور : حصن حصين مشهور بالأندلس ، بالقرب من قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٧/٧) .

(٤) قرمونة : ورد إسمها في معجم البلدان (٢/٧) ، قرمونية ، وهي كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي اشبيلية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٧).

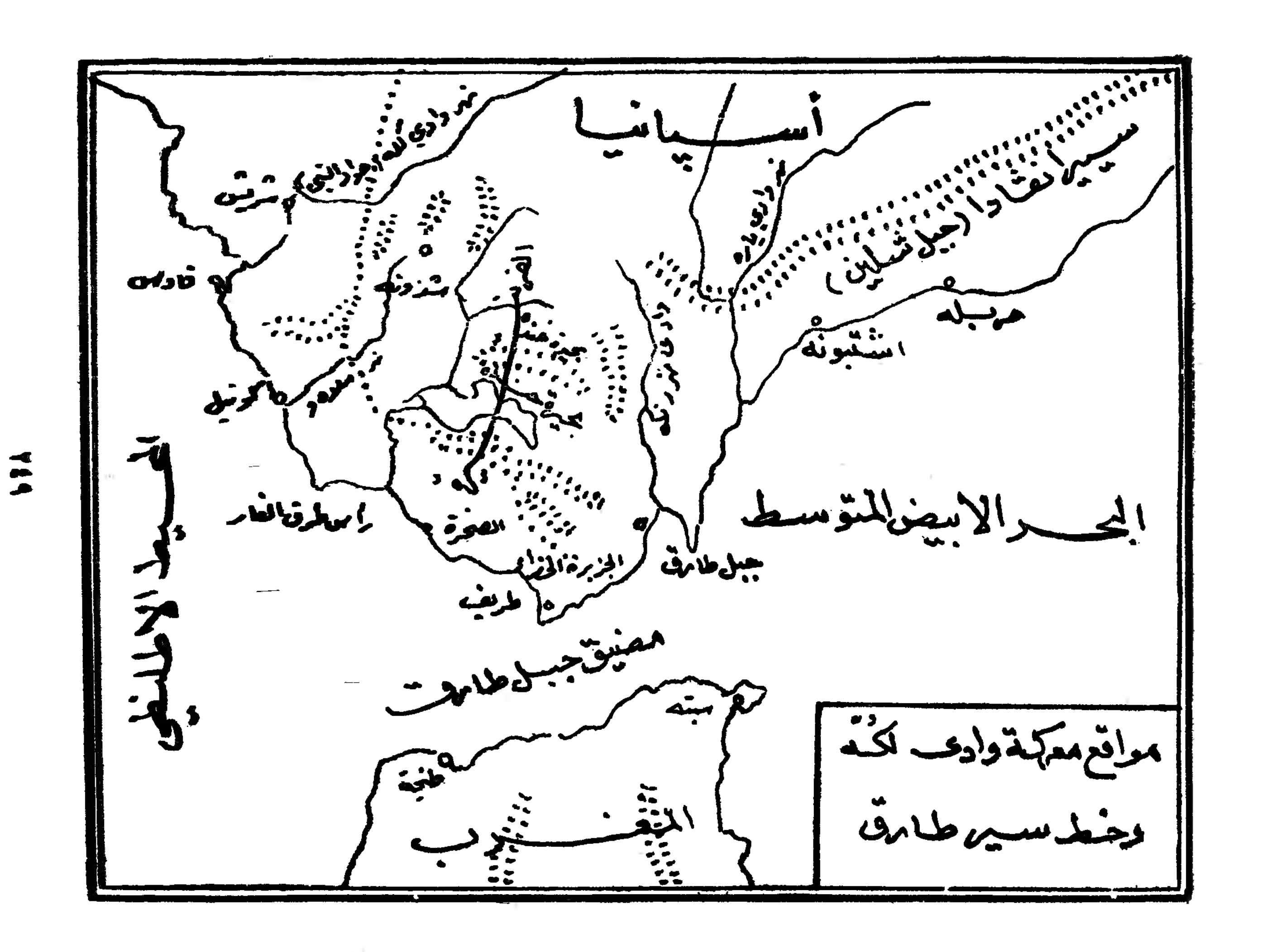
(٥) إشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة ليس بالأندلس أعظم منها ، وبها قاعدة ملك الأندلس ، وهي قريبة من البحر يطل عليها جبل (الشرف) ، وهو جبل كثير الشجر والزيتون ، وهي على شاطىء نهر عظيم تسير فيه المراكب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٤/١) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥).

(٦) استجة : اسم كورة بالأندلس متصلة بأعمال (رية) بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١).

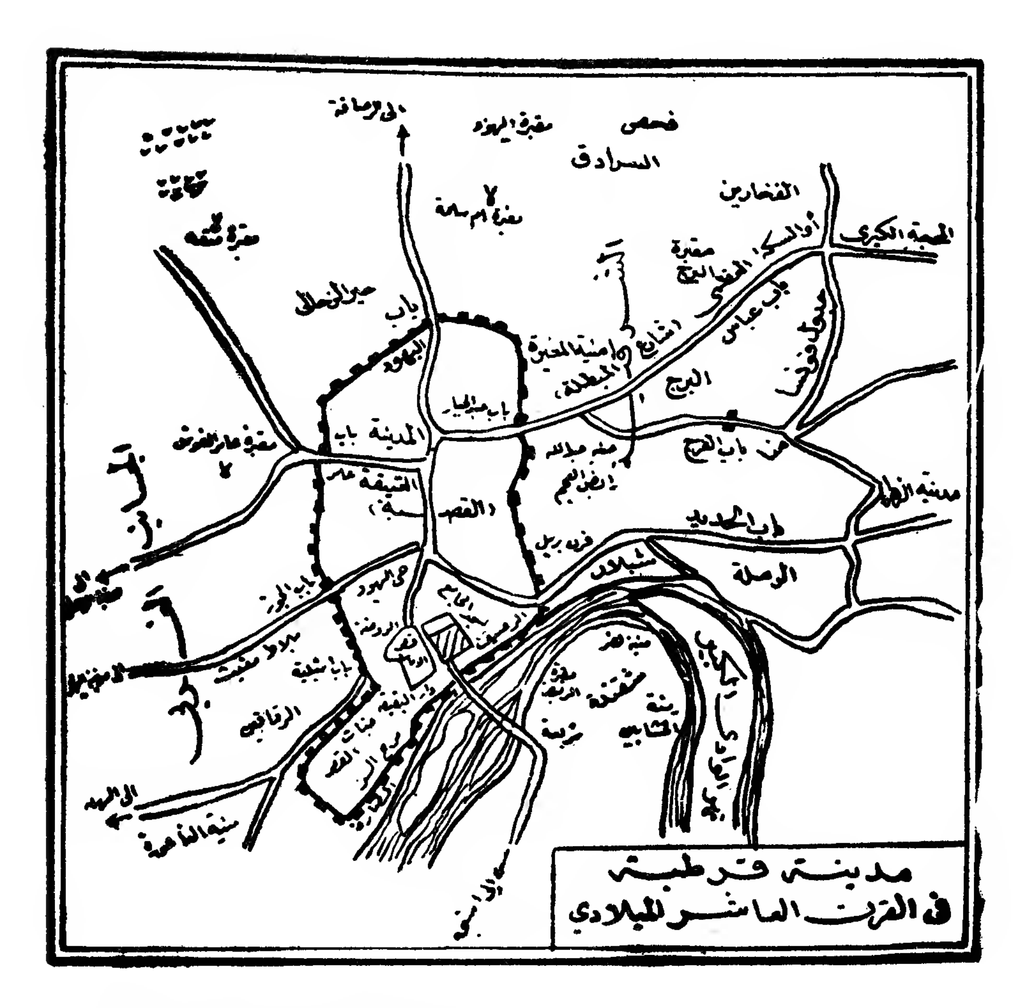
(٧) أخبار مجموعة (٩) ونفح الطيب (٢٤٤).

(٨) نفح الطيب (٢٤٤/١).

(٩) قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها ، وكانت عاصمة لملكها وقصبتها. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٥٢/٧) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢).



مواقع معركة وادي لكة
وخط سير طارق
أسبانيا
البحر الابيض المتوسط
المحيط الاطلسي
مضيق جبل طارق
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
الصخرة
سبتة
طنجة
المغرب
قادس
شريش
اشتبونه
موبله



إلى (مَالَقَة [1] Malaga) ، كما بعث جيشاً ثالثاً الى (البَيْرَة [2] Elvira)، أما هو فسار إلى كورة (جيّان) [3] بمعظم جنوده [4] في طريقه الى

(١) مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من أعمال (رية) سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٣٦٧/٧) وتقويم البلدان (١٧٤ — ١٧٥).

(٢) البيرة : بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٣٠/٢).

(٣) جيان : مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٥/٣). (٤) نفح الطيب (٢٤٤/١).

(طُلَيْطُلَة)[1] . وعبر طارق الوادي الكبير ، فدخل (طليطلة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية دون مقاومة تذكر [2] .

لقد تغلغل طارق [3] تغلغلاً عميقاً في أنحاء الأندلس ، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات ، فماذا كان ردّ فعل موسى بن نصير القائد العام للمغرب كله ، والمسؤول الأول تجاه القائد الأعلى في الشام ؟

د – فتح موسى :

أولاً – بين موسى وطارق :

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق ، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره ، فقد أمره موسى ألا يتعدّى (قرطبة) على قول ، أو موضع هزيمة لذريق – في وادي لكّة – على قول آخر [4] ، فسارع موسى الى عبور المجاز ودخول الأندلس .

وقيل : إنما جاز موسى باستدعاء طارق إياه [5] ، فقد كتب طارق الى موسى : « إنّ الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث ... الغوث .. » ،

---

(١) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة ، وهي على شاطىء نهر (تاجة) ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٦/٦) .

(٢) البيان المغرب (١٧/٢) ونفح الطيب (٢٤٨/١) .

(٣) ستّرد تفاصيل فتوحات طارق بن زياد في ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار ومن أراد التوسع في تفاصيل فتوحاته فليراجع ابن الاثير (٢١٢/٤ – ٢١٦) وابن خلدون (١١٧/٤ – ١١٨) ونفح الطيب (٢١٥/١ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩) ، والبيان المغرب (٥/٢ – ٢٢) والبداية والنهاية (٨٣/٩) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٧ – ٢٨٥) وتهذيب ابن عساكر (٣٨/٧ – ٤٠) وبغية الملتمس (١١ و ٣١٥) وانظر فجر الأندلس (٦٧ – ٨٤) ودولة الاسلام في الأندلس (٤٢ – ٥١) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٦٦ – ٩٠) ... الخ .

(٤) البيان المغرب (١٨/٢ – ١٩) .

(٥) البيان المغرب (١٩/٢) .

فلما أتاه الكتاب ، نادى في الناس وعسكر ... فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس ، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق الى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير ، فسار مروان بمن معه ، حتى أجاز الى طارق قبل دخول أبيه موسى . وخرج موسى بن نصير والناس معه ، حتى أتى المجاز ، فأجاز بمن زحف معه في جموعه[1] .

هذان السببان مقبولان غاية القبول من الناحية العسكرية الفنية البحت ، فقد شعر موسى أن المسلمين قد استرسلوا في الفتح أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر داهم ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بدّ من فتحها وإلاّ تعرّض المسلمون لخطر عزل قواتهم عن بعضها والقضاء عليها وهي متفرقة ضعيفة ، وقطع خطوط مواصلاتها الواهنة لامتدادها بعيداً عن قواعدها ، ولأن أجنحتها مكشوفة لوجود بلاد معادية غير مفتوحة ، ولأن قوات المسلمين كانت قليلة جداً بالنسبة إلى طول خطوط مواصلاتها . وفعلاً حدث ما توقّعه موسى ، فقد أصبحت بعض قوات المسلمين منعزلة ، وأصبح موقف المسلمين خطيراً ، مما جعل طارق يستغيث بموسى ، فلا يرى موسى إلا أن يعبر إلى الأندلس بنفسه لمعالجة الأمور هناك ، ويحشد لحملته هذه كل قواته المتيسرة .

لقد كان نزول موسى الى الأندلس لسبب حربي ، وهو تدعيم الفتح وترصينه ، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال .

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه ، وقرّر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح[2]، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط ، فمغالى فيه ، إذ لا

---

(١) الامامة والسياسة (٢/٧٤ — ٧٥). وفي البلاذري (٢٣٢) : إن موسى كتب إلى طارق كتاباً غليظاً لتغريره بالمسلمين وافتتانه عليه بالرأي في غزوه ، وأمر ألا يجاوز (قرطبة).

(٢) ابن الأثير (٤/٢١٥) والبداية والنهاية (٩/٨٣) والبيان المغرب (٢/١٩) وابن خلدون (٤/١١٧) ونفح الطيب (١/٢٠١).

يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى . ثم إنْ طارقاً كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً ، وكان يكتب اليه أخبار الفتح أولاً بأول ، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه، وذلك بعزله أو استدعائه الى (القيروان) ، فليس من المعقول أن يستطيع طارق مخالفة أوامر مولاه موسى في شيء .

إن كل الدلائل تشير الى أن طارقاً كان مثالاً للطاعة والنظام ، فقد بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى عندما وصلوا اليه في (طليطلة) وقالوا له : أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير ؟ فقال طارق : « بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم[1] » ، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسؤولية والالتزام بسلسلة المراجع .

ولعلّ أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعاونة طارق لا لتأديبه ، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحت ، هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزوله أرض الأندلس ، وانما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلّفها طارق دون فتح ، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتشتيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة ، فلما تمّ له ذلك سار موسى الى طارق ولقيه في (طَلَبِيرَة)[2] على مقربة من (طليطلة)[3]، وحين التقيا قال موسى لطارق : « يا طارق ! إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً » ، فقال طارق : « أيها الأمير ! والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي » ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه

---

(1) نفح الطيب (٢٤٩/١).

(2) طلبيرة : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر (تاجه) بضم الجيم . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧).

(3) انظر فجر الأندلس (٨٥).

إلى أن بلغ الى (جِلّيقيّة)[1] وهي على ساحل البحر المحيط[2].

(١) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٣١) .

(٢) نفح الطيب (١/٢٢٧) ، فأين ذلك مما جاء في كتاب فتح مصر والمغرب (٢٨٣) : وأخذ موسى بن نصير طارق بن عمرو ، فشده وثاقاً وحبسه وهم بقتله ، وكان مغيث الرومي غلاماً للوليد بن عبدالملك ، فبعث اليه طارق : « إنك إن رفعت أمري الى الوليد ، فان فتح الأندلس كان على يدي ، وأن موسى حبسني يريد قتلي ، أعطيتك مائة عبد » وعاهده على ذلك ... فلما أراد مغيث الإنصراف ، ودّع موسى بن نصير ، وقال له : « لا تعجل على طارق ولك أعداء ، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره ، وأخاف عليك وجده » ، فانصرف مغيث وموسى بالأندلس !

فلما قدم مغيث على الوليد ، أخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يدي طارق ، وبحبس موسى إياه والذي أراد به من القتل ، فكتب الوليد إلى موسى يقسم له بالله ، لئن ضربته لأضربنك ، ولئن قتلته لأقتلن ولدك به ، ووجه الكتاب مع مغيث الرومي ... فقدم به على موسى الأندلس ، فلما قرأه أطلق طارقاً وخلى سبيله ، ووفى طارق مغيث بالمائة عبد التي كان جعل له ... انتهى ! ! !

وفي كتاب فجر الأندلس (٨٦) : ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق ، فمرجعه على أغلب الظن ، الى مغيث الرومي ، فقد كان محنقاً على موسى مولعاً بالكيد له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد ، وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهز فرصة ذهابه الى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبالغ في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى في رواية ابن عبد الحكم الآنفة الذكر . وانتشرت قالاته بين قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أحرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته ، لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى : « وضع السوط على رأس طارق وأنّبَهُ » ، كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعاً أن يقول : « إن موسى ضرب طارقاً بالسوط » ، بدلا من قوله : « وضع السوط على رأسه فقط » ... انتهى .

أقول : إن ما ذكره ابن عبد الحكم في كتابه : فتح مصر والمغرب (٢٨٠) ، يناقض ما ذكره هو أيضاً في ص (٢٨٣) من نفس الكتاب . فقد ذكر في (٢٨٠) : فأجاز (موسى) من الخضراء ، ثم مضى إلى قرطبة ، فتلقاه طارق ، فترضاه ، وقال له : « إنما أنا مولاك ، وهذا الفتح لك » .. ثم ذكر في نفس الصفحة أيضاً : « ويقال إن موسى هو الذي وجه طارقاً بعد مدخله الأندلس إلى طليطلة ، وأن النصف فيما بين قرطبة وأربونة ، وأربونة أقصى ثغر الأندلس » ... انتهى . وهذا يدل على أن موسى لم يحبس طارقاً ولم يهم بقتله ، وأن كل ما جاء عن ذلك لا نصيب له من الصحة .

لقد تحمّل جيش طارق من الأعباء ما يزيد على طاقته لدرجة أجهدت الجند، فقد اقتحم هذا الجيش أرض الأندلس، وصادم القوط الغربيين في موقعة حاسمة، وتوغّل في قلب البلاد، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة، كل ذلك تمّ في أمد قصير. ثم إن المقاومة القوطية بدأت تتكوّن في نواحي البلاد، خاصة من جهة غرب الأندلس، حيث تصلح المناطق الجبلية المهجورة في إقليم (استرامادور) لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطية، وهذا يفسّر لنا خط سير الحملة التي قادها موسى بن نصير [1].

والواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس بتعاون وثيق، وأنّ خروج طارق للقاء موسى عند (طلبيرة) لم يكن لمجرد اللقاء، بل لغرض آخر حربي سنعرفه، وقد أتم الرجلان الفتح على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً [2].

ثانياً – عبور موسى :

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية [3] (٧١٢ م) من (طنجة) [4] على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس [5]. وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خفّ

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢).

(٢) فجر الأندلس (٨٧).

(٣) ابن الأثير (٢١٥/٤)، وفي فتح مصر والمغرب (٢٨٠): إن موسى خرج إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين.. ويحدد الرازي تاريخ خروجه من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين. انظر نفح الطيب (٢٥٩/١) وكذلك في النجوم الزاهرة (٢٢٦/١)، وذكر عبد الملك بن حبيب أن موسى دخل الأندلس في جمادى الأولى، انظر نفح الطيب (٢٣١/١).

(٤) نفح الطيب (٢٥٤/١).

(٥) اخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية ص (١٩٢) و (١٩٨) وكان من بين الذين دخلوا مع موسى الأندلس واحد من أصاغر الصحابة هو المنيذر الإفريقي وأربعة من –

(يوليان) للقائه خفوف المنتظر المترقب، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر[1].

ونزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق)، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة؛ فلما عزم على المسير، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب وعددها يزيد على عشرين راية؛ وتفاوض الجميع في الرأي، وكيف تكون الخطة العسكرية للفتح، فأجمعوا على السير الى (إشبيلية) وغزو ما بقي من غرب الأندلس حتى (أكْشُونِيَة)[2]، وكان هذا الاجتماع قد تمّ عقده في المسجد الذي أقيم فيه (مسجد الرايات)[3] إذ لم يبرح موسى موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً، وكان يقابل بباب البحر من أبواب المدينة[4].

وزحف موسى الى (شَذُونَة Medina Sidonia) فافتتحها عنوة، ثم سار الى (قَرمُونَة)، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال، فسأل موسى عن أمرها، فقيل له: «لا تُؤخذ إلا باللطف والحيل»، فقدّم إليها عُلُوجاً[5] كانوا من أصحاب (يوليان)

التابعين هم: علي بن رباح اللخمي وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زياد الأنصاري الحبلي، وحنش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة الصنعاني، وحيوه بن رجاء التميمي. وفي بغية الملتمس (٥١): إن محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري وهو من التابعين غزا الأندلس مع موسى بن نصير.

(١) نزهة المشتاق للإدريسي (٢١٣) من ترجمة دوزي.

(٢) اكشونية: مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل إشبونة، وهي غربي قرطبة. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣١٧).

(٣) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفية في الأخبار الأندلسية (١٩٨).

(٤) صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب: الروض المعطار في خبر الأقطار، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧.

(٥) العلج: بوزن (العجل)، الواحد من كفار العجم، والجمع: (علوج) و(أعلاج) (علجة)، بوزن (عنبة).

وغيرهم ، فأتوهم في هيئة المنهزمين ومعهم السلاح ، فأدخلوهم المدينة ؛ فلما علم موسى بدخولهم بعث اليهم الخيل ليلاً ، ففتحوا لهم باب المدينة ، وهو الباب المعروف بباب (قرطبة) ، فوثبوا على الأحراس وقتلوهم ، ثم دخل المسلمون المدينة عنوة[1] . وسار موسى الى رعواق (Alcala de Guadaira) المعروفة بقلعة وادي (أيرة) أو قلعة (جابر) فافتتحها [2]، وبهذا أمّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء الى (قرطبة) ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة و (شذونة) و (رعواق) و (قرمونة) و (إستجة) و (قرطبة) في يد المسلمين ، وأصبح بامكان موسى أن يتّجه نحو الغرب ليفتح (إشبيلية) كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد (طليطلة) إذ ذاك[3] .

لقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط مواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر (الغربي) لمنطقة فتح طارق ، الأهداف الحيوية الأولى التي حقّقها موسى بعد إنزال قواته الأندلس .

ثالثاً – فتح إشبيلية :

وتقدّمت قوات موسى نحو إشبيلية ، وكانت من أعظم قواعد الأندلس شأناً وأتقنها بنياناً وأكثرها آثاراً ، وكانت دار ملك روم روما قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلب القوطيّون عليها استوطنوا (طليطلة) وأقروا بها ملكهم ، وبقي بمدينة إشبيلية علماء أهل روما وكتّابهم ورؤساؤهم . وحاصرها موسى حصاراً شديداً ، ولكنّهـا امتنعت عليـه أشهراً ، وأخيراً استطـاع فتحها وانسحبت حاميتهـا الى (بَاجَة)[4] ، فترك

---

(1) البيان المغرب (٢/١٩ – ٢٠) وانظر ابن الأثير (٤/٢١٥) ونفح الطيب (١/٢٠٢) والأخبار المجموعة (١٦).

(2) انظر فجر الأندلس (٩٢) وتاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس (٩٤).

(3) فجر الأندلس (٩٢).

(4) باجة : كورة بالأندلس تتصل بنواحي ماردة . انظر التفاصيل في المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٣) ومعجم البلدان (٢/٢٥).

موسى[1] حامية ومضى قدماً لتحقيق أهدافه الأخرى .

رابعاً ــ فتح ماردة [2] :

وسار موسى قاصداً (مَارِدَة) متتبعاً طريقاً رومانية قديمة كانت تصل إشبيلية بماردة ، فاستولى في طريقه على بلد يسمى لقَنْت[3] سلّم له أهله دون مقاومة ، فسموا لذلك موالي موسى[4] ، وسمي الطريق التي سلكها موسى بـ (فج موسى) وتمتد من (لقنت) الى (ماردة)[5] .

وكانت (ماردة) أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ؛ فحاصرها أيضاً ، وكان أهلها في مَنَعَة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم . وعمل موسى دبّابة[6] دبّ المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده الى شيء يشبه الاسمنت الصلب كان يسمى (الأشة ماسة Argamasa)[7]، فنَبَت عنه معاولهم[8] وعدّتهم . وثار العدو بالمسلمين على غفلة ، فاستشهد بأيدي العدو قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمي ذلك الموضع : (برج الشهداء) . واستمر موسى محاصراً لماردة

---

(1) أخبار مجموعة (16) والبيان المغرب (2/20) ونفح الطيب (1/252).

(2) ماردة : كورة واسعة من نواحي الأندلس ، بينها وبين قرطبة ستة أيام ولها حصون وقرى . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/360) وتقويم البلدان (172 - 173).

(3) لقنت : حصنان من أعمال ماردة بالأندلس : لقنت الكبرى ولقنت الصغرى . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/336).

(4) فتح الأندلس (11) وانظر نفح الطيب (1/252). ولقنت هي (**Fuente de Cantos**).

(5) فتح الأندلس (35).

(6) الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، فتدفع في أصل الحصن ، فينقبه رجال في جوفها .

(7) انظر فجر الأندلس (93) ، وقد ورد هذا اللفظ بنصه محرفاً في نفح الطيب (1/253) فكتبه : (ألاشه ماشه) وهي كلمة لاتينية معربة (**Alaya-Maya**).

(8) نبت عنه : أراد أنها لم تعمل فيه ولم تنل منه ، والمعاول : جمع معول آلة الهدم .

حتى مستهل شوال سنة أربع وتسعين الهجرية ، فدخلها صلحاً يوم ١ شوال سنة أربع وتسعين الهجرية (٣٠ حزيران – يونيو ٧١٣ م) ، حيث صالحه أهلها على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى (جِلّيقيّة) وأموال الكنائس وحليّها للمسلمين[1] .

خامساً – فتح إشبيلية ثانية :

حين كان موسى محاصراً (ماردة) ، ثار عجم إشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين . وتجالب فلّهم من مدينة (لَبْلَة)[2] و (باجة) وقتلوا من المسلمين نحو ثمانين رجلاً[3] ، وأتى فلّ المسلمين موسى من إشبيلية وهو بماردة ، فلما أن فتح ماردة وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش الى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها . ونهض الى (لبلة) ففتحها أيضاً ؛ فاستقامت

---

(١) البيان المغرب (١/٢٠ – ٢٢) ، ونفح الطيب (١/٢٥٣) وأخبار مجموعة (١٧) وما يليها . وقد وردت قصة تلوين شعره من ابيض الى أحمر الى اسود ارهاباً للمفاوضين من أهل الأندلس . والقصة كما يلي : «ثم دعا القوم الى السلم ، فترسل اليه في تقريره قوم من أماثلهم ، وأعطاهم الأمان ، واحتال – اي موسى – في توهيبهم في نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فاذا هو أبيض الرأس واللحية ، كما نصل خضابه (الخضاب بكسر الخاء ، ما يصبغ به الشعر . ونصل : ذهب أثره فظهر الشيب) ، فلم يتفق معه أمر ، وعاودوه وقبل الفطر بيوم فإذا هو قد قنأ لحيته بالحناء ، فجاءت كضرام عرفج (قنأ لحيته : صبغها . والضرام : النار . والعرفج – بزنة جعفر – شجر سريع الإلتهاب) فعجبوا من ذلك . وعاودوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سوّد لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا ، ويتصورون في كل صورة أحبوا : كان ملكهم شيخاً ، فقد صار شاباً ، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك وأكملوا صلحهم مع موسى ...» وهي قصة مستبعدة الحدوث وهي أقرب الى خيال القصص منها الى حقائق التاريخ .

(٢) لبلة : بفتح أوله ثم السكون ولام أخرى . قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية ، وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخاً ، وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلا ، وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزووع والشجر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣١٩) .

(٣) البيان المغرب (٢/٢٢) ونفح الطيب (١/٢٥٣) .

الأمور فيما هنالك وعلا الإسلام[1]، ثم انصرف عبد العزيز بن موسى إلى (إشبيلية)[2].

والظاهر أن الذين غدروا بالمسلمين في (إشبيلية) لم يكونوا من أهلها أو أهل (لبلة) أو (باجة)، فلو أن أهل هذه المدن هم الذين غدروا بالمسلمين لذكرت المصادر التاريخية التي أوردت هذا الخبر، أن أهل لبلة وباجة ثاروا أيضاً، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم مهدّدون بالخطر. ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخمد الثورة، بل تركهم على حالهم وأقام معهم فيها حتى استقامت الأمور هناك، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملتهم. لقد غدر بالمسلمين القوط من الفلول التي فرّت من حاميات البلاد عند اقتراب المسلمين إليها أو فتحهم لها، حين استبان لهم قلّة عدد المسلمين[3].

ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلاّ بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به القوط، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجد بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن[4].

سادساً - مقتل للذريق:

أقام موسى شهراً في (اردة) بعد افتتاحها يرتّب أمورها ويريح جنده بعدما بذلوه من جهود مضنية في فتح هذا البلد، وينجز متطلبات جيشه الإدارية تمهيداً لمتابعة الفتح وتطهير الجزء الشمالي من غرب الأندلس من

---

(1) نفح الطيب (١/٢٥٣) وانظر البيان المغرب (٢/٢٢).
(2) البيان المغرب (٢/٢٢).
(3) انظر فجر الأندلس (٩٣ - ٩٤).
(4) انظر فجر الأندلس (٩٦).

بقايا القوط وعلى رأسهم لذريق . وكان موسى قد أدرك أن مراكز المقاومة القوطية بدأت تتجمّع في هذه المنطقة بالذات لعرقلة مسيرة الفتح بالإفادة من وعورة المنطقة ، ظنا منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول اليها ، واستعداداً للهرب الى نواحي (قَشْتَالَة)[1] و (استرامادورة) اذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحي من شمال غربي الأندلس .

لقد كانت محاولة فلول القوط استرداد (إشبيلية) خطوة مدبّرة لقطع طريق الرجعة على قوات موسى ، لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يخمد الحركة قبل استفحالها ، كما تمكّن من القضاء على مركز المقاومة في (لبلة) ؛ فما كادت تسقط (ماردة) حتّى تراجع لذريق وتحصّن هو وجنوده في شعاب جبال (سيرا دي فرانثيا Sierra de Fancia) مما يلي وادي (أنة) إلى الشمال وأقاموا هناك ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على جيش المسلمين . وقدّر موسى موقف عدوه تقديراً صائباً ، فاكتشف أن العدو له كمين في طريقه الى (طليطلة) ، ولم يكن موسى ليستطيع السير من (ماردة) الى (طليطلة) والعدوّ يهدد خطوط مواصلاته بهذا الكمين ، فكان لا بد له من القضاء على التجمعات المعادية ، لذلك استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين (ماردة) و (طليطلة) . وخرج طارق بجيوشه ملبياً أوامر موسى ، وسار مسافة قدرها مائة وخمسين كيلو متراً في الطريق الموصل ما بين (طليطلة) (وطليرة) بحذاء واد يقال له : (الأروكامبو Valle de Arrocampo) وانتظر موسى في هذا الوادي في مكان يسمي المعرض Almaraz)[2] بين (التاجة) ونهر (التيتار)[3] .

---

(١) قشتالة : إقليم عظيم بالأندلس : انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٩٣).

(٢) استعرض موسى قواته في هذا الوادي فسمي : وادي المعرض . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨).

(٣) يقول بهذا الرأي سافدرا (Savedra Op. Cit. p. 98) وتؤيده فيه أقوال كثيرة للمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين ، وهو في الواقع أقرب الآراء الى الصحة في صدد نهاية لذريق ، فان المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي (لكة) . وتكتفي المراجع العربية بالقول : بأنه —

وتابع موسى سيره بعد ذلك في الطريق الى (طليطلة) حيث التقى بطارق في موضع يقال له : (تايد)[1] أو (تايتر) أو (التيتار Teltar) وهو نهير في المنطقة . وخرج طارق معظماً له ، ونزل بين يديه ، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في تسرعه لاقتحام الاندلس من الوسط ، فاعتذر اليه طارق وقال له : « إنما أنا مولاك وقائد من قوادك ، ما فتحته وأصبته فإنما هو منسوب إليك » ؛ واستلطفه حتى رضي عنه موسى[2] ، فاصطلح موسى مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه[3] .

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من (ماردة) الى (سلمنقة Salamanca) ، ثم اجتاز الموضع المسمى (Puerto de Siete Carraras) ، وصار في نقطة التقاء الطريقين الموصلين من (ماردة) الى (سلمنقة) ، ومن (ألبة دي تورميس Alba de Tormes) الى (ثيوداد رودريجو Giudad Rodrigo) ، ومضى في فج منسوب اليه[4] بحذاء نهير سمي منذ ذلك الحين : (وادي موسى Valmuza) . وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت في المسلمين لتوسطهم هذه الطريق الطويل وبعدهم عن أي مركز يستطيعون منه طلب المعونة ، وانقضوا على جيش موسى في ناحية

= اختفى أو غرق . وسيرى القارىء في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة . انظر فجر الأندلس (٩٨).

(١) وردت كلمة : تايد في اخبار مجموعة (١٨) بدون نقط ، ولعلها تايتر أو التيتار . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨).

(٢) الرسالة الشريفية (١٩٣).

(٣) نفح الطيب (١/٢٥٥). وفي الطبري (٥/٢٥٦) : عبر موسى بن نصير الى طارق في عشرة آلاف فتلقاه فترضاه ، فرضي عنه وقبل منه عذره ووجهه منها الى مدينة طليطلة .. انتهى . وفي البيان المغرب (٢/١٢٣): اتفق الأكثرون أن التقاءهما كان على طليطلة . وذكر الطبري أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازي ، أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسيره اليه ، فلقيه بمقربة من طلبيرة .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٥) ونفح الطيب (١/٢٥٣).

يسميها بعض المؤرخين من المسلمين : (السواقي) وهي : (سيجويلا دي لوس كورنيخوس Segoyuela de Los Cornejos) بالقرب من بلدة (تمامس Tamames) ؛ وهناك وقعت فيه المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٣ م) ، ونظراً لأن المكان الذي وقعت فيه الموقعة كان قريباً من بحيرات (تمامس) ونهير (باربالوس Barbalos) الذي ينتهي عند السواقي ، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر (برباط) وبحيرة (خاندة) ، وفي هذه المعركة لقي لذريق حتفه على يد مروان بن موسى ابن نصير ، وهزم القوط هزيمة نكراء[١] .

سابعاً – فتح طليطلة ثانية :

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة ، قد شجّع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في (طليطلة) على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى الى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر[٢] .

وفي (طليطلة) سلّم طارق الى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس[٣]

(١) انظر فجر الأندلس (٩٨ – ٩٩) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨ – ٩٩).

(٢) فجر الأندلس (٩٩ – ١٠٠).

(٣) غنم طارق الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص، ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلى الذي اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة، فقد سموه مائدة سليمان بن داوود، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص . ومن المحقق أن المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثـار بينهم دهشة كبرى . ويذهب معظم المؤرخين المسلمين الى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة من مدينة (المائدة)، وهذه المدينة هي في الغالب قلعة (هنارس Acala de Henares) ، وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داوود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) . وهي ليست كذلك بمائدة أصلا ، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة مائدة بهـذه الفخامة ، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة ، إذ لم تكن في قلعة (هنارس) إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٧٨)، وانظر ما جاء عن المائدة في الطبري (٥/٢٥٦) وابن الأثير (٤/٢١٥) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٩) والأخبار

وغيرها عند فتحه (طليطلة) لأول مرة ، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين الهجرية يدبر أمرها ، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برنزية لصرف رواتب الجند وذلك بدار السكة القوطية بطليطلة [1] ، ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينهيان اليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي علي بن رَبَاح وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره [2] ومغيث الرومي [3] فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك ، فلما دخل وفد موسى الى الوليد قال علي بن رباح : « ... يا أمير المؤمنين ! تركت موسى بن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر

=المجموعة (١٧و١٩) والبيان المغرب (٢/١٧) ونفح الطيب (١/٢٤٨) ، وقد وردت عبارة صريحة لا بن حيان تدل على أن هذه المائدة ما هي إلا مذبح كنيسة طليطلة وهي : « وهذه المائدة المنوه باسمها الى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال الكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل ، وتأنقت الأملاك في تفخيمها ، يزيد الآخر منها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ؛ وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، فأصابها المسلمون هناك » . انظر نفح الطيب (١/٢٥٤ - ٢٥٥).

(١) سيرد تفصيل ذلك عند ذكر أعمال موسى الإدارية :

(٢) هو أبو عبد الله علي بن رباح بن نصير اللخمي ، كان فاضلا جليلا من جملة التابعين ، يروي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله وعقبة بن عامر وأبو هريرة وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة يكثر تعدادهم . انظر التفاصيل في رياض النفوس (١/٧٧ - ٧٨) وانظر الامامة والسياسة (٢/٧٥ - ٧٦) حول إيفاد علي بن رباح الى الوليد بن عبد الملك من قبل موسى بن نصير . وانظر ما جاء عن علي بن رباح في نفح الطيب (١/٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٨٣).

من وجوه من معه ، بفتح من فتوحه » ، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خرّ ساجداً »[1] .

ثامناً – فتح شمال الأندلس :

لما انقضى فصل الشتاء ، واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد ، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس . وجمع جيوشه ، وأكمل أمورها الإدارية ، ثم زحف بها نحو (سَرَقُسْطَة)[2] الواقعة على الضفة اليمنى من نهر (ابرة) وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى الى الثغر الأعلى ، وافتتح (سرقسطة) وأعمالها . وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلاّ فتح عليهما ، وغنّمهما الله تعالى ما فيه ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو ، فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح ، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كلّه ويكمل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه[3] . ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على (سرقسطة » حتّى رعب أسقفها (بنسيو Bencio) ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرّروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر ، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة

---

(١) الامامة والسياسة (٧٦/٢). وفي فجر الأندلس (١٠١) : « ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشيء في نفسه أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلا بيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً في تنقيص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد » . ومن الواضح أن موسى لو لم يثق كل الثقة بمغيث لما أوفده إلى الوليد ، والظاهر أن مغيثاً نقم على موسى عند عودتهم جميعاً إلى المشرق بعد أن استدعاهم الخليفة . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٠).

(٢) سرقسطة : تعريب للاسم الروماني: (قيصر أجستا Caesar Augusta) لأن أغسطس قيصر هو الذي أسسها سنة ٢٣ ق . م ، على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الأيبيريين باسم (سلدوبا Salduba) . وانظر ما ورد عنها في معجم البلدان (٧١/٥).

(٣) نفح الطيب (٢٥٥/١ – ٢٥٦).

المدينة[1] ، وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة . ولم يكد المسلمون يستقرّون في هذا البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قُدّر لهذا المسجد أن يتّسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي[2] .

وبعد فتح (سرقسطة) فتح موسى (وَشْقَة)[3] و (لارِدَة)[4] و (طَرَّكُونَة)[5] ، وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضاً جرداء ، يتحدّث أهلها بلاتينية لا يفهمها الإسبان الآخرون الملازمون لموسى (وهم أدلاء يوليان) ، فزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهائم[6] . وحين أوغل موسى وجاوز (سرقسطة) اشتدّ ذلك على الناس

---

(١) في فجر الأندلس (١٠٢) : « ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقي ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة ، فنراهم في غزوتهم هذه أميل الى العنف مما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالا سلمياً ، فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط وأملاك الكنيسة ، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا ، وقد بلغ من إسرافه هذا أن العرب أنفسهم — وعلى رأسهم الخليفة — أنكروا عليه هذا المسلك ، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل » . كما ورد في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٠ — ١٠١) مثل هذا المعنى .

وما ورد عن قصة الأسقف بنسيو أعلاه يناقض هذا الرأي ويعطي نموذجاً واقعياً حياً لرحمة المسلمين بالمغلوبين . فاذا ظهرت شدة من موسى في بعض الأحيان ، فلأن متطلبات الحرب هي التي اضطرته إلى ذلك ، كما أن الخليفة لم يستدع موسى لهذا السبب كما سنرى .

(٢) تاريخ علماء الأندلس (١/١١١) — مدريد ١٨٩١م ، وبغية الملتمس (٢٦٣) وصفة جزيرة الأندلس (٩٧) ونفح الطيب (٤/٦).

(٣) وشقة : بليدة بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٢٣).

(٤) لاردة : مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة ؛ تتصل أعمالها بأعمال طركونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣١٣).

(٥) طركونة : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطىء البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤٤).

(٦) البيان المغرب (٢/٢٤) والامامة والسياسة (٢/٧٨).

وقالوا : « أين تذهب بنا ؟! حسبنا ما في أيدينا » ، وكان موسى قال حين دخل (إفريقية) وذكر عقبة بن نافع : « لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أمــا كان معه رجل رشيد ؟! » ، فسمعه حنش الصنعاني ، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ – من التغلغل عمقاً في الفتح – قام حنش فأخذ بعنانه ، ثم قال : « أيها الأمير ! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : « لقد غرّر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! وأنا رشيدك اليوم . أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عزّ وجلّ وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوّخ لك ؟! إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم وأحبّوا الدعة » ، فضحك موسى ثم قال : « أرشدك الله وكثّر في المسلمين أمثالك » ، ثم انصرف قافلاً الى الأندلس وهو يقول : « أما والله لو انقادوا اليّ لقدتهم الى روميّة (روما) ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله »[1] .

ولكنّ موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح ، وبينما كان يعدّ العدّة لفتح (جليْقيّة)[2] إذ أتاه مغيث الرومي[3] رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والكفّ عن التوسّع في البلاد ، وأن يشخص إلى دمشق ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير (جلّيقيّة) ، فكان شديد الحرص على إقتحامها[4] . ولكنّ قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتمّ فتح (جليقية) . ولاطف مغيثاً – من أجل ذلك – وسأله إمهاله ، إلى أن ينفّذ عزمه في الدخول إلى (جليقية) ،

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٨٠ – ٨١).

(٢) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٣١).

(٣) سترد ترجمته في كتاب : قادة فتح الاندلس والبحار .

(٤) نفح الطيب (١/٢٥٨).

والمسير معه في البلاد أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل مغيث ومشى معه[1] . وقد وهب موسى مغيثاً الموضع الذي ينسب اليه في عهد المسلمين ، وهو : (بلاط مغيث) بجميع أرضه من أرض الخمس [2] نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته في غزو (جليقية) . وقبِل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأن موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالاً لفتح (قَشتالة القديمة Castilla La Vieja) تأميناً للحدود الشماليـــة لإقليم (طليطلة)[3] .

وكان يتفرّع من (سرقسطة) طريقان رومانيان يتّجهان من الشرق إلى الغرب : الأول يذهب بحذاء نهر إبرة (الإبرو) حتى (هارو Haro) ، ومن هناك يتبع (برفيسكا Barivlesca) ثم (أماية) ، ثم (ليون)[4] و (أسترقة) . والثاني ينفصل من الطريق الأول عند بدايته ويتّجه الى (قَلُونْية) و (بلَنْسِيَة)[5] ، ويلتقي بالطريق الممتدمن (ماردة) الى (أسترقة) في مدينة (بنافنتي) . وكان لا بدّ لموسى من السير في كل من هذين الطريقين ؛ فقسّم جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، والآخر قيادة طارق .

واختار موسى الطريق الثاني ، وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأولى أدنى سفوح جبال (كَنْتَبْرِيّة) . وشرع طارق بمهاجمة (البشكنس) غربي نهر (إبرة) ، فلم يجد زعيم هذه المنطقة (فُرْتُو ن) بداً من الدخول في طاعة المسلمين بـــل إعتنق الإسلام ، ولذلك أعفيت (شيّـــة Ejea)

(1) نفح الطيب (١/٢٥٨).

(2) الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية (٢٠٤).

(3) Saavedra. OP. Cit. p. 113 — 114.

(4) ليون : بلد في منطقة جليقية . انظر تقويم البلدان (١٨٤ — ١٨٥).

(5) بلنسية : كورة ومدينة بالأندلس شرقي قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٨ — ١٧٩).

منطقته من التخميس[1] ، وإليه ينتسب بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى ، الذين كان لهم شأن في تاريخ المسلمين في الأندلس[2] ، ثم تابع طارق سيره ، ففتح (أماية) و (استرقة) اللتين ذكرهما مؤرخو العرب خطأ في حملته سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١١م)[3] كما فتح مدينـــة ليون[4] في هذه السنة أيضاً .

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر (إبرة) في إقليم (قَشْتَالة)[5] فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقي بعض المقاومة عند حصن (باروVilla Baruz) أو (بازو) في مقاطعة (بلد الوليـــد) التي لا يزال يطلق عليها الاسبان اليوم (فاليا دوليد) . وبدلاً من أن يعرّج على (استرقة) ليلتقي فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب (تارنا Tarna) ، وسار متابعاً مجرى نهر (النالون Nalon) ، ثم حطّ رحاله عند قلعة (لُكْ Santa Maria de Lugo) بـ (أشتوريش) غير بعيد عن (أبيِنْط Oviedo) ، وما زال بها حتى فتحها . ثم سار بنفسه حتى بلغ (خيخون Gijon) وأقرّ فيها حامية وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في تلك النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة (بلاي Pena de Pelayo) على البحر الأخضر[6]. فطاعت الأعاجم ، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم بموضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين[7] .

---

(١) الرسالة الشريفية (٢٠٠).

(٢) انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٣) انظر تاريخ افتتاح الأندلس (٣٥) واخبار مجموعة (١٥).

(٤) الأخبار المجموعة (٢٨) ، وقد جعل هذا المصدر فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة (٧١١) وهو خطأ واضح . انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٥) قشتالة : إقليم عظيم بالاندلس ، قصبته طليطلة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٣/٧).

(٦) هو المحيط الأطلسي ، وكان يسمى أيضاً : الاقيانوس وبحر الظلمات .

(٧) نفح الطيب (٢٥٨/١) وانظر فجر الأندلس (١٠٤ — ١٠٥) وتاريخ المسلمين وآثارهم =

وهكذا وصلت جيوش موسى حتّى البحر المحيط ، فاطمأن الى أنه فتح شبه الجزيرة كلها ، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح ، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ؛ فتفرّق جنده ، وطال السير بمن بقي معه منهم ، ونال منهم الجهد ، فمالت نفوسهم الى العودة ؛ فاكتفى موسى بوصوله الى (خيخون) وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي (أشتوريش) و (جليقيّة) ، وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتّى لم يبق منهم إلاّ ثلاثون رجلاً . والواقع أن من بقي من القوط إذ ذاك كان قليلاً ، ولو لم يشتغل العرب عنهم بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بينهم ، لاستطاعوا بسهولة القضاء على البقية الباقية من القوط ، ولكنّ العرب شغلوا بأمور أنفسهم ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتنتهز في المسلمين كلّ فرصة تسنح .

ولما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي ، كان لا بدّ أن يعود لا الى (طليطلة) أو (قرطبة) فقط ، بل الى (دمشق) رأساً ؛ فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجّله ، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهّل ، إذ أن رسولاً آخر من الوليد يكنى : أبا نصر ، بعثه الى موسى عندما استبطأه في القفول ، أتاه وهو في مدينة (لك) بـ (جليقية)[1] .

= في الأندلس (١٠٢ - ١٠٣).

(١) نفح الطيب (١/٢٥٨). وفي فجر الأندلس (١٠٦) ورد : « حتّى لتذهب الروايات إلى أن الوليد بعث إليه رسولا آخر اسمه : أبو نصر ، لقيه في (لك) ، فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثاً وصل وموسى في (سرقسطة) في أوائل الربيع ، ولما تنقض على وصوله ثلاثة أشهر ، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل ، وربما كان أبو نصر هذا كنية لمغيث كما يظنّ (جايانجوس) ». واقول : قد وردت ترجمة مغيث الرّومي في نفح الطيب (٤/١١-١٣) وهو لا يكنى : أبا نصر . ولماذا نستبعد قدوم الرسول الآخر الذي أرسله الوليد إلى موسى وقد انقضت على وصول الرسول الأول ثلاثة أشهر ، وهي مدة طويلة بعد ما استقر في ذهن الوليد أن =

وهناك بعض المؤرخين ، يذكرون أن موسى بن نصير بعد أن افتتح (سرقسطة) بعث سراياه الى (قطالونة) ، ففتحت (برشلونة)[1] ، ومن هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) وتوغّلت في بلاد (غالة) ، فاستولت على (أربونة[2] Narbonne) وصخرة (إينيون Avignon) وحصن (لودون) على وادي (ردونة) وهو وادي نهر (الرون)[3] ، ولا نستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت (برشلونة) و (لاردة) وجزء من إقليم (قطالونية) وأنها قد وصلت الى جبال (البرتات) واجتازتها الى (قَرْقَشُونَة)[4] ، فهو نفس الطريق الذي اتبعه السمح بن مالك[5]

= موسى يريد أن يشق عصا الطاعة، انظر الامامة والسياسة (٢/٧٥-٧٦) وأن موسى يطمع في فتح (غالة) والوصول إلى رومة . انظر الامامة والسياسة (٢/٨١) بل الوصول إلى أرض الشام عن طريق (إفرنجة). انظر نفح الطيب (١/٢٥٩) في الوقت الذي سئم المسلمون فيه الفتح وأظهروا رغبتهم في العودة الى قرطبة ؟ لقد كان الوليد حريصاً على سلامة المسلمين ، فعارض منذ البداية في اقحامهم في بحر شديد الأهوال ، فلما نمي اليه ما شرع فيه موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه وأرسل أبا نصر رسولا ثانياً الى موسى يستعجله القفول الى دمشق ، لذلك نعتقد تماماً أن أبا نصر شخص آخر غير مغيث الرومي . وفي نفح الطيب (١/٥٨) نص صريح وهو : « وقفل معهم (أي مع موسى وطارق) الرسولان مغيث وأبو نصر » . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٣ - ١٠٤).

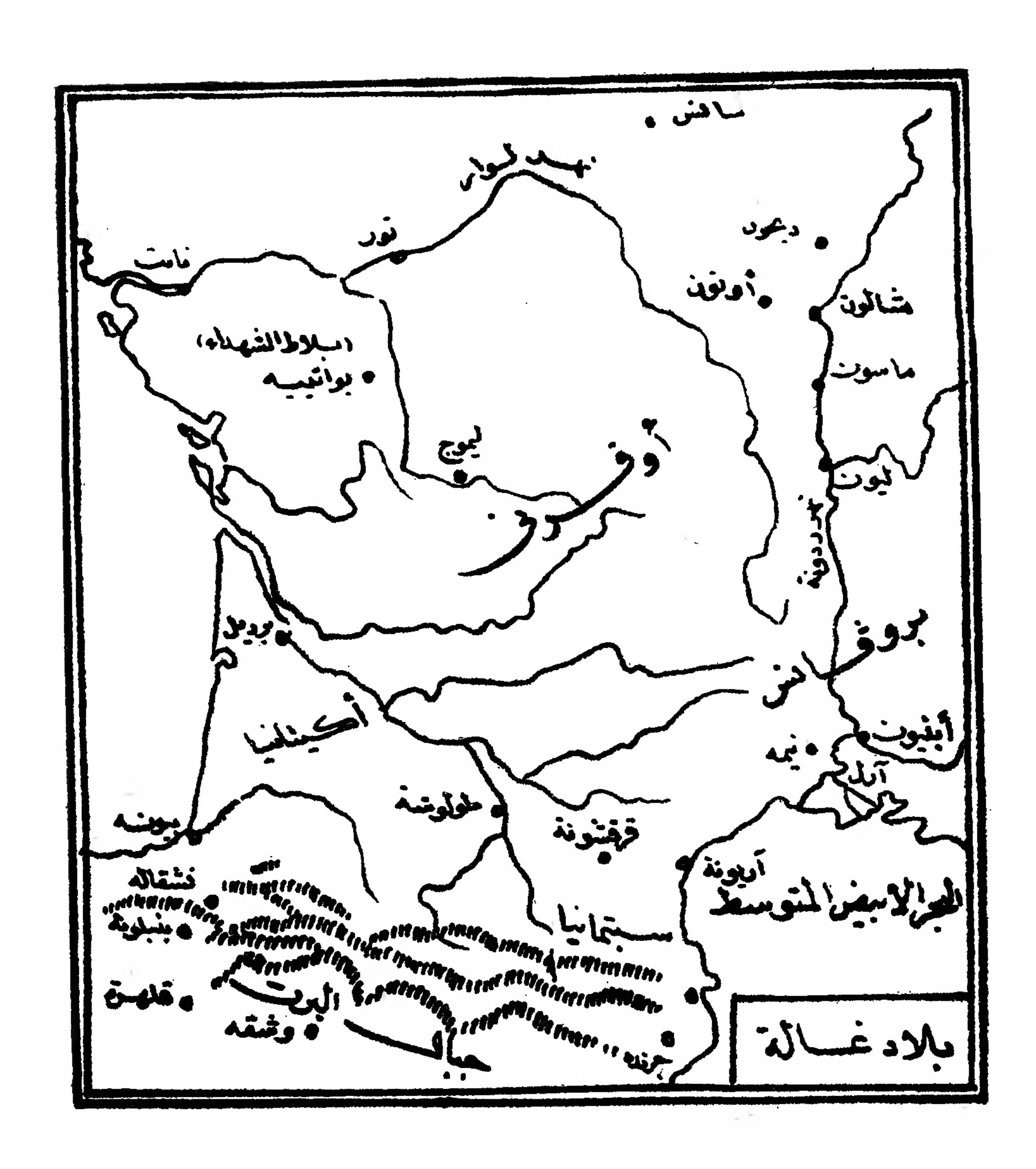
(١) برشلونة : مدينة في شمال شرقي الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، ويعتبرها بعض جغرافي العرب ليست من مدن الأندلس . انظر تقويم البلدان (١٨٢ - ١٨٣).

(٢) أربونة ، مدينة في شمال شرقي قرقشونة تقع في الساحل الفرنسي الجنوبي . انظر ما جاء عنها في تقويم البلدان (١٨٢ - ١٨٣).

(٣) نفح الطيب (١/٢٥٦).

(٤) قرقشونة : بلد في جنوب فرنسا قريبة من حدود إسبانيا الشمالية . وفي معجم البلدان (٧/٥٩) : ان المسافة بين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرون يوماً . وقد ذكر المقري في نفح الطيب (١/٢٦٠) : أن موسى انتهى الى حصن من حصون العدو يقال له : قرقشونة . وانظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) - الأمير شكيب أرسلان - مصر - ١٣٥٢ هـ . ويذكر المقري في نفح الطيب (١/٢١٨) وابن خلدون (٤/١١٧) : أن موسى توغل في الأندلس الى برشلونة من جهة الشرق وأربونة في الجوف .

(٥) سترد ترجمته في كتاب : قادة فتح الأندلس والبحار .


بلاد غالة
البحر الابيض المتوسط
أوفرون
بروفانس
أكيتانيا
سبتمانيا
جبال البرت
نهر لوار
نانت
تور
بواتييه
(بلاط الشهداء)
ليموج
بوردو
طولوشة
قرقشونة
أربونة
نيمه
آرل
أبنيون
ليون
ماسون
شالون
أوتون
ديجون
سانس
بيونه
نشقاله
بنبلونة
قلهرة
وشقه
جرنده

بعد ذلك بسنوات، ولكنّ فتح موسى هذا لم يكن فتحاً مستداماً إنما كان بقوات استطلاعية خفيفة استطاعت جمع المعلومات عن تلك المنطقة من بلاد فرنسا تمهيداً لفتحها فيما بعد[1].

هـ - فتح عبد العزيز بن موسى :

فتح عبدالعزيز ما بقي من مدائن الأندلس[2]، إذ لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة ، فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد . وقد تجمعت في بعض الأقاليم غير المفتوحة وفي الجيوب الجبلية النائية الوعرة مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين ، فاقتضى الأمر إخماد هذه المقاومات وإتمام فتح الأندلس .

سار عبدالعزيز على رأس جيشه لاستكمال فتح غرب الأندلس (البرتغال حالياً) ، ويرجح سافدرا أن عبدالعزيز قام بهذه الحملة قبل رحيل أبيه الى دمشق فيقول : « يبدو لي - حسبما أعتقده - أنه بينما كان موسى وطارق يفتحان البلاد من (سرقسطة) عبر (قشتالة) القديمة ، لم يكن عبدالعزيز الذي كان قد وصل الى (باجة) سنة ٧١٣ م عاطلاً ، إذ أنه شغل عام ٧١٤ م بالزحف نحو(يَابُرَة Evora)[3] و (شَنْتَرِيْن Santaren)[4]

(١) في البيان المغرب (٢/٢٤) ونفح الطيب (١/٢٥٩): أن موسى انتهى الى صنم ، - فوجد في صدره مكتوباً : « يا بني اسماعيل ! الى هنا منتهاكم، وإذا سألتم إلى ماذا ترجعون؟ أخبرناكم : ترجعون الى الاختلاف ذات بينكم ، حتى يضرب بعضكم رقاب بعض» .. ومن الواضح أن هذه قصة خرافية نسجت فيما بعد تقريراً لما حدث بين الفاتحين فعلا ، وأدى بهم الى ضياع الفردوس المفقود (الأندلس) وخروجهم منهـا أذلاء مغلوبين حين تفرقوا واختلفوا ، وكانوا قد دخلوا أعزاء فاتحين حين اتحدوا وتعاونوا .

(٢) تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦).

(٣) يابرة : بلد في غربي الأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٤٩).

(٤) شنترين : مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس ثم غربي قرطبة وعلى نهر (تاجة) قريب من انصبابه في البحر المحيط ، وهي حصينة ، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين باجة أربعة أيام. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٠٠)وتقويم البلدان (١٧٢- ١٧٣).

و (قُلُمْرِيّة Coimbra)[١] ، وظلّ متجهاً الى أقصى الغرب بقصد ملاقاة الفرق الإسلامية في (استرقة Astorga)[٢]، ويستند سافدرا في رأيه هذا على عبارة وردت في الرسالة الشريفية نصها : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم ، وتصيرت ملكاً لهم ، إلا قسّم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد وهي : شنترين وقلمرية في الغرب و (شية) في الشرق ، وسائر البلاد خمّست وقسّمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير[٣] » ، ومعنى هذا أن عبدالعزيز افتتح (شنترين) و (قلمرية) صلحاً ، وذلك أثناء وجود أبيه بالأندلس .

والحق أن موسى لم يكن ليترك ابنه عبدالعزيز — وهو القائد الذي عرف بشجاعته ومهارته — عاطلاً في أيامه ، ولو كان عبدالعزيز مع جيوش أبيه في فتوحه لظهر له أثر واضح كما ظهر لغيره مثل طارق بن زياد، وذلك في الصفحة الأخيرة من فتوحات موسى . كما أن وجود عبدالعزيز في (باجة) القريبة من تلك المناطق لا بد أن يغريه بفتحها . والأهم من كل ذلك ، أن الموقف العسكري الذي كان يحسب حسابه بدقّة متناهية موسى ابن نصير ، يحتّم عليه أن يحمي جناح تقدمه الأيسر ، وذلك أثناء فتوحاته الأخيرة ، وإلا تعرّضت خطوط مواصلاته الممتدة بالعمق شمالاً الى تهديد العدو الرابض في غرب الأندلس (البرتغال) ، فلم يكن باستطاعة موسى أن يتقدم شمالاً ما لم يؤمّن جناحه الأيسر بالحماية اللازمة ، وذلك بفتح هذه المنطقة ، ولم يكن هناك أولى بفتحها من عبدالعزيز بن موسى الذي كان قد وصل الى (باجة) القريبة من غربي الأندلس .

أما ما فتحه عبدالعزيز في اثناء ولايته الأندلس بعد مغادرة أبيه الأندلس

---

(١) قلمرية : مدينة بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٥١).

(٢) Savedra, op. cit. p. 127 نقلا عن : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٩ – ١١٠).

(٣) الرسالة الشريفية الى الأقطار الأندلسية (٢٠٠).

الى المشرق ، فسيرد في ترجمة عبد العزيز بن موسى[1] .

الإنسان :

١ – عودة موسى وطارق الى المشرق :

بادر موسى بالعودة من (لُكّ) بـ (جليقيّة) مع أبي نصر الرسول الثاني للوليد بن عبد الملك ، وكان مع أبي نصر رسالة الوليد الى موسى يوبّخ الوليد بها موسى ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه[2] ، فأخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة خمس وتسعين الهجرية (منتصف صيف ٧١٤ م) ، وكان مغيث الرومي قد خفّ للقائه ، فالتقيا بنواحي (ليون) ، وهناك أدركهما طارق عائداً من (استرقة) ، وساروا جميعاً فاخترقوا (فج موسى Valmuza) في طريقهم الى (طليطلة) . ولم يقم موسى في (طليطلة) وإنما مضى مُجِداً حتى دخل (قرطبة) ولقي فيها نفراً من كبار جنده ، ثم مضى الى (إشبيلية) حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث الرومي وأبونصر وكبار الجند في ذي الحجة سنة خمس وتسعين الهجرية ، وكان معهم (يوليان) . وفي (إشبيلية) استخلف موسى ابنه عبدالعزيز بعد أن اختارها عاصمة للأندلس ، لاتصالها بالبحر[3] ، وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْري[4] وزيراً له ومعيناً[5] ، وترك معه العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو[6] .

---

(١) انظر ما جاء في الأخبار المجموعة (٢١) ونفح الطيب (١/٢٦٣) وستورد ترجمة عبد العزيز في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .

(٢) نفح الطيب (١/٢٥٨).

(٣) نفح الطيب (١ / ٢٥٨) .

(٤) ورد اسمه في البيان المغرب (٢/٣٠): حبيب بن أبي عبده بن عقبة بن نافع ، وكذلك في المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) . أما في تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) ، فقد ورد اسمه : حبيب بن أبي عبيدة .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦)، وأخبار مجموعة (١٩) والبيان المغرب (٢/٣٠).

(٦) المعجب من تاريخ المغرب (٣٤).

أبحر موسى ومن معه من (إشبيلية) وهو متلهف على الجهاد الذي فاته، آسف على ما لحقه من الإزعاج، وكان يؤمّل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس الى الشام، مؤملاً أن يتخذ مُخْتَرَقه[1] بتلك الأرض طريقاً مُهْيَعاً[2] يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً[3].

وتذهب بعض المصادر العربية الى أن موسى استصحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى[4]، وفي ذلك مبالغة واضحة، فهذا العدد الضخم من الأسرى يحتاج الى وسائط نقل لنقلهم بحراً وبراً من الأندلس الى دمشق، ويحتاج الى تدابير إدارية من الصعب جداً تحقيقها، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من الأسرى رافق موسى في رحلته هذه، وأما الباقون منهم فقد تُركوا في المزارع يزرعونها وفي الأعمال الإدارية الأخرى يديرونها. ولكنه استصحب معه مائة رجل من أشراف الناس من قريش ومن الأنصار وسائر العرب ومواليها، وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل: منهم أبناء كسيلة وملك السوس الأقصى وملك قلعة (أوساف) وملك (ميورقة) و (منورقة). ومعه الغنائم من الذهب والفضة والجوهر محمولة على ثلاثين ومائة عجلة[5]، فكان مع موسى اربعمائة[6] بل هناك رواية أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط، ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم في موكبه ليدلّ على عظم الفتح الذي تمّ على يديه[7].

واستخلف موسى ابنه عبدالله على إفريقية وابنه مروان على (طنجة)

---

(١) مخترقه: أي المكان الذي يخترقه، أي يسلكه ويجتاز البلاد منه.

(٢) مهيعاً: الواضح البين، وهو أيضاً الواسع المنبسط.

(٣) نفح الطيب (١/٢٥٩).

(٤) انظر نفح الطيب (١/٢٥٩).

(٥) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٢/٨٢).

(٦) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦).

(٧) انظر فجر الأندلس (١٠٧).

و (السوس)[1]، فمرّ في طريق عودته ب (القيروان)[2] ، ثم قدم (مصر) سنة خمس وتسعين (كانون الاول – ديسمبر ٧١٤ م) ، فأقام هناك ثلاثة أيام يأتيه أهل مصر في كل يوم ، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل موسى اليه صلة ومعروفاً كثيراً ، وأهدى لولد عبدالعزيز بن مروان فأكثر لهم وجاءهم بنفسه فسلّم عليهم ، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين[3] .

وبلغ دمشق سنة ست وثمانين الهجرية (كانون الثاني – يناير ٧١٥ م) ، أي قبل وفاة الوليد بن عبدالملك بأربعين يوماً [4] .

ولما قدم موسى على الوليد ، كان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي توفيّ فيها ، وقد كان سليمان بن عبدالملك بعث الى موسى مَنْ لَقِيَه في الطريق قبل قدومه على الوليد ، يأمره بالتريّث في مسيره وألاّ يعجل ، فإن الوليد بآخر رمقه . وقرأ موسى كتاب سليمان بن عبدالملك ، فقال : « خنت والله وغدرت وما وفيت ! والله لا تربّصتُ ولا تأخرت ولا تعجلت ! ولكني أسير بمسيري ، فإن وافيته حياً لم أتخلّف عنه ، وإن عجلت منيته فأمره الى الله » ، فرجع الرسول الى سليمان فأعلمه[5] . وكان سليمان قد أمر موسى بالتربّص[6] رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى ، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رُئي ولا سُمِع مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ؛ فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينه منه ، وجدّ في السير[7] ، حتى قدم والوليد حي ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلاّ

---

(١) نفح الطيب (٢٦١/١).
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤).
(٣) الإمامة والسياسة (٨٢/٢ – ٨٣) .
(٤) فجر الأندلس (١٠٧).
(٥) الامامة والسياسة (٨٣/٢) وانظر البيان المغرب (٢٥/٢) .
(٦) التربص : الانتظار .
(٧) جد في السير : أسرع .

يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفي واستخلف سليمان ، فحقد عليه وأهانه[1].
وقيل : إن موسى وصل الى دمشق بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان حين استخلف[2].

(١) نفح الطيب (١/٢٦٢) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦).
(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) وانظر المعجب في أخبار المغرب (١/٣٥). وفي الامامة والسياسة (٢/٨٤) : « لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ، بعث إلى موسى ، فأتى به ، فعنفه بلسانه ، وكان فيما قال له يومئذ : « اجترأت ، وأمري خالفت ، والله لأقلّلن عددك ، ولأفرقن جمعك ، ولأبددن مالك ، ولأضعن منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور ، وتخدعه من آل أبي سفيان ، وآل مروان » . فقال له موسى: « والله يا أمير المؤمنين ما تعتل عليّ بذنب ، سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك ، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه . فأما ما ذكر أمير المؤمنين ، من أنه يقلل عددي ويفرق جمعي ، ويبدد مالي ، ويخفض حالي ، فذلك بيد الله والى الله ، وهو الذي يتولى النعمة على الاحسان الي ، وبه أستعين ، ويعيذ الله عز وجل أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئاً من المكروه لم استحقه ولم يبلغه ذنب اجترمته » .

فأمر سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه ، وكانت بموسى نسمة (ربو) فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف ، هاجت عليه ، وجعلت قرب العرق تنصب منه ، فما زال كذلك حتى سقط ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً ، إلى أن نظر سليمان إلى موسى ، وقد وقع مغشياً عليه ، قال عمر بن عبد العزيز : « ما مر بي يوم كان أعظم عندي ، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم لما رأيت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بعد أثره في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه ، وهذا يفعل به ! » فالتفت إلي سليمان ، فقال : « يا أبا حفص ! ما أظن إلا قد خرجت من يميني ! » . فقال عمر : « فاغتنمت ذلك منه فقلت : يا أمير المؤمنين ! شيخ كبير بادن ، وبه نسمة قد أهلكته ، وقد أتيت على ما فيه من السلامة لك من يمينك ، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله ، العظيم الغناء عن المسلمين . قال عمر : منعني من الكلام فيه ، ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه ، فخشيت إن ابتدأته أن يلح عليه ، وهو لجوج . قال عمر : فلما قال لي ما قال آخراً ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت أن الله قد أحسن اليه ، وأن سليمان قد ندم فيه . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقال يزيد بن المهلب : أنا أضمه يا أمير المؤمنين . قال : وكانت الحال بين يزيد وسليمان لطيفة خاصة . قال سليمان : فضمه إليك يا يزيد ، ولا تضيق عليه ، قال : فانصرف به يزيد ، وقد قدم اليه دابة ابنه مخلد ، فركبها موسى ، فأقام أياماً . قال : ثم إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح ، حتى افتدى منه بثلاثة آلاف دينار » ... انتهى.

ومن الواضح أن المبالغة والتناقض يسودان هذه الرواية ، فالوليد تارة قاس لا يتورع عن تعذيب شيخ فان عذاباً يقربه من حافة القبر ، وهو رحيم تارة أخرى وفي نفس الوقت بحيث يوصي بهذا الشيخ خيراً فلا يرضى أن يضيق أحد عليه ! كما أن هذه القصة تناقض ما جاء عن سليمان من مزايا —

لقد قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً — وهذا ما نرجحه — ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف ، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيّراً على موسى تغيّراً لا سبيل الى إصلاحه ، فلم يحسن الوليد لقاء موسى ، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربّه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى ، ولهذا كان طبيعياً ألاّ ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك أن أيام مجده وعزّه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعدَ صحّة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ، فمن المستبعد ما يقال : إن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر[1] ، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه[2] فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطر الى أن سأل العرب معونته ، فيقال : إن لخماً حملت عنه من أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل حمّله سليمان غرم مائتي ألف ، فأدّى مائة ألف وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلّب ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إياه إلا أنــه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية[3] ، وأن سليمان ألزم موسى أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدي به نفسه ، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك موسى ويدفعه إلى الموكلين به ، فيخفّفون عنه العذاب ! ![4] ، لأن سليمان لو كان

= فهو : « مفتاح الخير : أطلق الأسارى وخلى السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز . الخ » ، كما جاء في الطبري (٥/٣٠٤) ، فكيف يقوم على تمذهب شيخ له ماض مجيد كما وصفه عمر بن عبد العزيز بالذات وكما يعرف عنه الناس جميعاً ؟ !

يبدو أن هذه القصة وأمثالها من جملة القصص الموضوعة للتشنيع بسليمان وغيره من رجال العرب المسلمين من الخلفاء ومن الذين عملوا معهم في تلك الفترة الذهبية من تاريخ العرب والاسلام ، وأمثال هذه القصص ظاهرة التهافت والتناقض لا تستقيم مع خلق العرب وتعاليم الاسلام التي كانت سائدة حينذاك .

(١) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٢/٨٤ — ٨٥) .

(٢) تقصىّ حسابه : أي تتبعه وشدد البحث عنه لتعرّف حقيقته .

(٣) نفح الطيب (١/٢٦٢) .

(٤) انظر التفاصيل في نفح الطيب (١/٢٦٥ — ٢٦٦) .

قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك اولاده ولاة على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلّب وزير سليمان بن عبد الملك وصاحب الأمر في دولته[1] ، ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقرّبين إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرّفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولأن سيرة سليمان الذي وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير . أطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز[2]، لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد في خدمة العرب والمسلمين . إننا نستبعد أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً هو موسى بن نصير ، أسس ملكاً وقضى سني حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرّد قالة ظالمة أو وشاية في حقّه ، حتى قصة مقتل عبد العزيز بن موسى لم يكن لسليمان يد فيها ، ذلك لأن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز ، وأرسل الى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبد العزيز ، والقبض على قتلته وإرسالهم إليه[3] .

لقد كان موقف سليمان من موسى سليماً ، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد .

ولكن ، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس وأقرّ سليمان هذا العزل ؟ ولماذا استدعى الوليد موسى من ساحات القتال على عجل ولم يمهله حتى يحقق كلّ نياته التوسعية في الفتح ؟

---

(١) فجر الأندلس (١٠٨).

(٢) الطبري (٥/٣٠٤).

(٣) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٦ – ١٠٧). وفي الأخبار المجموعة (٢٢) : « ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى ، شق عليه ذلك ، فولى إفريقية بن يزيد ... وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يشخصهما في ذلك وأن يقفلهما اليه ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس ... » .

٢ ـ أسباب استدعاء موسى الى دمشق وعزله :

كان للخلفاء أساليب خاصة لمعرفة تفاصيل أعمال ولاتهم وقادتهم وتصرّفاتهم للإطمئنان الى أن أولئك الولاة والقادة لا يخرجون عن الخطّة التي رسمها لهم الخلفاء ، وليحول الخلفاء ـ جهد الإمكان ـ دون خروج الولاة والقادة عليهم عند سنوح الفرصة المناسبة .

من تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على قادتهم وولاتهم ، ـ خاصة في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة ـ هي إرسال من يعتمدون عليهم من الرجال ، لينقلوا اليهم بدقّة وسرعة وأمانة كل ما يرونه ضرورياً لجعل الخلفاء مطمئنين من سير الأمور في مختلف البلاد والأمصار كما يريدون .

كان مغيث الرومي أحد من يعتمد عليه الوليد بن عبد الملك ، لأن عبد الملك بن مروان كان قد أدّبه مع ولده الوليد ، وقد نشأ بدمشق ودخل الأندلس مع طارق فاتحها . وقد وقع بينه وبين طارق ، ثم وقع بينه وبين موسى ، فرحل معهما إلى دمشق ، ثم عاد ظافراً عليهما الى الأندلس . وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكَيْد[١] ، وكان يطمع بولاية الأندلس ، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد الأندلس استشار مغيث الرومي فصرفه عن عزمه . وقد بالغ في إذاية موسى عند سليمان[٢] . ويروى لمغيث شعر خاطب به موسى بن نصير وطارق بن زياد منه قوله :

أعَنْتكُمُ ولكن ما وفيتم   فسوف أعيث في غرب وشرق

وعارض يوماً مغيثُ في محفل في الناس موسى بن نصير ، فقال له موسى : « كفّ لسانك » ، فقال مغيث : « لساني كالمفصل ، ما أكفّه إلا حيث يقتل »[٣].

---

(١) نفح الطيب (١١/٤).
(٢) نفح الطيب (١٢/٤).
(٣) نفح الطيب (١٣/٤).

والظاهر أن مغيثاً هذا لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عند الوليد وعند سليمان من بعده طمعاً في تولي الأندلس من بعد موسى ، أو انتقاماً من موسى ، فحقّق سليمان جميع ما رمى به موسى عنده ، فأغرمه غرماً عظيماً[1] ومن هذا يتّضح أن من جملة ما رمى مغيث به موسى هو أنه لم يتصرّف بأمانة في الغنائم .

فهل كان اتهام موسى بنزاهته حقاً ؟ الحق أن مغيثاً ليس وحده اتّهم موسى بالغلول أو بعدم تطبيق نصوص الشرع في الغنائم ، فقد ذكروا أن سليمان بينما كان يقلّب هدايا موسى التي جاء بها من الأندلس وإفريقيّة ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة المنوّرة ، وكان على الغنائم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن الله أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه المقاسم ، وإنّ موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك » ؛ فغضب سليمان وقام عن سريره ، فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال : « نعم . قد أغناني الله بالحلال عن الحرام » ، وأمر بادخال ذلك بيت المال[2] .. ولكن ذلك لا يكفي لاثبات التهمة الموجّهة الى نزاهة موسى ، وهو الذي عرف بالتدين العميق كما سنرى ، ولو ثبت ذلك عليه لما توسّط له عمر بن عبد العزيز عند سليمان فعفا عن موسى[3] ، وعمر ابن عبد العزيز معروف بالتزامه بتعاليم الشرع الحنيف .

ولست أشك أن موسى كان نزيهاً غاية النزاهة ، فقد أغناه الله هو الآخر ، بالحلال عن الحرام ، فلماذا يتردى الى مهاوي الخيانة وقد فتحت عليه أبواب الخير ؟

فما هي الأسباب الحقيقية لاستدعاء موسى الى دمشق وعزله ؟

يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرّر بالمسلمين ، وأنه

---

(١) نفح الطيب (١/٢٦٢).

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٨٤).

(٣) انظر الامامة والسياسة (٩٢ – ٩٣).

عرّضهم للمهالك بتغلغله الى حدود بعيدة في الأندلس ، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل الى بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين الى رومية [1]، وأن موسى : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض اليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهــداً فيهم ، مستلحماً لهـــم ، إلى أن يلحق بـــدار الخلافة » ، فنمي هذا الخبر الى الوليد ، فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ؛ فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع ، وكتب له بذلك عهده ؛ ففتّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها [2] . والظاهر أنّ الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان ، فقد فكّر عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها ، إذ خشي تغلّب العدوّ عليهم [3]؛ فاذا كان هذا ما يعتقده عمر ابن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجرية [4] ، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية [5] ، والفتح كان في أوله ، والاندلس جد بعيد عن دار الخلافة ؟

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد خشي على المسلمين في الأندلس بعد إستقرار الفتح فيها ، فكيف لا يخشى الوليد ومن بعده سليمان على المسلمين في الأندلس من طموح موسى في التغلغل بهم بعيداً بعيداً الى رومية والى القسطنطينية ؟

لقد كان طموح موسى في التوسّع بالفتح ، سبباً واضحاً لاستدعائه الى

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٨١).
(٢) نفح الطيب (١/٢١٨).
(٣) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٩) والأخبار المجموعة (٢٣).
(٤) الطبري (٥/٣٠٤).
(٥) نفح الطيب (١/٣١٨) وفتح مصر والمغرب (٢٨٤).

دمشق ، وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهرية لاستدعائه .

وهناك سبب آخر لا يقلّ خطورة عن السبب السابق ، هو اتّهام موسى بالخلع . فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك لما بلغه مسير موسى الى الأندلس ، ووصفت له ، ظن أنه يريد أن يخلع ، ويقيم فيها ويمتنع بها ، وقيل له ذلك ؛ وأبطأت كتب موسى عليه ، لاشتغاله بما هنالك من العدو ، وتوطئته لفتح البلاد[1] ، مما زاد في شكوك الوليد في نيات موسى هذه في محاولته الاستقلال أو التحرر من سلطان الخلافة . ولعلّ الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده ومواليه على إفريقيّة والأندلس مما ضاعف تلك الشكوك وجعلها بعيدة عن الحدس قريبة من التصديق.

ولعلّ اتّهام موسى بالخلع ، هو الذي يفسّر لنا ، لماذا لم تختلف نظرة سليمان على سلفه الوليد الى موسى مع ما بين السلف والخلف من تناقض كثير كما هو معروف ، ذلك لأن أصحاب السلطان إذا اختلفوا في كل شيء ، فإنهم يتفقون على شيء واحد ، هو عدم التغاضي عن كل من يريد التحرر من ربقتهم والاستقلال عنهم سواء كان إتهامه حقاً بذلك أم باطلاً . كما أنهم كانوا ولا يزالون يدخلون في حسابهم لمقاومة الذين يخرجون عليهم أو الذين يتهمونهم بالخروج زوراً وبهتاناً – يدخلون في حسابهم أسوأ الاحتمالات ، ويكفي أن يقدموا على أخذ المتهم بذلك في حالات الظن وفي حالات اليقين .

سأل سليمان مغيثاً عن طارق بن زياد ، وقد أراد أن يوليه الأندلس بعد موسى ، فقال : «كيف أمر طارق بالأندلس ؟ »، فقال مغيث : «لو أمر أهلها بالصلاة الى أى قبلة شاءها ، لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا » ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدّا له في ولايته[2] ، وهذا يدل بوضوح على السياسة التي كان يتبعها سليمان في تولية الولاة ، إذ يستبعد عن الولاية

---

(١) الامامة والسياسة (٧٥/١).
(٢) نفح الطيب (١٢/٤).

كلّ من يخشى خطره من بعيد أو قريب .

وكان يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة ، من أقرب المقرّبين الى سليمان بن عبد الملك ، وكان لموسى يد على المهلب بن أبي صفرة [1]، وقد سأل يزيدُ يوماً موسى : « أريد أن أسألك فاصغ إليّ » ، فقال موسى : « سل عما بدَا لك » ، فقال : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومُداراة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يدي هـذا الرجل (يعني سليمان بن عبد الملك) بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزخّار[2] ، وتيقّنت بُعد المرام واستصعابه، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها ، واستملكت رجالاً لايعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الإمتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك. ثم إنك علمت أنّ سليمان ولي عهد ، وأنه المولىّ بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لا محالة [3] ؛ وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك (يعني سليمان وطارقاً) ، وما رضا هذا الرجل إلا بعيد ، ولكن لا آلو جهداً[4] ، فقال موسى : « يا ابن الكرام ! ليس هذا وقت تعديد ، أما سمعت : إذا جاء الحَيْن [5]، غطّى على العين ؟! » . فقال يزيد : « ما قصدت بما قلت لك تعديداً وتبكيتاً ، وإنما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه الرأي ، وأن أرى ما عندك ! » ، فقال موسى : « أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْدٍ ، ويقع في الفخّ وهو بمرأى عينه ؟ »[6] .

وسهر يزيد بن المهلّب ليلة عند موسى فقال له : « يا أبا عبد الرحمن !

---

(1) أنظر الامامة والسياسة (٢/٩٤ - ٩٥).

(2) البحر الزخار : الطامي الممتلىء الجياش بالأمواج .

(3) أشرف على الهلاك : أراد أنه قارب الموت لسوء حاله .

(4) لا آلو جهداً : لا أقصر فيما لديّ من الجهد والوسع أن أبذله في إرضائه عنك .

(5) الحين : الهلاك والموت .

(6) نفح الطيب (١/٢٦٥).

في كم تعتد من مواليك وأهل بيتك ؟ » . فقال له موسى : « في كثير » ، فقال يزيد : « يكونون ألفاً ؟ » ، فقال له موسى : « وألفاً وألفاً الى منقطع النفس » ، فقال له يزيد : « وأنت على ما وصفتَ ، وألقيتَ بيدك إلى التهلكة ؟! أفلا أقمت في قرار عزّك وموضع سلطانك ، وامتنعت بما قدمت به ؟ فإن أعطيت الرضى وإلا كنت على عزّك وسلطانك » ، فقال له : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفاً ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة [1] » .

تلك هي أسباب إستدعاء موسى من الأندلس الى دمشق وعزله ، وهذا لا يمنع من وجود أسباب تافهة أخرى أخذها على موسى كل من الوليد وسليمان . وأياً كانت أسباب حنق الوليد وسليمان على موسى ، فان فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقّه وفضله ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدّر البطولة في هذا الموطن قدرها [2] . ولعلّ عذر الوليد ومن بعده سليمان أن موسى كان يمثل خطراً شديداً على الخلافة بعد امتداد سلطانه إلى أعماق إفريقية وأوروبا وسيطرته على تلك الاصقاع النائية سيطرة شخصية وبأولاده ومواليه وأتباعه ، مما فسح المجال لتقولات خصومه وحاسديه عليه ؛ ومن الواضح أن موسى – في حقيقة أمره – كان بعيداً كل البعد عن الاختلاس ، ولم يكن تغلغله في تلك الأصقاع النائية التي ظن الخلفاء أنه غرّر بالمسلمين وعرّضهم للأخطار ، إلاّ عن رغبته الأكيدة بالفتح ونشر رايات الإسلام مع تمكنه وثقته بقابليته وقابلية رجاله على تحمل أعباء هذا الفتح العظيم وتبعاته ، فكان المسلمون في أمن ودعة لا في خطر وشدّة – كما ظنّ الخلفاء بما أوحى اليهم خصوم موسى وحاسدوه . كما أن موسى لم يفكر أبداً بالخلع والاستقلال عن الخلافة ، فقد كان إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها ، وشدة ضبطه وابتعاده عن شق

---

(١) البيان المغرب (٢/٢٥ – ٢٦) وانظر البيان المغرب (١/٤٢).

(٢) دولة الاسلام في الأندلس – العصر الأول – القسم الأول. (٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٩).

عصا الطاعة ، والإنزلاق في مهاوي الفتن والفرقة ، كل ذلك يجعله بعيداً عن اتهام خصومه وحاسديه بالخلع أو الاستقلال الذاتي ، خاصة وأنه في ذلك الوقت كان قد بلغ حوالي الثمانين من عمره ، تلك السن التي لا تشجع على المغامرة وتجعل من صاحبها رجلاً ذا تجربة وخبرة بعيد النظر مقدراً لعواقب الأمور .

لقد ذهب موسى ضحية الدس والحسد ، فخسر العرب المسلمون بتنحيته بطلاً من ألمع أبطالهم ورجلاً من أنبغ رجالاتهم ، وكانت تنحيته نكسة قاصمة للفتح الإسلامي في الأندلس وأوربا .

ولكن ، هل خسر العرب والمسلمون موسى وحده نتيجة للدس والحسد ؟؟!

٣ ــ الرجل :

أ ــ الاداري :

كان موسى إدارياً حازماً ، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقية والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناءة منشئة بكل كفاية وجدارة ، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه ، وكان من أولئك الولاة الذين يفكّرون بما يعملون ، ويعرفون ما يريدون ، وينفذون ما يخططون .

كان حسّان بن النعمان إدارياً ممتازاً كما مرّ بنا ، فلما ارتحل الى المشرق ، اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقيّة والمغرب ، فكثرت الفتن ، وخلت أكثر البلاد ، حتى قدم موسى بن نصير ، فتلافى أمرهـا ، ولمّ شعثها (١) . قال أبو عتيك في حسّان وخليفته موسى :

أقول لأصحابي عشيّة جاءنا بغير الذي نهوى البريد المبشّر

---

(١) الاستقصا (١/٨٤).

ألا ما الذي غال ابن نعمان دوننا ... فقلّ متاح الخير والخير يقدر
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... فنعم الفتى المعزول والمتنظر [1]

وقال عبيد الله بن عوف الخولاني في حسّان وموسى أيضاً :

كنّا نؤمّل حسّاناً وإمرته ... حتّى أتانا [2] أمير غير حسّان
النصر يقدمه والحزم سائقه ... عفّ الخلائق ماضٍ غير وسنان
الحق نسبته والعدل سيرته ... جزل المواهب معطٍ غير منّان [3]

ولقد صدق الشاعر في وصف مزايا موسى : النصر في ركابه ، والحزم في قراراته ، والخلق الكريم من مزاياه ، والحق رائده ، والعدل سيرته ، والكرم هدفه ، والمواهب السامية خصاله .

كان موسى عاقلاً شجاعاً كريماً [4] ، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر الإسلام في إفريقيّة والمغرب : ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ثم رجع إلى إفريقيّة ، ولم يبق بالبلاد (المغرب) من ينازعه من البربر ولا من الروم [5] . وقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ويفقهوهم في الدين [6] . وفي سنة خمس وثمانين الهجرية تمّ إسلام أهل المغرب الأقصى وحوّلوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القِبْلَة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات [7] فاستأمن البربر اليه وأطاعوه [8] . وكان البربر قد ارتدوا اثني عشرة مرة من (طرابلس) إلى (طنجة) ،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٢) في الأصل : أتى ، والصحيح ما ذكرناه أعلاه ، لأن الوزن الشعري لا يستقيم إلا بهذا التصحيح .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٧).
(٤) نفح الطيب (١/٢٢٤) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٢).
(٥) نفح الطيب (١/٢٢٤).
(٦) البيان المغرب (١/٣٦).
(٧) البيان المغرب (١/٣٧).
(٨) ابن الأثير (٤/٢٠٦).

ولم يستقر إسلامهم حتّى عبر موسى البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد ، فاستقرّوا هنالك ، فحينئذ استقرّ الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، وتناسوا الردّة[1] .

بهذه الخطّة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب، وبذلك أشاع الإنسجام الفكري بين البربر والعرب بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر ، فوحّد بذلك صفوفهم وجمع كلمتهم مع إخوانهم العرب المسلمين ، فأصبح البربر مع العرب قوة موحّدة هائلة وجدت لها متنفساً في فتح الأندلس ، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين ، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد هو : إعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض، حتّى تكون كلمة الله هي العليا .

ومن أعمال موسى الإدارية : أنه ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس ، إذ لم يكد يستقر في (طليطلة) حتّى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولسنا نعلّل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية — التي كانت في ذلك الحين من حقّ الخليفة وحده — إلاّ بأن الخليفة كان قد خوّله هذا الحق في إفريقيّة ، فأباحه لنفسه في الأندلس ، لأنها كانت معتبرة في نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقيّة ؛ وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة في الأندلس بالعملة الإفريقيّة التي ضربها موسى قبل ذلك سنة تسعين الهجرية ؛ وقد رُسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقيّة : كانت لاتينية عربية ، ففي ناحية منها كتب : (محمد رسول الله) يحيط به النص التالي باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini. non Deux nisi. Solus Spiens. non Deo similis Alius.

وفي الناحية الثانية نجمة ذات ثمانية أذرع كتب حولها باللاتينية :

Solidus Feritus in Spania.

---

(١) الاستقصا (١/٨٩).

ويلي ذلك تاريخ سكّها وهو سنة سبع وتسعين الهجرية[1].

ومن أعماله الإدارية التي تتّسم بالطابع العسكري أيضاً، تحسينه (دار الصناعة) التي كانت بمدينة (تونس)، والتي مرّ بنا ذكرها في ترجمة حسّان ابن النعمان. ودار الصناعة هي الدار التي أُعدّت لصناعة السفن لخوض المعارك البحرية ومهاجمة الجزر في البحر الأبيض المتوسط والدفاع عن سواحل إفريقيّة والمغرب، ونقل المواد والمعدات الى المجاهدين في البحر. فقد أمر موسى بدار الصناعة بتونس، وجرّ البحر اليها، فعظّم عليه الناس ذلك. ولكنّ موسى لم يلتفت إلى أقاويل الناس، فوضع يده، وبنى دار الصناعة بتونس، وجرّ البحر إليها مسيرة إثني عشر ميلاً، حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت مشتى للمراكب إذا هبّت الأنواء والأرياح. ثم أمر بصناعة مائة مركب. وحين أصابت مراكب إحدى حملات المسلمين البحرية ريح عاصف، أمر موسى بتلك المراكب ومن نجى من النواتية، فأدخلهم دار الصناعة بتونس[2].

ومن الواضح أن الذي بدأ بإنشاء دار الصناعة بتونس هو حسّان بن النعمان سلف موسى على إفريقيّة والمغرب، وأن موسى حسّن هذه الدار وطهّر القناة التي توصلها بالبحر وجعل قابليتها في إنشاء السفن وتدريب النواتية أكثر كفاية ومقدرة، فأصبح بإمكان هـذه الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن، مما سهّل على موسى مهمته في جهاده البحري وفي فتح الأندلس.

ومن أعماله الإدارية الخالدة، نشر اللغة العربية بين البربر، وذلك بإرسال المعلمين والإختلاط الشديد بين العرب والبربر، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلّم اللغة العربية وانتشارها بينهم، مما كان له أكبر

---

(١) Saovedra. Op. Cit. pp. 106-107. نقلا عن فجر الأندلس (١٠٠ – ١٠١).

(٢) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٢/٦٩ – ٧٠).

الأثر على عروبة المغرب . كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قوياً للعرب المسلمين ، وجعل منهم فاتحين يسيرون جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين للفتح . ولعلّ تولية طارق بن زياد ، وهو بربري ، على أصح الأقوال ، أخطر المناصب القيادية ، خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب ، وأن الكفاية وحدها كانت هي التي تُقدِّم وتؤخر في نظر موسى ، مما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح سواء كان ذلك في ساحات إفريقيّة والمغرب أو في ساحات الأندلس وجزائر البحر الأبيض المتوسط .

لقد كان موسى رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معاني .

ب ـ لمحات من حياته :

كان موسى من التابعين رضي الله عنه ، روى عن تميم الدّاري وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصُبي[١] ، وعدّه المؤرخون من بين العلماء ورواة العلم[٢] .

وكان ورعاً تَقِيّاً لله[٣] ، وقد وجد موسى أكثر مدن إفريقيّة خالية لاختلاف أيدي البربر عليها ، وكانت البلاد في قحط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد ابن عبد الملك ، فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟! فقال : « هذا مقام

---

(١) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (٢/١٤٤) وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (٣١٧) وبغية الملتمس (٤٤٢) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٢) والبداية والنهاية (٩/١٧١) وانظر نفح الطيب (١/٢٥٩).

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (٢/١٤٤).

(٣) وفيات الأعيان (٤/٤٠٢) ونفح الطيب (١/٢٢٤).

لا يدعى فيه لغير الله تعالى » ، فسقوا حتى رووا ورخصت الأسعار[1] .
وفي رواية أن موسى لما قحط الناس خرج بالناس فاستسقى ، وأمر رجلاً يصلّي بالناس ، وخطب فيهم ، ثم أخذ في الدعاء للوليد فأكثر ، فأرسل إليه موسى : « إنا لم نأت لذلك ، فأقبل على ما قصدنا إليه وجلسنا من أجله » ، فلم يلتفت إلى كلامه ، وتمادى في حاله رجاء أن يبلغ ذلك الوليد فينال عنده منزلة ، فأمر به موسى فسُحب حتى أخرج من بين الناس ، ثم قام موسى فأخذ بالدعاء[2] .

وكان موسى عربياً فصيحاً ، وقد سبق من مُراجعة يزيد بن المهلّب ما يدل على بلاغته . وقد كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها : « إنها ليست الفتوح ، ولكنّها الحشر »[3] .

وكتب اليه عبد الله بن عبد الملك بن مروان[4] أمير مصر رسالة يهدّده فيها ، فكتب إليه موسى : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما وصفت فيه من إركاني إلى أبويك وعمك ، ولعمري إن كنت لذلك أهلاً ، ولو خبرت مني ما خبرا ، لما صغّرت مني ما عظّما ، ولا جهلت من أمرنا ما علما ، فكيف أتاه الله لك . فأما انتقاصك لهما فهما لك وأنت منهما ولهما منك ناصر لو قال وجد عليك مقالاً ، وكفاك جزاء العاق . فأما ما نلت من عرضي ، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك . وأما تهدّدك إياي بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فارعُد وأبرُق لغيري . وأما ما ذكرت مما كنت آتي به عمك عبد العزيز ، فلعمري إني ممّا نسبتني إليه من الكهانة لبعيد ، وإني من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رسلك ، فكأنّك قد أظلّتك البدر الطالع والسيف القاطع والشهاب الساطع ، فقد تمّ لها[5]

(١) ابن الأثير (٤/٢٠٦) ورياض النفوس (١/٧٨) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٣).
(٢) رياض النفوس (١/٧٨).
(٣) نفح الطيب (١/٢٦٦).
(٤) انظر ترجمته في الولاة والقضاة (٥٨ - ٦٣) والنجوم الزاهرة (١/٢١٠ - ٢١٧).
(٥) المصير المخلافة.

وتمت له ، ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجافي ، فلم نشعُر به حتى يحلّ بعِقْوتك[1] ، فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ولا تعود اليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أيّنا النادم السادم[2] . والسلام[3] » ... وهذه الرسالة لا تدل على بلاغة موسى فقط ، بل تدل على قوة شخصيته وعـــدم رضوخه للتهديد والوعيد ، حتى ولو جاء ذلك من أميره المباشر وابن عبد الملك أخ الوليد بن عبد الملك الخليفة القائم .

وقد جرت منازعة بين موسى وبين عبد الله بن يزيد بن أُسيد بمحضر عبد الملك بن مروان ، ألجأت موسى الى أن قال شعراً منه :

جاريت غير شؤم في مطاولة   لو نازع الحفلَ لم ينزع الى حَصَرِ[4]

وكانت له معرفة مستفيضة بمزايا الأمم وخواصها نتيجة لتجربته الطويلة في الاختلاط بها ومحاربتها . سأل سليمان بن عبد الملك يوماً موسى فيما سأله : «أي الأمم كانوا أشد قتالاً ؟» ، فقال : «إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم ! » . فقال له : « أخبرني عن الروم » ، فقال : « أسود في حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء في مواكبهم . إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن خافوا غلبةً فأوعال ، ترقل[5] في أجبال ، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة ! » . قال سليمان : « فأخبرني عن البربر » ، فقال : « هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب : لقاء ونجدة ، وصبراً وفروسية ، وسماحة وبادية ، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر »[6]. قال : « فأخبرني عن الأشبان[7] » ، فقال :

---

(١) عقوة : الفضاء الذي يولد عليه كل مولود .
(٢) السدم : بفتحتين ، الندم والحزن .
(٣) انظر الولاة والقضاة (٩٠ – ٩١) .
(٤) نفح الطيب (١/٢٦٦) .
(٥) ترقل : رقل في سيره ، أسرع . والمرقال : السريع .
(٦) والاسلام هذب من خلقهم ، فأصبحوا كالعرب المسلمين سواء بسواء .
(٧) الاشبان : الأسبان وهم سكان اسبانيا .

« ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون »، فقال: « فأخبرني عن الإفرنج »[1] ، فقال : « هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدّة . والجلد والشدّة ، وبين ذلك أمم كثيرة ، ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ؛ وكلاً قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ، ومنهم المحارب المقهور ، والعزيز البذوخ » ، فقال: « فأخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم ، أكانت عقباً »[2] ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما هزمت لي راية قط ، ولا فضّ لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة ، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين » [3] .

وكما كان موسى خبيراً بالأمم نتيجة لتجاربه الطويلة في الحرب والسلام ، كذلك كان خبيراً بالخيل لأنها عدّته الأولى في حربه وفي تنقّله وفي حياته العامة والخاصة .

سأل سليمان بن عبد الملك موسى حين قدم من الأندلس : أيّ الخيل رأيتها في تلك البلاد أصبر ؟ » ، فقال : « الشُقر »[4] . وقال موسى : « إذا كان الأدهم[5] أحمر العينين ، فانه يُتّهم بالحَرَن [6] » . وقال موسى : « يُختبر العَسَر بأن يقفز الفرس خندقاً صغيراً سبع مرّات ، فإن رفع في كل المرّات يده اليمنى قبل اليسرى ، فاعلم أنه ليس بأعسَر »، والعسر[7] مما يُكره في الخيل[8] . وقال موسى : « تُختبر البلادةُ بأن تقف على عشرة

---

(١) الأفرنج : هم الفرنسيون ، سكان فرنسا .

(٢) عاقب بين الشيئين : أتى بأحدهما بعد الآخر . والمراد أن ينتصر مرة ويفشل أخرى .

(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠٠).

(٤) حلية الفرسان وشعار الشجعان (٩٤). وشقرة الخيل : حمرة صافية يحمر معها العرف والذنب ، فان اسوداً فهو الكميت .

(٥) الدهمة : السواد ، يقال : فرس أدهم أي أسود .

(٦) حلية الفرسان (١٠٨).

(٧) العسر : قال الاصمعي : إذا عمل الرجل بشماله فهو أعسر ، وكذلك الفرس إذا قدم في مشيه شماله .

(٨) حلية الفرسان (١٠٩-١١٠).

أذرع من الفرس ، وأرمه بخرقة أو ارمِ عِنانه بحصيّ ، فإن وقف فاتّهمه ببلادة ، وكذلك إن عطست وأنت راكبه ، أو نفضْتَ بعض ثيابك ، ثم اركبه وألق على الأرض ثوباً أبيض ، وامش به عليه ، فان حَذِرَه فاعلم أنه ذكي النفس ، وإلا فاعلم أنه بليد »[1] .

لقد كان موسى عالماً فذاً ، ولولم تشغله الحروب لكان من ألمع علماء العرب المسلمين ، ولكان له في العلم شأن أي شأن . ومما ساعده على استيعاب مختلف العلوم ، ما كان يتمتّع به من ذكاء خارق وبديهة حاضرة .

حين قال لسليمان : « ما هزمت لي راية قط ، ولا فضّ لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين ، إلى أن شارفت الثمانين » ، قال سليمان : « فأين الراية التي حملتها يوم (مرج راهط) ، مع الضحّاك[2]؟ » ، فأجابه موسى فوراً : « تلك يا أمير المؤمنين زبيريّة ، وإنما عنيت المروانية » ، فقال سليمان : « صدقت » ، وأعجبه قوله[3] .

وحين كان موسى في موكب سليمان إلى زيارة بيت الله الحرام وإداء فريضة الحج ، وبينما كان يسير يوماً إذ دعا سليمان بموسى ، فدعاه أحد رجال سليمان ، وكان موسى يساير رجلاً ، فلم يلتفت موسى إلى ندائه . ثم دعا به سليمان، فناداه ذلك الرجل أيضاً ، فلم يلتفت إليه ، فقال له الرجل : « غفر الله لك ! ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟! إني أخافه وأخاف أن يغضب » ، فقال موسى : « ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد ، فأما هذا ، فانه يرضيه ما يرضي الصبي ، ويسخطه ما يسخطه ، وسترى ذلك » . ثم تقدّم موسى حتى لحق ولصق بسليمان ، فقال له : « أين كنت يا ابن نصير ؟! » ،

---

(١) حلية الفرسان (١١٠).

(٢) هو الضحاك بن قيس الفهري . انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر (٤/٧ – ٩) وانظر تفاصيل يوم مرج راهط في الطبري (٤/٤١٣ – ٤٢٠) وابن الأثير (٤/٥٨ – ٦٠) بين الضحاك ابن قيس الذي كان مع عبد الله بن الزبير وبين مروان بن الحكم وذلك سنة خمس وستين الهجرية .

(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠٠ – ١٠١).

فقال له : « يا أمير المؤمنين ! أين دوابنا من دوابك ! إني لمنذ دعاني أمير المؤمنين لفي كدّ ، حتى لحقت أمير المؤمنين » ، فضحك سليمان وأمر له بدوابّ من مراكبه ، فسايره وحادثه ، ثم انصرف عنه ، فالحق الرجل إليه ، فقال له موسى : « كيف رأيت ؟ » ، فقال : « أنت كنت به أعلم »[1] .

وكان موسى طويلاً جسيماً[2] ، وقد ذكروا أن جماعة من الناس كانوا جلوساً على سطح فسيح عند سليمان بن عبد الملك ، والناس يدخلون ، حتى دخل موسى من الباب ، فتحرّك السقف بالجالسين من شدّة وطئه[3] ولأنه كان بادناً جسيماً به نَسمة[4] لا تزال تعرض له[5] .

أيّ نوع من الرجال كان موسى ؟

لقد كان إدارياً حازماً لا يتكرّر مثله إلاّ نادراً : حازماً في قراراته ، حازماً في أوامره ، ملتزماً بالحق والعدل والإنصاف . وكان عاقلاً ألمعي الذكاء شجاعاً كريماً ، استطاع أن يجعل من شمالي إفريقيّة دولة متماسكة البنيان وجدت لها متنفساً في الفتح عبر البحر في إسبانيا والجزر ، لهذه الدولة الناشئة عملة خاصة بها ودار صناعة خاصة بها ، وكان من التابعين ورعاً تقياً عالماً أديباً شاعراً ، وكان خبيراً بالرجال والأمم ...

فلا عجب بعد ذلك أن ينجح في نشر الإسلام في ربوع البربر ، وأن ينجح في مزج العرب والبربر ، وأن ينجح في تكوين (وحدة) سليمة ، ودولة (رصينة) ، وأن يفتح بلاداً شاسعة عبر البحار .

لقد كان موسى نسيج وحده ، وكان رجلاً في أمة ، وأمة في رجل .

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/١٠١).
(٢) الإمامة والسياسة (٢/١٠٢).
(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠١).
(٤) النسمة : النفس والربو .
(٥) الإمامة والسياسة (٢/٩١).

ج - نهاية البطل :

توالت المصائب على الشيخ البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م)، ولعلّ من أعظم ما أصابه مقتل إبنه عبد العزيز في الأندلس، وكان قتله صدر رجب من سنة سبع وتسعين الهجرية [١]. ودخل وفد الأندلس على سليمان ومعهم رأس عبد العزيز بن موسى، فبعث إلى موسى فأتاه، فلما جلس وراء القوم قال له سليمان: «أتعرف هذا الرأس يا موسى؟»، فقال: «نعم! هذا رأس عبد العزيز ابن موسى»، فقام الوفد فتكلموا بما تكلموا به؛ ثم إنّ موسى قام فحمد الله، ثم قال: «وهذا رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين، فرحمة الله تعالى عليه، فلعمر الله ما علمته نهاره إلا صوّاماً، وليله إلا قوّاماً، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين ... [٢]»، ثم قال: «هنيئاً له الشهادة، قتلتم والله صوّاماً قوّاماً» [٣]. وهذا موقف بطولي آخر لموسى لا يقلّ روعة عن مواقفه الأخرى في الفتوح، موقف الصابر المحتسب، الذي يصدع بالحق غير وجل ولا هيّاب.

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية حجَّ بالناس سليمان بن عبد الملك [٤]، فأمر سليمان موسى بالشخوص والحج معه، فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً [٥] موقوزة جهازاً، وبحجرة من حجره وجائزة، فحجّ سليمان، وحجّ معه موسى [٦]، فتوفي موسى في (وادي القرى) [٧]، سنة سبع وتسعين الهجرية [٨] (٧١٨ م) وكان عمره

(١) البيان المغرب (٣١/٢٠).
(٢) الإمامة والسياسة (٩٧/٢).
(٣) البيان المغرب (٣٢/٢).
(٤) العبر (١١٥/١) وشذرات الذهب (١١٢/١).
(٥) نجيب: الفاضل على مثله، النفيس في نوعه، ونجائب الإبل: خيارها.
(٦) الإمامة والسياسة (١٠١/٢).
(٧) وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٥/٨).
(٨) تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجذوة المقتبس (٣١٧) وبغية الملتمس =

حين توفي ثمان وسبعين سنة قمرية ، لأنه ولد سنة تسع عشرة هجرية كما مرّ بنا ، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك[1] .

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى الأبد ، ولكنّ التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثره الخالدة ، ذلك لأنه : «كان قد جمع من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلّد، الذي لا يبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديده بلي الأعصار » [2] .

« رحمه الله ! فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحّم عليه ، وإنّ فعلَ سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه موسى نائباً عنه في الأندلس ، وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وَصَمَاته[3] التي تُعَدّ عليه طول الدهر »[4] .

القائد :

ذكروا أن موسى دخل على سليمان يوماً وعنده الناس ، فلما رآه سليمان قال : « ذهب سلطان الشيخ » . وأبصره موسى حين تكلّم ، فلم يفهم ما قال ؛ فلما سلّم قال : « يا أمير المؤمنين ! رأيتك لما نظرتني داخلاً تكلّمت بكلام ظننتك عنيتني به ! » . قال : « نعم . قلت : ذهب سلطان الشيخ » . قال له موسى : « أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ ، لقد أثر الله به في دينه أثراً حسناً ، ولقد كنت طويل الجهاد في الله ، حريصاً على إظهار دين الله ،

--- (٤٤٢) والحلة السيراء (٢/٣٣٤)والعبر (١/١١٥ – ١١٦)وشذرات الذهب (١/١١٣)ونفح الطيب (١/٢٥٤).

(١)البيان المغرب (٢/٢٨)وفي الإمامة والسياسة (٢/١٠٢) : أن الذي صلى عليه هو سليمان بن عبد الملك .

(٢) نفح الطيب (١/٢٦٨) .

(٣)من وصماته : في قوله : « وإن فعل سليمان » ، والوصمات : العيوب ، واحدها وصمة ، بفتح الواو وسكون الصاد في المفرد .

(٤)نفح الطيب (١/٢٦٦).

حتّى أظهره الله ؛ وكنتُ ممن أتمّ الله به موعده لنبيه . ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضر الغصن ، ميمون الطائر » ، فقال سليمان : « هو ذاك ؟! » ، فقال موسى : « وهو ذاك » ؛ فلم يزل يردّدها سليمان ، ويردّدها موسى ، حتّى سكت سليمان[1] .

وصدق موسى فيما قاله سواءٌ صحّ هذا الخبر أم لم يصحّ ، فان أعمال موسى هي الدليل الذي ما بعده دليل على صدقه : فقد نشر الإسلام ، وكان طويل الجهاد فتكلّل جهاده بثمرات يانعة من الفتح الضخم الذي يضعه في مصاف أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين .

فما هو أسلوب موسى في القيادة ؟

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى : « ما الذي كنت تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوّك ؟ » . قال : « التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنت تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟ » . قال : « كل هذا لم أفعله ! » . قال : « فما كنت تفعل ؟ » . قال : « كنت أنزل السهل ، واستشعر الخوف والصبر ، واتحصّن بالسيف والمِغْفَر[2] ، وأستَعِينُ بالله ، وأرغب إليه في النصر » . فقال له سليمان : « فمن كان من العرب فرسانك ؟ » فقال : « حِمْيَر »[3] ، قال : « فأيّ الخيل رأيت في تلك البلاد أصبر ؟ » ... ويمضي سليمان في أسئلته عن الأمم المختلفة ومزاياها في القتال ، ويمضي موسى في أجوبته عن مزايا الأمم الحربية أجوبة مجرّب حصيف لا أجوبة نظري حالم ، وشتان بين المجرّب العملي ، والنظري الحالم[4] .

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٩٩ - ١٠٠) .

(٢) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٣) حمير : هو حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٣٢ - ٤٣٨) و (٢٧٨) .

(٤) انظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (٢/١٠٠) والبيان المغرب (٢/٢٦ - ٢٧) .

لقد أجاب موسى في حديثه إلى سليمان عن مزاياه القيادية ، ولعلّ مجمل ما جاء في جواب موسى لسليمان هو : « أن موسى جعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والإستعانة به والتوكّل عليه ، والفزع إليه ، ومسألته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر . وأنه كان قائداً (تعرّضياً) يهاجم عدوّه دائماً ولا يؤمن بالدفاع . وأنه كان قائداً يستشعر الخوف من عدوه ولا يستهين به ، لذلك يعدّ له ما يستطيع من قوّة ومن رباط الخيل ، ويصبر على قتاله . وأنه يعتمد على (حِمْيَر) فرساناً له وقوة ضاربة لعدوّه وهم مَنْ هم رجولةً وبسالة وتضحية وفداء .

وأنه كان يعرف مزايا الأمم التي يقاتلها ، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة . وأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحرب وما لا يُستفاد !

تلك هي بعض مزايا قيادة موسى ، فإذا أضفنا إلى مزاياه تلك تجربته الطويلة في معاناة الحروب ، وأنه كان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة في الحرب[1] ، وأنه كان شجاعاً[2] ، أدركنا أسباب ما ذكره المؤرخون عن موسى : « إنه لم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط حتّى مات »[3] ، وأنه : « لم يبق في إفريقيّة والمغرب من ينازعه من البربر ولا من الروم »[4] .

لقد كان بعيد النظر يحسب لكل أمر حسابه ، فكان يهيء لكل قوة من قواته الأسلحة والعدّة الكاملة[5] قبل خوض غمار الحروب ، فإذا فتح مدينة أو بلاداً ، ترك فيها من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو[6] .

---

(١) البداية والنهاية (١٧١/٩).

(٢) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤).

(٣) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) والإمامة والسياسة (٨٠/٢).

(٤) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤).

(٥) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤).

(٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤).

وأدرك موسى بثاقب فكره ، أن سواحل إفريقيّة والمغرب الواسعة معرّضة للغزو من البحر سواء كان الغزو من البيزنطيين أو من سكان جزر البحر الأبيض المتوسط أومن بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، لذلك اهتّم غاية الإهتمام بترصين دار الصناعة في تونس لصنع السفن وإدامتها وإعداد النواتية ؛ فأفاد من ذلك في تنقل قطعاته لغزو البحر أولاً ، ولتكون تلك السفن والمرابطون من المسلمين في السواحل البحرية قوة ضاربة تدافع عن سواحل أرض المسلمين في شمالي إفريقيّة ؛ ذلك لأن موسى بما عرف عنه من مهارة حربية قدّر أن الهجوم على عدوّه المتربّص في جزر بحر الأبيض المتوسط وفي الأندلس هو أحسن وسائل الدفاع عن بلاد المسلمين في شمالي إفريقيّة ، والهجوم أجدى وسائل الدفاع كما تنص كتب التعبية العسكرية الحديثة عليه. وفعلاً ، فقد أجدت تدابير موسى هذه ؛ فلم تتعرّض إفريقيّة والمغرب في أيامه لهجمات الأعداء ، كما حدث في أيام أسلافه منذ بدأ الفتح الإسلامي حتى تولى موسى بن نصير أمر شمال إفريقيّة ... بل كان موسى في مهمته أبعد مدى من ذلك ، إذ توسّع في فتوحه عبر البحر في الجزر والأندلس ، وأصبح أعداؤه مهددين في عقر ديارهم !... فكانت فتوحه عبر البحر –كما وصفها موسى – : «إنها ليست كالفتوح ، ولكنه الحشر».

ومن مزايا قيادة موسى ، أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعة ، فقد كان ماهراً في الحصار وفي قتال المدن . بعث سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة ابن عبد الملك إلى أرض الروم ، ووجّه معه خمسمائة وثلاثين ألف رجل ، وخمسمائة ممن ضمّه الديوان واكتتب في العطاء ، وتقلّب في الأرزاق . ودعا سليمان بموسى بعد أن رضي عنه على يد عمر بن عبد العزيز ، فقال سليمان له : «أشر عليّ يا موسى ، فلم تزل مبارك الغزوة في سبيل الله ، بعيد الأثر ، طويل الجهاد» ، فقال له موسى : «أرى يا أمير المؤمنين أن توجّهه بمن معه ، فلا يمرّ بحصن إلا صيّر عليه عشرة آلاف رجل ، حتى يفرّق نصف جيشه ؛ ثم يمضي بالباقي من جيشه ، حتى يأتي القسطنطينيّة ،

فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين » . فدعا سليمان مسلمة فأمره بذلك من مشورة موسى[1] .

هذه التعليمات العسكرية ، تدلّ بوضوح على ميزتين من مزايا قيادة موسى ، بالإضافة إلى مزيتيه الأخريين وهما : معرفته قتال المدن، ومعرفته أساليب الحصار ... وهاتان الميزيتان الجديدتانمهمّتان لكل قائد ناجح ، وهما : العناية بحماية خطوط المواصلات، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد . فبقاء قوة جسيمة لحصار كل حصن منيع يجبر العدو على تخصيص قوة مناسبة لذلك الحصن من أجل حمايته ، كما أن القوة التي تطوّق الحصن تشل ذلك الحصن وتحول بين قواته المخصصة لحمايته وبين محاولتها قطع خطوط مواصلات المسلمين .

واهتمام موسى بتأمين خطوط مواصلاته وحمايتها ، كما لمسنا ذلك فعلاً في حروبه وكما رأينا ذلك في تعاليمه العسكرية ، يجعلنا نتساءل : كيف كان يطمح موسى أن يقود رجاله إلى (رومية) ليفتحها [2]؟.. وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدى أبعد من ذلك . فيقود رجاله مخترقاً ما بين الأندلس والقسطنطينية فاتحاً ما بينهما من أوربا ؟ فقد : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دُروبه ودُروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، الى أن يلحق بدار الخلافة » ، فنمي الخبر إلى الوليد بن عبد الملك، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والإنصراف ، ففتّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها [3].

وليس من شك ، أن هناك صعوبات جسيمة وأخطاراً هائلة — من الناحية

---

(١) الإمامة والسياسة (٨٨/٢).
(٢) الإمامة والسياسة (٨١/٢).
(٣) نفح الطيب (٢١٨/١).

العسكرية ـ لتحقيق طموح موسى في فتح (رومية) والوصول إلى الشام عن طريق (القسطنطينية) من الأندلس، ولكن هل مثل موسى في تجربته الطويلة المنتصرة في الحروب، وفي مزاياه القيادية الفذة التي لا شك فيها، يغرِّر بالمسلمين ولا يحسب حِسَابَ ما يحتاجه من قوات ومن قضايا إدارية لتحقيق مطامحه التوسعية في الفتح ونشر الإسلام؟

من الواضح، أن موسى نجح نجاحاً باهراً في السيطرة على شمالي إفريقيّة، وأنه نجح نجاحاً باهراً في نشر الإسلام بين البربر الذين حسن إسلامهم، فاستعمل عليهم مولاه طارق بن زياد البربري[1]، فأصبحت لديه قوات جسيمة لا ينضب معينها من البربر المسلمين؛ فكان مما ميّز فتح الأندلس على غيره من الفتوح العربية حتّى ذلك الوقت، هو إشتراك المغاربة إلى جانب العرب إشتراكاً ايجابياً في هذا الفتح؛ وهذا عمل عظيم من غير شك، يشهد للعرب المسلمين بالمجد والفخار، إذ نجحوا في إداء رسالتهم رسالة الإخاء والمساواة، فاكتسبوا إلى جانبهم أهل البلاد قلباً وقالباً، فأصبح البربر المسلمون أشدّ حماسة من العرب المسلمين لتحقيق أهداف الإسلام، فقاموا إلى جانب إخوانهم العرب المسلمين ينشرون الرسالة الإسلامية في اوربا، ويبذلون المهج والنفوس رخيصة في هذا السبيل[2].

فإذا نجح موسى في إيجاد قيادة ممتازة من البربر المسلمين، وإيجاد عناصر مقاتلة ضخمة من البربر المسلمين، تعمل تلك القيادة متعاونة إلى جانب القيادة العربية، وتعمل تلك القوات متعاونة إلى جانب القوات العربية، مع امتياز قوات البربر على القوات العربية بكثرتها أولاً وبقرب بلادها من مناطق الفتح الجديدة ثانياً، وإمكان إدامة القوات البربرية بالرجال والمعدّات بسهولة ويسر ـ كلّ ذلك يجعلنا نرجح أن مطامح موسى لها ما يبرِّرها وما يحقّق أهدافها؛ خاصة وأن استكمال فتح الأندلس، جعل منها قاعدة متقدمة

---

(١) انظر وفيات الأعيان (٤/٣٠٣).

(٢) انظر تاريخ المغرب العربي (٢٢٠).

أمامية للمسلمين يستندون عليها في فتوحاتهم الأوربية الأخرى ، كما أن موارد الأندلس وغنائم المسلمين منها تمد المسلمين بما يحتاجون إليه من القضايا الإدارية ...

إنّ أعمال موسى العسكرية كلّها تدلّ على أنّ خطواته في الفتح كانت متزنة جداً ، فليس من الصدفة مطلقاً أنه لم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

في المغرب وإفريقيّة قضى على كل مقاومة معادية من البربر ومن الروم في الصفحة الأولى من أيام جهاده . وفي الصفحة الثانية من ذلك الجهاد وبعد استتباب الأمن في ربوع شمالي إفريقيّة ، وبعد أن استأمن البربر وبذلوا الطاعة ، فقبل منهم وولىّ عليهم والياً واستعمل على (طنجة) وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربري ، وترك معه تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، رجع إلى إفريقيّة ، ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم[1] . وبكلام آخر بعد أن وحّد البلاد وأشاع فيها الإنسجام الفكري بنشر الإسلام في ربوعها ، وقام بعملية المزج الفكري بالإسلام عقيدة وتضحية وفداء ، أصبح البربر المسلمون قوّة جبارة للعرب المسلمين لا عليهم ، وجدت لها متنفساً في الفتح عبر البحر . وبذلك تطوّرت خطط موسى العسكرية من الدفاع إلى الهجوم ، ومن التقيّد بشمال إفريقيّة إلى التطلّع إلى فتح جديد .

وحين رأى الوقت مناسباً لفتح الأندلس ، لم يندفع اندفاعاً أعمى على غير هدى ولا بصيرة ، بل بذل قصارى جهده لتنظيم دار الصناعة بتونس لتكون قادرة على إعداد السفن والملاّحين ، وأفاد من المنابع المتيسرة الأخرى للسفن والملاّحين ، ثم بعث (طريفاً) سنة إحدى وتسعين الهجرية بالسرايا حتى لا يغرّ بالمسلمين لاختبار إمكانية فتح الأندلس . فلما نجح طريف في

---

(١) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤) .

مهمته ، بعث طارق بن زياد سنة اثنتين وتسعين الهجرية بقوّات ضاربة إلى الأندلس ؛ وحين نجح طارق في مهمّته وخشي موسى على طارق وقواته من أخطار التغلغل بعيداً في الفتح داخل الأندلس ، أقدم موسى على العبور بنفسه مع قواته الضاربة الأخرى ، وتعاون مع طارق ــ كما رأينا ــ في تحقيق أهداف الفتح في الأندلس ، وكانت فتوح موسى في تسلسلها الزمني والجغرافي تسير حسب خطّة مرسومة دقيقة واضحة الأهداف جليّة المعالم بعيدة عن التهوّر والأخطار .

ترى ! لو بقي موسى على رأس رجاله في الأندلس ، فهل كان بإمكانه تحقيق مطامحه التوسعية ؟

كلُّ الدلائل تدلّ على أن موسى ، لم يكن من أولئك القادة المتهورين الذين يلقون بأنفسهم وبرجالهم إلى التهلكة ، وتاريخ جهاده الطويل أكبر دليل على إثبات اتزانه في حروبه ، وأنه كان من أولئك القادة البعيدي النظر ، الذين يتبيّنون مواطىء أقدامهم قبل أن يتقدّموا خطوة واحدة إلى الأمام .

ولعلّ موسى وجد الطاقات البشرية الهائلة المتمثلة في البربر المسلمين ، والطاقات الإدارية الغنية المتمثلة في موارد شمال إفريقيّة والأندلس ومغانمهما الضخمة ، فأراد أن يسخّر كلّ تلك الطاقات البشرية والإدارية في تحقيق فتوح جديدة عبر أوربا إلى رومية من جهة وإلى القسطنطينية من جهة أخرى ، فيحقّق حلماً طالما راود الخلفاء منذ أيام معاوية بن أبي سفيان الذي توغل سنة اثنتين وثلاثين الهجرية في أرض الروم ، فالتقى بالروم قريباً من القسطنطينية[1] ، ثم أرسل جيشاً خاصاً لفتح القسطنطينية سنة تسع وأربعين الهجرية[2] ــ وذلك بفتح القسطنطينية عبر أوربا بدلاً من فتحها من أرض الشام كما حاول الخلفاء من قبله ، فيقضي موسى على عاصمة البيزنطيين الذين كانوا خطراً حقيقياً يهدّد سلامة دولة

---

(١) العبر (٣٢/١).

(٢) الطبري (١٧٣/٤) وابن الأثير (١٨١/٣).

الإسلام في عقر دارها ... بل يذهب موسى الى أبعد مما كان يحلم به الخلفاء من قبله ، وهو محاولة فتح رومية أيضاً ، وبذلك يسيطر على أقوى عاصمتين من عواصم أعداء المسلمين .

مما تقدّم نستطيع أن نتبيّن بوضوح الحقائق التالية :

أولاً : إنّ موسى كان قائداً فذاً له قابليات ممتازة في القيادة .

ثانياً : إنه كان قائداً واقعياً بعيداً عن الخيال ، وإنه إذا قال فعل .

ثالثاً : إنه لم يكن من الذين يغرّرون برجالهم في الحروب من أجل الأمجاد الشخصية أو المكاسب الذاتية .

رابعاً : لذلك فتحقيق أحلامه في فتح القسطنطينية من الغرب ورومية – على الرغم من صعوبة ذلك وعظم متطلباته وتكاليفه من الرجال والقضايا الإدارية – كان بمقدور موسى أن ينجح بتحقيقها نظراً لمنابع الطاقات البشرّية الهائلة المتيسّرة لديه – خاصة من البربر الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ونظراً لقابليات القادة المتيسرين لديه – مثل طارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى بن نصير – ونظراً لمنابع الطاقات الإدارية الضخمة التي استحوذ عليها في الأندلس وشمال إفريقيّة .

خامساً : إنّ عزله عن قيادته وسحبه من الأندلس وهو في أوج انتصاراته خسارة لا تعوّض للمسلمين ، فقد حرم دولة الإسلام من نشر دين الله في أوربا ومن فتح بلاد شاسعة في أوربا أيضاً .

وقبل أن نختم تقدير مزايا موسى القياديّة ، لا بدّ لنا من الإشارة إلى ناحية مهمّة من مزاياه ، وهي أنه كان قائداً يستأثر بالخطر دون أصحابه في الحرب ، وأنه كان دائماً في الأمام يصطلي بنار الحرب أكثر من كلّ قائد من قادته ومن كلّ رجل من رجاله ؛ لذلك فقد كان موسى يضرب بمثاله الشخصي لرجاله وقادته معاً أروع الأمثال في التضحية والإقدام ، ويكون دائماً مثالاً شخصياً لقواته في الشجاعة والبسالة يحتذون حذوه ويقتدون به .

ذكروا أن جعفر بن الأشتر قال : «كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى ، فحاصرنا حصناً من حصونها عظيماً ، بضعاً وعشرين ليلة ، ثم لم نقدر عليه . فلما طال ذلك عليه ، نادى فينا : أن أصبحوا على تعبئة ! وظننا أنه قد بلغه مادة من العدو ، وقد دنت منا ، وأنه يريد التحوّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئة ، فقام فحمد الله ، ثم قال : أيها الناس ! إني متقدّم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبّرت وحملت ، فكبّروا واحملوا . فقال الناس : سبحان الله ! أترى فقد عقله أم عزب عنه رأيه ؟! يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيل إليه ؟! فتقدّم بين يدي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره ، فاستعددنا . ثم إن موسى كبّر وكبّر الناس ، وحمل وحمل الناس ...»[1] .

ولو ذهبنا نستقصي عدد مرات إقدامه على مهاجمة العدو أمام صفوف رجاله ، لطال تعداد مواقفه البطولية الفذّة .

إنه من أولئك القادة الذين لم يكونوا يعرفون للمستحيل معنىً، وما أقلّ أمثاله من القادة الذين لا يحنون رؤوسهم للأهوال والصعاب .

وعند مقارنة ما سبق ذكره من أعمال موسى العسكرية ، بمبادىء الحرب ، يتّضح لنا ، أن موسى ، كان يطبق مبدأ (إختيار المقصد وإدامته) ، فقد كانت له أهداف واضحة في حربه توصله في النهاية إلى تحطيم إرادة العدو على القتال . وكان يطبق مبدأ (التعرّض) ، بل هو في حروبه كان قائداً تعرضياً مثالياً ، فلم يدافع في حياته العسكرية مطلقاً، وكان دائماً يهاجم عدوّه . وكان يطبق مبدأ (المباغتة) كلما وجد إلى ذلك سبيلا . وكان يطبق مبدأ (تحشيد القوة) ، فيحشد أعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدام كل ذلك في الزمان والمكان الجازمين . وكان يطبّق مبدأ (الأمن) ويوفّر الحماية لقواته ولخطوط مواصلاته من أجل وقايتها من مباغتة العدو لها ، وفعلاً لم

(١) الإمامة والسياسة (٢/٧٩).

يستطع العدو أن يباغت قوات موسى في كلّ حياته العسكرية . وكان يطبّق مبدأ (المرونة) لكي يُيَسّر لقواته قابلية ممتازة للحركة براً وبحراً . وكان يطبّق مبدأ (التعاون) بين صفوف جيشه وبين قادته وبين أرتال قواتــه المتقدّمة بحيث يجعلها تحقق أهدافها بأقرب وقت وبأقل خسائر مادية ومعنوية . وكان يطبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ، فيشيع في قطعاته الثقة بالنفس وبالقيادة والإعتماد على نصر الله . وكان يطبق مبدأ (الأمور الإدارية) فييّسر لقواته إعاشتها وعتادها وسلاحها ونقليتها ومتطلّباتها الإدارية الأخرى كافة في مختلف الظروف والأحوال .

لقد كانت لموسى قابلية فذّة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وكان شجاعاً مقداماً قوي الإرادة ثابتها، يتحمّل مسؤوليته كاملة بلا تردّد ولا يلقيها على عواتق الآخرين . وكان يعرف مبادىء الحرب ويطبقها بكفاية ومقدرة ، وكانت له نفسية لا تتبدّل في حالتي النصر والإندحار . وكان بعيد النظر ، له معرفة مستفيضة بنفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ونفسية رؤسائه وقابلياتهم ، وبمزايـــا الأمم والشعوب التي يحاربها ، وبمزايا الخيل والسلاح الذي يستعمله . وكان يثق برجاله ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب . وكانت له شخصية نافذة قوية وقابلية بدنية ممتازة وماض ناصع مجيد .

تلك هي مجمل مزايا قيادة موسى ، وهي الجواب الواضح عن أسباب انتصاراته المتوالية الكثيرة ، بحيث لم تردّ له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

إنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي ، بل كان من الطبقة الأولى من أولئك القادة : طبقة خالد بن الوليد المخزومي والمثنى بن حارثة الشيباني وقتيبة بن مسلم الباهلي .

لقد كان موسى جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً ، وكان ولا يزال وسيبقى

من مفاخر التاريخ الإسلامي فاتحاً وإدارياً ، وقائداً وإنساناً .

موسى في التاريخ :

يذكر التاريخ لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط .

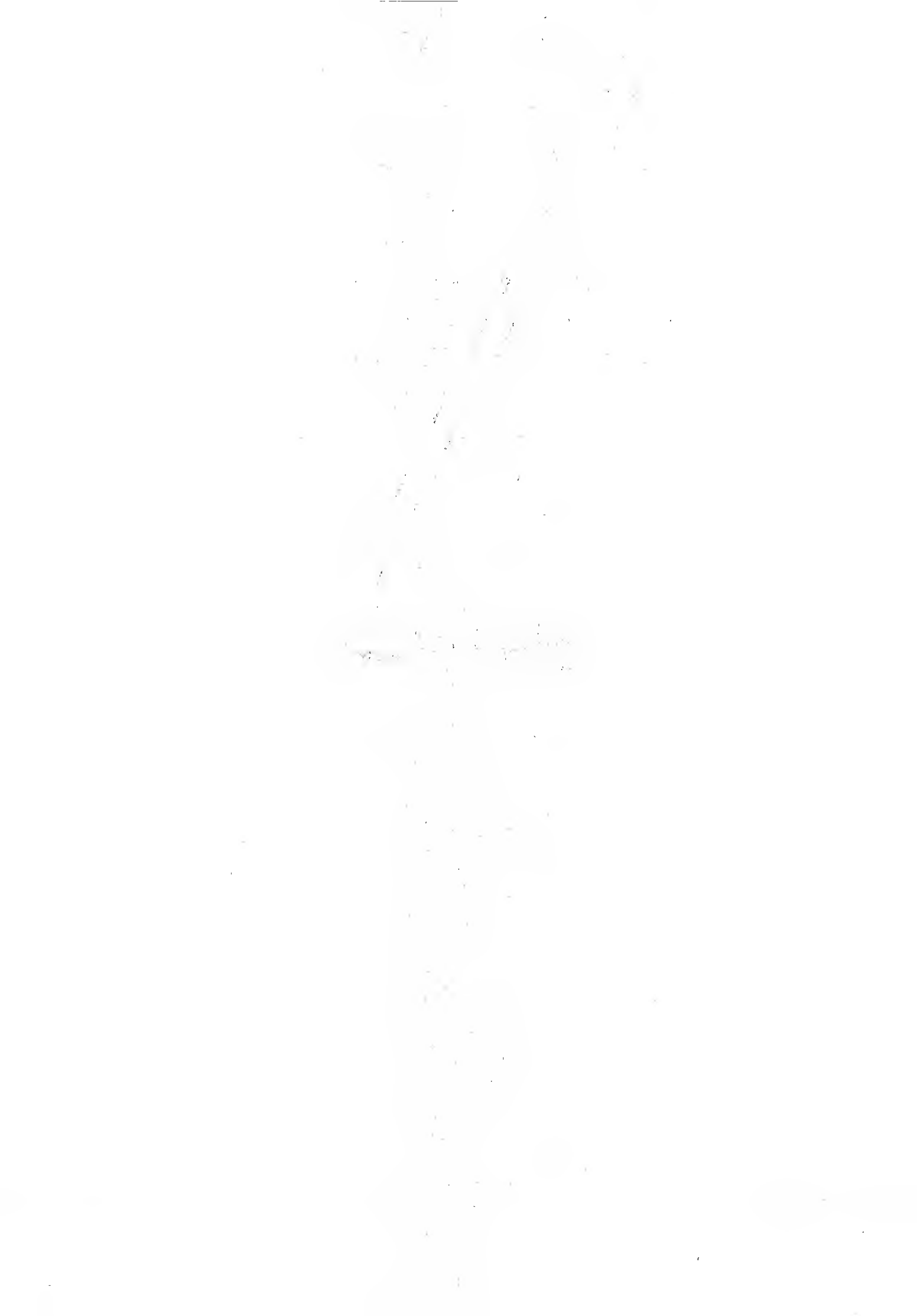
ويذكر له أنه رصّن الفتح الإسلامي في المغرب العربي ، فأصبحت شمال إفريقية عربياً إسلامياً الى الأبد .

ويذكر له أنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا .

ويذكر له أنه نشر العربية لغة والإسلام ديناً في شمال إفريقيّة وفي الأندلس.

ويذكر له أنه كان من أعـــاظم قادة الفتح الإسلامي .

رضي الله عن التابعي الجليل ، الإداري الحازم ، البطل المغوار ، القويّ الأمين ، القائد الفاتح ، موسى بن نصير اللّخْمي .



المصادر والمراجع

المصــــادر

(أ)

١ - ابن كثير (تفسير) - الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير - مطبعة المنار - القاهرة - ١٣٤٧ هـ .

٢ - آثار البلاد وأخبار العباد - زكريا بن محمد القزويني - مطبعة دار صادر ودار بيروت - بيروت - ١٣٨٠ هـ .

٣ - أخبار مجموعة في فتح الاندلس - مؤلف مجهول - نشره دون لافونتي القنطرة (Don Lafuente Alcantara) في مجموعة (Obras Arabigas) التي تصدرها « الأكاديمية التاريخية الملكية » - الجزء الأول - مدريد - ١٨٦٧ م .

٤ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - المقدسي المعروف بالبشاري - مطبعة ليدن - ليدن - ١٩٠٦ م .

٥ - الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - أحمد بن خـــالد الناصري السلاوي - القاهرة - ١٣١٠ هـ .

٦ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر - تحقيق علي محمد البجاوي - مطبعة نهضة مصر - القاهرة .

٧ - أسد الغابة في معرفة الصّحابة - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب بعز الدين - المطبعة الاسلامية - طهران - ١٣٧٧ هـ .

٨ - أسماء الصحابة الرّواة - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم -

ملحق بجوامع السّيرة ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة .
٩ ـ الإصابة في تمييز الصّحابة ـ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني ـ المطبعة الشرقية ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ ﻫ .
١٠ ـ الأعلاق النفيسة ـ أبو علي أحمد بن عمر بن رستة ـ مطبعة ليدن ـ ليدن ـ ١٨٩١ م .
١١ ـ الإمامة والسياسة ـ المنسوب إلى أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٧ ﻫ ـ الطبعة الثانية .
١٢ ـ أنساب الأشراف ـ أحمد بن يحي بن جابر البلاذري ـ تحقيق الدكتور محمد حميد الله ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م ـ الجزء الأول .

(ب)

١٣ ـ البداية والنهاية في التاريخ ـ عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة .
١٤ ـ البغوي (تفسير) ـ الإمام البغوي ـ مطبعة المنار ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ ﻫ ـ مطبوع تحت صفحات تفسير ابن كثير .
١٥ ـ بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ـ يحي بن محمد بن خلدون ـ الجزائر ـ ١٣٢١ ﻫ .
١٦ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ـ أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي ـ مطبعة روخس ـ مجريط ـ ١٨٨٤ م .
١٧ ـ البلدان ـ أحمد بن يعقوب ـ مطبعة ليدن ـ ليدن ـ ١٨٩٢ م .
١٨ ـ البيان المغرب في أخبار المغرب ـ أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي ـ مكتبة صادر ـ بيروت .
١٩ ـ البيضاوي (تفسير) ـ القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد

الشيرازي البيضاوي – دار الكتب العربية الكبرى بمصر – القاهرة – ١٣٣٠ هـ .

(ت)

٢٠ – تاريخ افتتاح الأندلس – أبو بكر محمد المعروف بابن القوطيّة القرطبي – تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع – دار النشر للجامعيين – بيروت .

٢١ – تاريخ الأمم والملوك – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٣٥٨ هـ .

٢٢ – تاريخ الخلفاء – عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي – المطبعة المنيرية – القاهرة – ١٣٥١ هـ .

٢٣ – تاريخ الخميس – حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري – مطبعة عثمان عبد الرازق – القاهرة – ١٣٠٢ هـ – الطبعة الأولى .

٢٤ – تاريخ العلماء والرواة بالأندلس – أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٣٧٤هـ.

٢٥ – تاريخ اليعقوبي – أحمد بن يعقوب – مطبعة الغري – النجف – ١٣٥٨هـ.

٢٦ – تجريد أسماء الصحابة – أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين – مطبعة دار المعارف النظامية – حيدر آباد الدكن – ١٣١٥ هـ – الطبعة الأولى .

٢٧ – تقويم البلدان – اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة – دار الطباعة السلطانية – باريس – ١٨٤٠ م .

٢٨ – تهذيب الأسماء واللغات – الإمام النووي – المطبعة المنيرية – مصر .

٢٩ – تهذيب التهذيب – الإمام ابن حجر العسقلاني – مطبعة دار المعارف النظامية – حيدر آباد الدكن – ١٣٢٦ هـ .

(ج)

٣٠ – جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – أبو عبد الله محمد بن فتوح

ابن عبد الله الحميدي ــ مطبعة الخانجي ــ القاهرة ــ ١٣٧٢ هـ .
٣١ ــ جمل فتوح الإسلام ــ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة ــ ملحق بجوامع السيرة .
٣٢ ــ جمهرة أنساب العرب ــ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ــ تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة ــ ١٣٨٢ هـ .

(ح)

٣٣ ــ الحلة السيراء ــ أبو عبد الله محمد المعروف بابن الأبار ــ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .
٣٤ ــ حلية الفرسان وشعار الشجعان ــ علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي ــ تحقيق محمد عبد الغني حسن ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٥١ م.

(خ)

٣٥ ــ الخلاصة النقية في أمراء إفريقيّة ــ أبو عبد الله محمد بن الباجي المسعودي ــ مطبعة بيكار ــ تونس ــ ١٣٢٣ هـ .

(د)

٣٦ ــ دول الإسلام ــ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٣٦٨ هـ .

(ذ)

٣٧ ــ ذيل المذيّل ــ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ــ مطبعة الإستقامة ــ القاهرة ــ ١٣٥٨ هـ ــ طبع في آخر تاريخ الطبري .

(ر)

٣٨ ــ الروض الآنف ــ شرح السيرة النبوية لابن هشام ــ أبو القاسم عبد

الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي ــ مطبعة الجمالية ــ القاهرة ــ ١٣٣٣ هـ .

٣٩ ــ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ــ أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي ــ نشره الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ــ ١٩٥١ م.

(س)

٤٠ ــ سير أعلام النبلاء ــ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ــ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة .

٤١ ــ السيرة الحلبيّة ــ علي الحلبي الشافعي ــ مطبعة مصطفى محمد ــ القاهرة .

٤٢ ــ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ــ أبو محمد عبد الملك بن هشام ــ مطبعة حجازي ــ القاهرة ــ ١٣٥٦ هـ .

(ش)

٤٣ ــ شذرات الذهب ــ ابن عماد الحنبلي ــ مطبعة القدسي ــ القاهرة ــ ١٣٥٠هـ.

(ص)

٤٤ ــ صفة جزيرة الأندلس ــ منتخبة من كتاب : « الروض المعطار في خبر الأقطار » ــ أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري ــ نشره الاستاذ ليفي بروفنسال ــ القاهرة ــ ١٩٣٧ م .

(ط)

٤٥ ــ طبقات ابن سعد ــ ابن سعد ــ دار بيروت وصادر ــ بيروت ــ ١٣٧٦هـ.

(ع)

٤٦ ــ العبر ــ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ــ تحقيق فؤاد سيد ــ مطبعة الكويت ــ الكويت ــ ١٩٦١ م .

٤٧ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ عبد الرحمن بن خلدون المغربي ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ـ ١٢٨٤ هـ .

(ف)

٤٨ ـ فتوح مصر والمغرب ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي ـ مطابع لجنة البيان العربي ـ القاهرة .

٤٩ ـ فتوح البلدان ـ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

(ك)

٥٠ ـ الكامل في التاريخ ـ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بعز الدين ـ مطبعة ذات التحرير ـ القاهرة ـ ١٣٠٣ هـ .

٥١ ـ الكشّاف (تفسير) ـ الإمام أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ـ ١٣١٩ هـ ـ الطبعة الثانية .

(م)

٥٢ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلد الثالث ـ الجزء الثاني ـ ١٣٧٤ هـ .

٥٣ ـ المختصر من أخبار البشر ـ اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة ـ المطبعة الحسينية ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ .

٥٤ ـ مختصر كتاب البلدان ـ أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه ـ مطبعة ليدن ـ ليدن ـ ١٨٨٥م .

٥٥ ـ مختصر سياسة الحروب ـ الهرثمي ـ تحقيق عبد الرؤوف عون ـ مطبعة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

٥٦ ـ المسالك والممالك ـ أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي ـ تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسيني

ــ مطابع دار القلم ــ القاهرة ــ ١٣٨١ هـ .
٥٧ ــ المسالك والممالك ــ أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة ــ أعادت مكتبة المثنى طبعه في طهران ــ ١٩٦٣ م .
٥٨ ــ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ــ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ــ طبع سنة ١٨٤٦ م وأعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه سنة ١٩٦٣ م .
٥٩ ــ المعارف ــ ابن قتيبة ــ مطبعة دار الكتب ــ القاهرة ــ ١٩٦٠ م .
٦٠ ــ معالم الإيمان ــ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ــ تونس ــ ١٣٢٠ هـ .
٦١ ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ــ عبد الواحد المراكشي ــ مطبعة مصر ــ القاهرة ــ ١٣٢٤ هـ .
٦٢ ــ المغرب في حلى المغرب ــ ابن سعيد الأندلسي ــ الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ــ مطبعة جامعة فؤاد الأول ــ القاهرة ــ ١٩٥٣ م .
٦٣ ــ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ــ أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري . طبع دي سلان (De Slan) ــ الجزائر ــ ١٩١١ م .
٦٤ ــ المواعظ والاعتبار ــ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ــ القاهرة ــ ١٢٧٠ هـ .
٦٥ ــ المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ــ ابن أبي دينار القيرواني ــ طبعة تونس ــ تونس ــ ١٢٨٦ هـ .

(ن)

٦٦ ــ النجوم الزاهرة ــ ابن تغري بردى الأتابكي ــ مطبعة دار الكتب المصرية ــ القاهرة ــ ١٣٤٨ هـ .
٦٧ ــ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ الشريف الإدريسي ــ نشره دوزي ودي جوجة ــ ليدن ــ ١٨٦٦ م .
٦٨ ــ نسب قريش ــ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ــ مطبعة دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٥٣ م .

٦٩ ــ نص جديد عن فتح العرب للمغرب ــ عبيد الله بن صالح ــ نشره الاستاذ ليفي بروفنسال وعلّق عليه الدكتور حسين مؤنس في مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ــ ١٩٥٤ م .
٧٠ ــ نفح الطيب ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٣٦٧ هـ ــ الطبعة الأولى.
٧١ ــ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ــ أبو العباس أحمد القلقشندي ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م ــ الطبعة الأولى .

(و)

٧٢ ــ وفيات الأعيان ــ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٣٦٧ هـ ــ الطبعة الأولى .
٧٣ ــ الولاة والقضاة ــ أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ــ مطبعة الآبـاء اليسوعيين ــ بيروت ــ ١٩٠٨ م .

المــراجع

(أ)

١ – أطلس التاريخ الإسلامي – هاري . و . هازارد – ترجمة ابراهيم زكي خورشيد – مطبعة مكتبة النهضة المصرية – القاهرة .

٢ – الأعلام – خير الدين الزركلي – الطبعة الثانية – القاهرة – ١٣٧٣ هـ – ١٣٧٨ هـ .

(ت)

٣ – تاريخ الجزائر العام – عبد الرحمن محمد الجيلالي – المطبعة العربيــة – الجزائر – ١٣٧٥ هـ .

٤ – تاريخ الجزائر في القديم والحديث – مبارك بن محمد الهلالي الميلي – مطبعة النهضة الجزائرية – الجزائر ١٣٥٠ هـ .

٥ – تاريخ الفتح العربي في ليبيا – الطاهر أحمد الزاوي – مطبعة المعارف – القاهرة – ١٣٧٣ هـ .

٦ – تاريخ المغرب العربي – سعد زغلول عبد الحميد – مطبعة المعارف – القاهرة – ١٩٦٥ م .

٧ – تاريخ المغرب – محمد بن عبد السلام بن عبود – دار الطباعة المغربية – تطوان – ١٩٥٧ م – الطبعة الثانية .

٨ – تاريخ المغرب الكبير – محمد علي دبوز – مطبعة البابي الحلبي – القاهرة – ١٣٨٤ هـ .

٩ – تاريخ المغرب – عبد العزيز بنعبد الله – مطبعة الجامعة – الدار البيضاء .

١٠ ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ـ الأمير شكيب ارسلان ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ .
١١ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ـ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ـ مطبعة المعارف ـ لبنان ـ ١٩٦٢ م .

(خ)

١٢ ـ خريطة المغرب الاركيولوجية ـ أحمد المكناسي ـ دار كريماديس للطباعة ـ تطوان ـ ١٩٦١ م .
١٣ ـ خلاصة تاريخ تونس ـ حسن حسني عبد الوهاب ـ تونس ـ الطبعة الثالثة .

(د)

١٤ ـ دولة الإسلام في الأندلس ـ محمد عبد الله عنان ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .

(ر)

١٥ ـ الرسول القائد ـ محمود شيت خطاب ـ مطبعة دار القلم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م ـ الطبعة الثالثة .

(ع)

١٦ ـ العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ـ الدكتور عمر فروخ ـ بيروت ـ ١٣٧٨ هـ .

(ف)

١٧ ـ الفاروق القائد ـ محمود شيت خطاب ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ

١٩٦٥ م . الطبعة الثانية .
١٨ – فتح العرب للمغرب – الدكتور حسين مؤنس – مطبعة مصر – القاهرة .
١٩ – الفتوحات العربية الكبرى – جون باجون غلوب – تعريب وتعليق خيري حمّاد – منشورات مكتبة المثنى – بغداد – ١٩٦٤ م .
٢٠ – فجر الأندلس – الدكتور حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر – القاهرة – ١٩٥٩ م .

(ق)

٢١ – قادة فتح الشام ومصر – محمود شيت خطاب – دار الفتح – بيروت – ١٣٨٥ هـ .

(م)

٢٢ – موسى بن نصير – محمد عبد الغني حسن – دار المعارف – القاهرة – ١٩٥٧ م .
٢٣ – موسى بن نصير – كامل محمود حبيب – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – ١٩٦٠ م .

(هـ)

٢٤ – هنيبعل – جورج مصروعة – بيروت .

المراجع الاجنبية

1. Encyclopedia Britannica.
2. Chember's Encyclopedia.
3. Creswell (K. A. C.), Earby Muslim architecture : Umayyads, Early Abbas - sids and Tulunids, Vol. II, Part II, Oxford, 1938.
4. Gibben : Decline and Fall of the Roman Empire.
5. Lane - Poole ; The Moors in Spain.
6. Scott : Moorish Empire in Europe
7. Finlay : Byzantine Empire.

الفهارس

١ ـ الأعلام .

٢ ـ الأماكن .

٣ ـ القبائل والملل والنحل .

٤ ـ الخرائط .

٥ ـ الموضوعات .

الأعلام

الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

(ب)

الأماكن

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

القبائل والملل والنحل

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

الخرائط

---

(١) من كتاب فتح العرب للمغرب .

(٢) » » » » » .

الموضوعات

الصفحة

الصفحة